السيرة النبوية



العدنانيون

عبد الحميد جودة السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

(قرآن كريم)

١

الحرب دائرة بين عدنان وبختنصر فى حصوراء ، وقد غصت معابد اللات وذى الشرى والعزى ورب البيت بالكهان والشيوخ والنساء والأطفال يبتهلون لآلهتهم أن تؤيد بنصرها عدنان ، ويقدمون إليها القرابين ويحرقون البخور ، فغطيت عاصمتهم البتراء بسحب كثيفة من الدخان ، وتجاوبت فى أرجائها الصلوات وترددت أناشيد الكاهنات والمغنيات ، وانهمرت الدموع من العيون تعبر عما تزخر به قلوبهم المؤمنة من انفعالات .

وفى هجعة الليل خرج معد وعك ابنا عدنان من أرض النبط ، وسارا ومن خرج معهما فى وادى موسى ، وخلفوا وراءهم عاصمتهم البتراء التى امتلأت بمعابد اللات والعزى والأصنام الأخرى التى جلبت من بابل ودمشق ومصر ، ولم تأخذ القافلة معها « شيع القوم » إلٰه القوافل ، فقد كان معد على الرغم من حداثة سنه ينفر من عبادة الأوثان .

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده ويعظمون الكعبة ، فلما تفسحوا فى الأرض أخذوا معهم حجارة من البيت المعظم ليتبركوا بها ، فلما هزهم الشوق إلى البيت المحرم وبعدت بينهم وبين البيت الأسباب أخرجوا حجارة البيت ووضعوها وطافوا بها طوافهم بالبيت العتيق .

وطال عليهم الأمد وقست قلوبهم فنسوا ما كان يعبد آباؤهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وحسبوا أن الحجارة تعبد لذاتها . ولما كانوا قد طافوا بالبلاد ورأوا تماثيل مصر الجميلة وأصنام مردوخ وسين وعشتار فى بابل ، فقد استبدلوا بالحجارة تماثيل جلبوها من مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين ، ووضعوا لها الأساطير فزعموا أن اللات والعزى ومناة بنات الله ، وأنهن يقربن عبادهن إليه ، وأن شفاعتهن ترتجى .

عبد العرب الكواكب والنجوم قبل أن يدعوهم إبراهيم الخليل إلى الإسلام وإلى عبادة الله وحده ، فلما طال عليهم العهد وعادوا لعبادة الأصنام بعثت فيهم عبادة الكواكب مرة أخرى ، فجعلوا كل إلـٰه من آلهتهم رمزا لنجم أو كوكب ، ولما كانوا يعتقدون — قبل أن يعرفوا التوحيد — أن القمر هو رب الأرباب ، وأن الشمس هى زوجة الإلـٰه وأم الآلهة الأخرى ، وأن النجوم أبناؤها ؛ ولما كان دين إبراهيم قد غرس فى ضمائرهم أن لهذا الكون ربا هو « الإيل » فقد ظل ذلك الاعتقاد راسخا فى نفوسهم ، بيد أنهم جعلوا « للإيل » زوجة أطلقوا عليها « الإيلات » ثم اللات للتخفيف . وكانت الشمس رمزا لأم الآلهة وزوجة الإلـٰه فى ديانات العرب قبل بعثة إبراهيم خليل الرحمن ، فصارت اللات رمزا للشمس ، وأصبحت العزى ابنة الإيل واللات رمزا لكوكب الصباح ، وكانت مناة ابنة ثانية تقسم على الناس حظوظهم ، ولما كان العرب الشماليون لا يزالون يؤمنون بالبعث بعد الموت ، فقد جعلوا « منوتن » — ومناة فيما بعد — المتصرفة فيهم بعد موتهم .

وانطلق معد وعك والذين معهما من بنى إسماعيل إلى الجنوب ، وكانت الكعبة قبلتهم ومكة أملهم المنشود ، وكان كل ما يشغل بال رجال القافلة أن يركضوا فرارا من بختنصر وجنوده ، ولكن معدا كان هادىء النفس يقلب وجهه فى السموات والأرض ، فيستشعر فى أعماقه رب

المشارق والمغارب ، ويحس أنه مرتبط بذلك الكون وأن ذاته تفنى فيه ، وأن نورا ينسكب من وراء الطبيعة ومن فوقها ينير ظلام نفسه ويفجر بالضياء بصيرته ، وأن روحه تتصل بروح الوجود وتذوب فيه ؛ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وظلت القافلة تضرب فى البيداء حتى نزلت تيماء تستريح ، فوجدت فيها قوما من بنى إسرائيل كانوا قد فروا من وجه بختنصر يوم انتسف أرض إسرائيل وأرض يهوذا نسفا ، وخف شيوخ بنى إسرائيل يرحبون بالوافد الكريم ، فلم يكن بنو إسرائيل قد نسوا بعد فضل بنى إسماعيل الذين كانوا يسارعون لنجدتهم كلما حاقت بهم الخطوب .

ودار بين بنى إسماعيل وبنى إسرائيل الحديث حول موائد الطعام التى مدت ، فقال بنو إسرائيل فيما قالوا : إنهم نزلوا هذه الواحة لأن فى كتبهم أن النبى المنتظر الذى يجدونه عندهم فى التوراة سيهاجر إلى أرض ذات نخل ، وإنهم ليرجون أن تكون هذه الأرض .

ودار الحديث حول الأنبياء والدين ، وأرهف معد أذنه يصغى إلى ما يقصه أحبار اليهود عن أجداده إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وإلى النبى الذى سيبعثه الله من ذرية إسماعيل فى آخر الزمان ليعيد ملة إبراهيم ناصعة كما كانت ، وما دار بخلد معد أن ذلك الذى بشر به الرسل والأنبياء سيكون من صلبه .

ومكثت القافلة فى تيماء ما شاء الله لها أن تمكث ، ثم شدت الرحال إلى ثمود ، ومعد يسمع بأذنيه ويرى ببصره وبصيرته ، ويهفو فؤاده إلى بيت الله الذى أقام قواعده أبواه إبراهيم وإسماعيل .

ودخلت القافلة مدائن صالح عاصمة الثموديين ، وراح معد يمشى فى الأسواق يرقب الناس فى غدوهم ورواحهم ، فى تجارتهم وفى عبادتهم ،

فرآهم إذا كالوا الناس أو وزنوهم يخسرون ، وإذا دخلوا المعبد خروا ساجدين لمناف .

وكان مناف على صورة رجل لا لحية له ، ينحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعى ، وعلى صدره طيات ردائه ، ينعطف طرف طيلسانه من كتفه اليسرى ليتصل بكتفه اليمنى ويعقد بها ، يزين جبينه قلادة علقت بها الهدايا ، وقدمت له النذور ونحرت تحت قدميه الذبائح .

وعجب سعد على الرغم من حداثة سنه من تناقض القوم فى ثمود ، يطففون الكيل والميزان ويقدمون القرابين إلى آلهتهم ! ومد بصره وأصاخ سمعه فلم ير ما كان يرجو أن يراه ، ولم يخترق بصره حجب الغيب ، ولم يسمع ما كان يهفو إلى أن يشنف أذنيه به ، فقد قام صالح فى ثمود من مئات السنين يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، وسرى صوته فى هذه الأرجاء يقول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود» .

راح سعد يفكر فى الغابرين ويقلب وجهه فى ملكوت السموات والأرض ، فإذا الحقيقة الأزلية تستولى عليه ، إن كل شىء هالك إلا وجه ربه

الكريم وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . كان ابن عدنان سيد قومه ، فزادته السياحة فى الأرض زهدا على زهد .

ثم غادرت القافلة جنات ثمود وعيونها وخلفت وراءها قوما ينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، وانسابت فى البيداء وسرت فى الكون العـريض كالنسيم . كان كل شيء يسجد فى محراب الله ويسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان معد يتساوق مع ما حوله ويتعاطف مع الوجود ، بينما ختم الله على قلوب الذين معه وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

وعلى مدى البصر لاحت أشجار النخيل كأنها المنائر فى بحور الرمال ، فصاح صائح :

ـــ خيبر !

وأغذت القافلة السير لتحط رحالها بأرباض يثرب ، وقبيـل غـروب الشمس كان بنو إسماعيل يصغون إلى أحاديث بنى إسرائيل الذين فروا من اضطهاد بختنصر : كانوا يتحدثون عن النبى الذى سيهاجر إلى أرض ذات نخل ليبلغ رسالات ربه للعالمين ، وكانوا يرجون أن تكون مهاجره خيبر .

ولم يطل مقام القافلة فى خيبر فقد كان الرجال فى شوق إلى يثرب . إلى أرض اللذة ، فهبوا يتأهبون للرحلة المثيرة ، وسرعان ما انطلقت القافلة وأخذ الرجال يسبقون الواقع بأخيلتهم الداعرة وقلوبهم التى تخفق بالشهوة . ومدوا أبصارهم إلى الأفق البعيد فى لهفة وإذا بصائح يصيح فى نشوة :

ـــ الرايات الحمر !.. الرايات الحمر !..

وراح الرجال يحثون رواحلهم على الجد فى السير وأطلقوا لها أعنتها، وتدفقت الدماء حارة فى شرايينهم ، فقد لاحت لأعين خيالهم خيام البغايا تخفق فوقها الرايات الحمر قبل أن تلوح لأعينهم منازل إطفاء الرغبة الجامحة المتأججة فى جوانحهم .

كانت يثرب قبلة طلاب اللذة ، يفدون إليها من كل فج عميق من بلاد العرب يعبون كئوس الخمر ويغرقون هموم الحياة فى الخيام التى رفعت فوقها الرايات الحمر ، معلنة دون حياء عن بيع المتعة لمن الثمن . وهرع رجال القافلة يتضاحكون ويتصايحون ويستبقون إلى النسوة اللائى فتحن لهم أذرعهن ، وقد توجت شفاههن بسمات إغراء ولمع فى أعينهن بريق نداءات خضعت إليها أفئدة الرجال التى تهفو إلى الجنس الآخر . ووقف سعد يتلفت فى ذهول وإنكار ، ثم لوى شفته امتعاضا وسار مبتعدا مخلفا خيام البغايا وراء ظهره ، وراح يقلب وجهه فى الكون فيستشعر لذة روحية عارمة دائمة لا تنطفئ ، يزيدها رقة حنينه للاندماج فى الروح الخالد الذى يخفق فى جنبات الوجود ، وينسكب نوره من فوق السموات لينير قلوب المؤمنين . نور على نور .

وبلغ صومعة لأحبار بنى إسرائيل ، فدنا منها فى شوق وألقى سمعه إلى الحديث الدائر بين الشيوخ ، كانوا يتحدثون عن ذلك الذى كتب عليه أن يهاجر إلى قرية ذات نخل لعلها تكون هذه الأرض أرض يثرب .

وجلس سعد بعيدا يرهف سمعه فأحس نشوة تملأ جوانحه ، فحديث الدين والأنبياء يستهويه ويملأ فؤاده بالفرح وإن كان لم يتجاوز الحلم ، كانت روح إبراهيم من آتاه الله رشده من قبل أن يبعثه تسرى فيه ، وقد ورث عن أبيه إسماعيل صبره وصدق وعده وإيمانه العميق ، وجعل يصغى وهو فى مجلسه وسحره عذب الحديث حتى كاد ينسى نفسه وكل ما حوله .

واستأنفت القافلة رحلتها فاتخذت طريق الشاطئ ، وجاء الليل وجثمت الظلمات على الكون وإذا بالبحر يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، فأمتلأت نفس سعد خشية من جلال الله ، وإذا بكل جارحة من جوارحه تسبح بحمد ربه العظيم .

وتعاقب الليل والنهار وسعد ينظر ويتلفت ويفكر فى خلق السموات

والأرض ويغذى روحه برحيق الرحمة التى وسعت كل شىء ، بينما كان الرجال لا هم لهم إلا تلبية شهوات البطون والجوارح .

وأشرفت القافلة على وادى مكة فأحس الرجال راحة إذ انتهت الرحلة ، وخفق قلب معد خفقانا شديدا واضطرب جسده حتى إنه ضغط على يد أخيه عك فى انفعال ، فروحه تهفو إلى أول بيت وضع للناس . وأرهفت منه الحواس فكان حفيف النسيم فى أذنيه تسبيحات ، وخفيق أجنحة الطير صلاة ، والجبال التى تحيط بالوادى المقدس تترنم بمجد الله ، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون .

وهبط الرجال ليطوفوا بالبيت الحرام ، وسار معد كالمسحور كل خلجة من خلجات نفسه تخفق بذكر الله ، فى نفسه ورقة وفى عينيه دموع وفى قلبه إيمان عميق . كان فتى غضا ولكن لو وزن إيمانه لرجح إيمان كل الطائفين بالبيت والعاكفين والركع السجود .

وأتم طوافه ثم صلى فى مقام إبراهيم كما يصلى بنو إسماعيل الذين لم يشركوا بالله ولم يعرفوا بعد عبادة الأوثان . ولما أتم صلاته وقف أمام حجر إسماعيل خاشعا يحس فى أعماقه أنه أمام هاجر جدة الإسماعيليين وأمام إسماعيل أبى العرب من كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

٢

تقابل بختنصر وعدنان فى حصوراء ، ودار القتال بين البابليين والعرب الشماليين دون أن يظفر فريق بفريق ، وطالت المناوشات وإطلاق السهام من الخنادق التى حفرها كل من الجيشين ؛ ثم رأى كل من القائدين أن يفوز من الغنيمة بالإياب فعاد بختنصر إلى بابل وقفل عدنان راجعا إلى قومه ، وقد وقاهم معرة انتصار بختنصر عليهم وحملهم أسرى كما حمل بنى إسرائيل واليهود وساقهم أمامه زمرا سوق الإبل والأنعام .

أحفق الصدام ووضعت الحرب أوزارها دون أن تحقق أهدافها الحربية ، ولكنها زودت النبط بحوافز استجاب لها عرب الشمال إذ فجرت طاقات الإبداع فى شتى ميادين النشاط ، فراح الفنانون العرب ينحتون من الجبال بيوتا ومعابد ، ويصنعون لآلهتهم وشيوخهم ومشاهير رجالهم تماثيل فنية من البرنز ، وراح قادة الجيوش يعيدون تنظيم وحداتهم ، ونشط التجار فراحوا يغدون ويروحون بين الممالك والبلدان ليعرضوا ما فاتهم من رمى شغلوا فيه بالحرب مع ملك بابل الحديدة الذى طمع فى أن يبسط سلطانه عليهم كما بسطه على كل من حوله .

صد العرب الشماليون جيوش بختنصر ولكن إشعاعات الثقافة البابلية تغلغلت فى أحشاء مملكة النبط ، فإذا بحركة بعث جديد تحقق فى جنبات البتراء ، وإذا بتيار الحضارة البابلية يصب فى رقعة الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر وخليج العقبة وميناء أيلة (إيلات) ، وانتقلت الثقافة البابلية فى ركاب القوافل كما انتقلت من قبل الثقافتان المصرية والسورية ، وآلهة الفراعنة

والعموريين والآشوريين .

وراح عدنان يفكر في ولديه معد وعك اللذين بعث بهما ليكونا في رحاب بيت الله بين أهليهما من بني إسماعيل حيث الأمن والاستقرار ، وفي ذلك الوقت كانت قافلة معد تنحدر إلى أرض تهامة على ساحل البحر الأحمر ، فقد كان بنو إسماعيل ينتشرون بها ، وكان سراتهم يصيفون بالطائف ويمضون الشتاء بمكة في كنف بيت الله .

ونزل معد وعك تهامة على الرحب والسعة وقد اكتست الأرض بحلة سندسية وتدلت عناقيد العنب من عروشها وحفق الكون بالجمال ، إلا أن نفس معد أغلقت عينيها عن الحسن وزخرف الأرض وزينتها ، فقد كانت تهوى إلى جمال آخر يبهر الروح ويملأ الوجدان بالجلال ، جمال يحس روعته كلما صفت نفسه واتصلت بينها وبين ذات الذوات الأسباب .

إنه يهفو إلى بيت الله ولا يطيق البعد عنه ، فثار الشوق تبرحه ولهفة النفس تخفق في جنباته تود لو تحلق به إلى هناك . كان في تهامة بجسمه بينا روحه تطوف بالحرم في كل آن ، فقام وشد الرحال إلى مهوى الفؤاد ليعيش في ظل البيت . تنتشي روحه بعبيره وتضيء جوانحه بنوره .

كانت لغة معد رقيقة أرق من لغة المكيين ، فقد استلهمت رقة المروج الخضراء وموسيقى خرير المياه في الانهار وزفيف النسيم وحفيف الشجر ، وكانت فصيحة أفصح من لغتهم ، زادها غنى اتصال أهلها ببابل وآشور والآراميين والعيبقيين والمصريين ، فراح المكيون يصغون إليه منشرحين ويأخذون عنه فرحين بما آتاهم من جزالة في اللفظ ورقة في التعبير .

وجلس معدٌّ عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، حيث يكتب الكتاب وتبرم العقود ، وأخذ يعلم الصبية الكتابة بحروف وأشكال مستمدة من الخط النبطي ، ليتم حلقة القلم العربي الذي وضعت هاجر بذرته عند بئر

رمزم أيام أحذت على عاتقها مهمة تعليم ابنها الحبيب إسماعيل بالقلم ما لم يعلم .

كانت هاجر تكتب بحروف هيروغليفية ولا غرو فقد تعلمت الكتابة على أيدى كهنة منف . وتعلم إسماعيل منها أن يكتب الجمل موصولة ، فلما وجد ابنه قيدار صعوبة ذلك على النشء الجديد راح يفرق بين الألفاظ وييسر الكتابة . وخرج بنو إسماعيل من مكة وانتشروا فى سيناء وعلى حدود سورية وفى أعالى الحجاز وبلاد ما بين النهرين ، ولما كانوا يعيشون على التجارة فقد اهتموا بالكتابة لتدوين العقود وتوثيق المواثيق .

ووضع بنو إسماعيل فى سيناء الأبجدية السينية وقد تألفت من اثنين وعشرين حرفا ، ومنها أخذ العبريون أبجديتهم وبها تأثر الخط الكنعانى ، فكانت الأبجدية السينية أمّ أبجديات المنطقة التى حولها .

وتعلم معد فى أرض النبط أبجد هوز وكان العبريون قد أخذوها عنهم من قبل ، فلما عاد إلى مكة أخذ فى تعليم الناس ما تعلم ليتم الله لبنى إسماعيل فضلهم على الخط العربى والخط العبرى وعلى أقلام الكنعانيين ، بل وعلى كل الأقلام التى اتصلت بالنبط بسبب .

بدأ القلم العربى العربى عند بئر زمزم ، أيام كانت هاجر تعلم ابنها إسماعيل القراءة والكتابة ، ثم ترعرع فى ظل الكعبة ، ثم خرج يطوف بالشرق الأوسط ليتهذب قبل أن يعود مرة أخرى ليتفيأ ظلال البيت المحرم ويزدهر ليصبح لسانا عربيا مبينا .

وأقام معد إلى جوار الكعبة إن غابت عن عينيه فهى فى قلبه ، وإن طاف بها رقت نفسه وتعلق بها فؤاده وأحس رحابة فى صدره تتسع للكون كله ، فهو يذوب فى روح الوجود وتفنى ذاته فى ذات الذوات وكأنه استحال إلى كوكب درى يصب فيه فيض النور الإلٰهى .

كان يمضى سحابة يومه فى حرم الله وفى حرمته ، حبس له نفسه وصبر على لأواء مكة وشدتها ابتغاء وجهه ، وكان يقوم الليل إلا قليلا يسبح الله رب العالمين .

وسار أخوه عك وبعض أهله إلى اليمن ، ودارت الأيام ومرت السنون وتزوج عك فى الأشعريين فأقام فيهم فصارت الدار واللغة واحدة ، وتزوج معد فى الجرهميين كما تزوج بنو إسماعيل فيهم من قبله ، تزوج ابنة جرشم بن جلهمة الجرهمى فولدت له نزار بن معد .

وراح معد ينقى دين إبراهيم من الشوائب التى علقت به ، ولم تكن أصنام النبط وأوثان قيدار وتماثيل الثموديين والبابليين والآراميين والمصريين قد وردت بعد إلى الكعبة ، فكان من اليسير أن يعيد المكيين بالموعظة الحسنة إلى ملة أبيهم إبراهيم .

وفى مواسم الحج كان يخرج على رأس الحجيج ، تهز كيانه نداءات التلبية المنبعثة من قلوب عامرة باليقين :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وراح الحجاج يهرولون بين الصفا والمروة كما هرولت هاجر بينهما وهى تبحث عن الماء لابنها إسماعيل ، وراحوا يرجمون إبليس فى المواضع التى رجمه إبراهيم الخليل وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهاجر القانتة لله رب العالمين ، ويزورون جبل ثبير حيث فدى الله جد العرب بذبح عظيم .

ونجح معد فى أن يعيد إلى مكة جلالها وأن يجدد دعوة إبراهيم ، وأن يقول لأبنائه كما كان يقول خليل الرحمن لبنيه : يا بنى ، إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

وراح معد يفقه ابنه نزار فى الدين ويعده لولاية البيت ، وإنه لشرف عظيم

أن تعود ولاية البيت إلى ذرية عدنان وإنه لشرف يتطاول إليه شرف الدنيا وسؤدد الملك والسلطان .

وصل معد فى تقشفه يحيا حياة خشنة لا يقدر عليها إلا النساك ، وهجر الدنيا وزينتها وأسلم وجهه لله رب العالمين . كان يرتجف خشية أن يخزيه ربه يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وجاء النبأ إلى معد أن عدنان مات فأحس حزنا ثقيلا يجثم على صدره ، كان يحب أباه حبا جما ولكنه كان عميق الإيمان ، إن كل نفس ذائقة الموت وأنه ليجتهد فى عبادته اجتهادا ليتقى ما بعد ذلك الفراق من عذاب أليم ، فلم يجزع للنبأ ولم يستول عليه اليأس بل راح يدعو الله أن يغفر لأبيه .

وتجهز معد للسفر ولكنه لم يفكر فى أن يلحق بأهله فى الشمال ، فهو قد خرج من البتراء عاصمة النبط فرارا من بختنصر وجنوده وأقام بفناء بيت الله المحرم تعلق فؤاده بالبيت العتيق ولم يعد يصبر على البعد عنه ، إنه خارج إلى اليمن ليعود بأخيه عك وأهل بيته إلى تهامة ، ليعيش العدنانيون فى كنف الله ورعايته .

وانطلقت قافلة معد إلى الجنوب ، إلى العرب الذين هاجروا فى سالف الزمان إلى الرافدين ، من جاء من نسلهم جده إبراهيم وشب وترعرع فى أور الكلدانيين قبل أن يأمره الله بالهجرة إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

ومرت ليالى وأيام والقافلة تسرى فى ملك الله ومعد يقلب وجهه فى الجبال منها جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، وراح يرصد نجوم السماء ويمد بصره إلى الشمس والقمر والصحراء فتمتلئ نفسه خشية ويشرق قلبه بالنور ، إن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء .

وخرج معد ساجدا لله على قتب بعيره وراح يسبحه ليلا طويلا ، ولما أشرقت الشمس بنور ربها كانت القافلة تسير في سهول اليمن وقد لاحت مدنها على سفوح الجبال كالعقاب في الحوراء .

ودخلت القافلة مدينة مأرب وراح معد ينظر . إنها مدينة حصينة شيدت جدرانها من الحجر وقامت الدور على أعمدة محكمة وزينت الحوائط بنقوش وتهاويل وقامت التماثيل في كل مكان .

وفي الميدان الفسيح وعلى قمة مرتفعة من الأرض قام المعبد وانتشرت حوله العطايا المقدسات . وكان المعبد أشبه بمعابد بابل ولا غرو فقد أقام المهاجرون اليمنيون في بابل معابد على نسق معابدهم وسموها على المرتفعات وزادوها علوا بالأبراج المقدسة ، فإن آلهتهم تعيش في عينين .

كان القمر رب الأرباب والشمس زوجه وأم الآلهة وعشتر الابن ثالث الثالوث المقدس . ولولا أن رفع حمورابي مردوخ ، كوكب المشترى إلى مرتبة رب الأرباب في بابل لظل القمر كما كان دائما في فترات عبادة الكواكب والأجرام السماوية في كل أرض العرب هو الرب الأعلى .

رأى معد تماثيل الآلهة في شمال جزيرة العرب أيام صباه ، رأى اللات والعزى ومونن وذا الشرى وشيع القوم وعشرات الآلهة الأخرى ، وإنه ليراها الآن في أرض الجنوب بعد أن طال على الناس العهد ونسوا ما دعاهم إليه إسماعيل فانقصت نفسه ، إلا أنه حمد الله أن ظل البيت خالصا لوجهه وأن أهل مكة لم يشركوا به أحدا ولم يسجدوا لصنم من الأصنام .

وغام وجهه أسى لما تذكر أن بنى إسماعيل كانوا أول من غير دين الله ، وأنهم أشركوا بربهم وجعلوا له بنات واتخذوا لآلهتهم بيوتا في البتراء وفي دومة الجندل وفي تيماء وفي سيناء وفي كل مكان نزلوا فيه بعيدا عن مكة .

وحمل معد أخاه عك وزوجه وأهل بيته وعاد بهم إلى تهامة ، فزحف نزار ابن معد وقضاعة بن معد وقنص بن معد لاستقبال أبيهم والذين معه ، واستقر أبناء عدنان إلى جوار البيت المحرم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

٣

انطلق الميديون نحو الجنوب من بلادهم بخارى وسمرقند وتوغلوا في الأرض حتى وصلوا إلى فارس ، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والحجارة الكريمة في الجبال ، فاستقروا بها لتكون وطنا جديدا لهم .

كان الميديون قوما أشداء بسطاء ، فأخذوا يفلحون الأرض المبسطة وسفوح الجبال العالية المغطاة بالثلوج ، فكانت الثلوج تذوب في الصيف فتنحدر المياه إلى الوديان بالخصب والخير .

وعند ملتقى الطرق الكثيرة الواقعة في واد يسحر الألباب بحسنه ، أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى وزينها بقصر ملكي رائع جميل كان يقضي فيه بين الناس بالعدل ، فأحبه شعبه وتعلقت قلوبهم به .

وحرك السلطان غرور الملك فانتفخت أوداجه وترفع عن مخالطة شعبه ، وطغى وبغى وتجبر وأصدر أوامره بألا يسمح لإنسان بالمثول بين يديه ، وعلى من يشاء أن يعرض عليه أمرا أن يتصل برسله ليرفعوا إلى جلالته ما يريدون . وكان يعد من سوء الأدب أن يضحك إنسان في حضرته ، وكان يبغي من ذلك أن يوهم الذين لا يرون ذاته الملكية أنه من طبيعة أرق من طبيعتهم .

وشبت الحروب بين الميديين والآشوريين، واستطاع سياحار أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . ولما تم له ذلك ولدت في نفسه آمال عريضة راحت تغريه بأن يتوغل في آسية الغربية ليخضع البلاد لسلطان الميديين .

ووصلت جيوش الميديين إلى أبواب سرديس فخرج أهلها لقتال الغزاة ، ودارت رحى الحرب وحمى وطيسها وإذا بالظلام يسود الميدان فى رائعة النهار فقد كسفت الشمس و لم تعد ترسل ضياءها .

وارتاع القائدان وحسبا أن ذلك تدبير من السماء وأن الآلهة ستصب عليهما جام غضبها وتسومهما العذاب ، فمشت بينهما سفارات تبغى الصلح قبل أن يحل بهما غضب السماء .

وأبرمت معاهدة الصلح بأن شرب كل منهما جرعة من دماء غريمه ، وقفل الجيشان راجعين إلى بلادهما ، ولكن الثروة راحت تتدفق إلى الميديين فى سرعة عجيبة فلم يحسنوا استغلالها . أصبحت الطبقات العليا أسيرة الحياة المترفة فلبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة وغالى النساء فى الزينة ، بل زينت الخيل بالذهب .

وراح الرجال الذين كانوا بالأمس القريب خشنين تحملهم عربات بدائية ذات دواليب خشنة غليظة قطعت من سوق الأشجار ، يرفلون فى أفخر الثياب ويركبون عربات فارهة عظيمة الكلفة يتنقلون بها من وليمة إلى وليمة

واعتلى عرش الميديين استياجس ، وبعد أن كان أسلافه يفخرون بعدالتهم ورعاية شعبهم وبذل كل جهد لرفاهيته ، جاء الملك الجديد بالظلم والقهر والعسف والاستبداد .

وفى ذلك الوقت كان قورش الشاب النابه حاكم ولاية أنشان الفارسية التابعة للميديين يحكم بين الناس بالعدل ويتألف قلوب شعبه ، وقد زاد فى محبة القوم له أنه كان وسيما بهى الطلعة ، حتى إن الفرس اتخذوه نموذجا لجمال الجسم حتى آخر أيام فنهم القديم .

كان استياجس يرتدى الثياب المزركشة ويتمايل فى مشيته تمايل الغوانى ، وكان قورش رجلا ذا خلق قويم آماله أروع من جمال جسمه وسريرته أنقى

من بهاء طلعته .

وفى ذات يوم غضب استياجس على هرباجس ، وكان واليا من ولاته ، فدعاه إلى وليمة فى قصره . وما كاد يستقر فى مكانه حتى قدم إليه أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه وقال له :

— كل .

فراح هرباجس يتلفت بعيون رائعة والحزن يهصر قلبه ، فرن صوت الملك فى أذنيه قاسيا موحشا كأنه صراخ الفناء :

— كل .

فمد هرباجس يده إلى أشلاء ابنه وتناول منها وهو يقول :

— إن كل ما تفعله يا مولاى يبهج قلبى .

وخرج هرباجس من القصر وصدره يختنق بالكراهية والمقت لذلك الطاغية الذى قد قلبه من الصخر ، وأطرق يفكر فى الانتقام فوجد أن قورش حاكم أنشان الشاب شق عصا الطاعة على الطاغية الخبث فى فارس ، فطار إليه ليعينه على خلع استياجس أبغض أهل الأرض إلى قلبه .

والتقى جيش الميديين بجيش فارس ، وما هى إلا وقعة واحدة حتى أصبحت فارس سيدة ميديا بعد أن كانت ميديا سيدة فارس .

وابتهج الميديون بانتصار قورش على طاغيتهم الذى سامهم سوء العذاب وإن فقدوا استقلالهم . ومنذئذ بدأ نجم فارس يبزغ وراحت الأقدار تهيئ لها الظروف لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

وراح قورش يمد بصره إلى ما وراء حدود فارس ، إلى بابل وأرض العرب من بنى إسماعيل وسورية ومصر ، فرأى أن تحقيق مثل هذه الأحلام الكبار يحتاج إلى نفحة روحية تسرى فى صدور أهل فارس تدفعهم إلى القتال مستبسلين فى سبيل المبدأ الذى يعتنقونه ، وسرعان ما جاءت هذه النفحة من

دين كريم .

كان الرعاة فى ذلك الوقت يرعون فى إيران ويرتدون ثيابا بالية ويسيرون خلف الغنم حفاة الأقدام تعرف فى وجوههم قسوة الحياة فالأرض لا تجود بالخيرات . وكان شاب فى العشرين من عمره يرعى الغنم بعيدا عن رفاقه يمد عينيه إلى السماء ويقلب وجهه فى الآفاق فيرى آيات بينات ؛ الليل يولج فى النهار والشمس تولد فى الظلام وتسرى فى الكون روح فيحقق كل ما فيه ومن فيه بالحياة ، إن لهذا الوجود ربا وإن كل ما فى السماء وما فى الأرض يسبح لإلٰه .

كان زرادشت هو ذلك الشاب ، وكان يطيل التأمل والتفكير فيخيل إليه أنه يسمع نبضات قلب الكون ، ويستشعر رعشة فى الفضاء فى ذلك الوجود ليستشف أسراره ويعرف الحق ويصل إلى الحقيقة فيتساوق مع العالم الذى يعيش فيه .

وفتح قلبه بصيرته ، وشحذ روحه فأرهفت وشفت وسمت وحلقت وصارت أهلا لتلقى فيض النور المنبعث من نور السماوات والأرض ، ولكنه كان يحس أنه سجين الجسد ، أسير الثرى الذى يمشى فوقه ، مشدود بعواطفه إلى أهله الذين يعبدون أسلافهم ويعبدون مثيرا إلٰه الشمس وأنيتا إلٰهة الخصب . والأرض ، وهوما النور المقدس الذى مات ثم بعث حيا ووهب الجنس البشرى دمه شرابا ليسبغ عليه نعمة الوجود ، فوطن العزم على أن يهجر وطنه وأن يسرى فى الكون كالنسيم إلى أن يفضى إليه رب الناس بسره العظيم .

وهام على وجهه يسير على قدميه التماسا للحقيقة فى الشمس والقمر .. فى الليل والنهار .. فى السحر والشفق .. فى الأرض الجرداء والجبال الشم والسهول الخضر التى أخذت زخرفها وازينت .. فى الطير والشجر .. فى

الأودية والفلوات .. فى الأنهار والقنوات .. فى النمل الذى يدب على الأرض دبيبا .. وفى الدود الذى يجد رزقه فى الحجر .. فى نفسه المتعطشة إلى كشف النقاب عن حقيقة الوجود .

ومرت عشر سنوات وزرادشت يجوب الآفاق متفتح النفس والروح وقد اعتزل الناس ، طعامه الحب وثمار الأرض ، ولكن روحه كانت تتغذى بأفخر غذاء .. كانت تمتص رحيق الحقيقة فتتألق بالنور .

وعرق فى صمت طويل لا تمس أذنيه أصوات الناس ولكن الوجود كله كان يناجيه ، فبدت الحقيقة أمام بصيرته ناصعة وفاض فؤاده بإيمان عميق . إن لهذا الكون إلٰها حكيما . إنه النور والسماء «أهورا مزدا» هو الأول أبو الجميع وجد قبل الوجود ، منه فاض كل شىء فهو روح الكون . إنه الإلٰه العظيم المدبر الحكيم .

ووصل زرادشت إلى مقاطعة أذربيجان فلمع نهر ديتى مع الفجر . وكان السكون مسيطرا على المكان وقد عبق الجو بعبير أطيب من المسك ، وسرت أصوات عذبة كأنها تسبيحات ملائكية حرها الوجود كله ساجدا يغمره فرح فياض . وسطعت أنوار لطيفة كأنها تنبعث من كوكب درى تبدد ضمات القلق من النفوس وتشيع الدعة والاطمئنان ، وبدا أن الأرض تتلقى وحى السماء .

وأحس زرادشت بنشوة روحية تحقق بين جنبيه ، وأنوارا تضىء وجدانه وخشوعا يسيطر على جوارحه وسموا يلفه ، حتى إنه استشعر كأنما تحرر من سجن الجسد وصار روحا هائما فى الوجود كله .

وراح يناجى ربه :

— هذا ما أسألك عنه فأصدقنى الخبر يا أهورا مزدا :

من ذا الذى رسم الشموس والنجوم ؟

ومن ذا الذى يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟
ومن ذا الذى بسط الأرض ورفع السماء وأمسك بها أن تقع ؟
ومن ذا الذى حفظ المياه والنباتات ؟
ومن ذا الذى سخر للرياح والسحب سرعتها ؟
ومن ذا الذى أخرج الحكمة يا أهورا مزدا ؟

ورأى كائنا نورانيا يدنو منه كأنه عمود من نور ، وسمعه يقول له :

— أنا فاهو-مانا (كبير الملائكة) .

واضطرب زرادشت وتملكه خوف عظيم ، ولكن سرعان ما ذهب عنه الروع وراح فاهو مانا يوحى إليه وحى السماء ويأمره أن ينذر قومه ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واختفى كبير الملائكة بعدما وعى زرادشت ما ألقى فى صدره . وراح يدعو الناس إلى عبادة إله النور « أهورا مزدا » الإله الحكيم . خالق كل شيء بيده الخير إنه على كل شيء قدير .

وأعرض عنه الناس ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، إن تدعهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون . واستمر عشر سنوات يدعو الناس إلى الدين الجديد دون أن يؤمن برسالته أحد من العالمين .

ونام ذات ليلة تحت شجرة فرأى فى منامه ابن عمه ميتيوما يقود جيشا من المؤمنين يحارب فى سبيل إعلاء كلمة الله أهورا مزدا إله النور ، الإله الحكيم ثم ظهر جيش ابن عمه على أعدائه وجاء نصر الله والفتح المبين .

وهب من رقاده يتهلل بالفرح ويتفصد بالسرور ، وانطلق إلى ابن عمه وهو مستبشر برؤياه التى كانت واضحة كفلق الصبح ، فقد أطلعه ربه على ما ينتظره فى غده ، إن نصر الله قريب .

وهرع إلى ابن عمه يدعوه إلى عبادة « أهورا مزدا » وهو على ثقة من أن ابن عمه سيؤمن به وبدينه الذى جاء به ، ولكن ابن عمه استقبله فى بشر كما اعتاد أن يفعل كلما جاء لهدايته، ولم يغلظ له فى القول ولم يوله دبره، ولكنه لم يسارع إلى الاستجابة إلى ما يدعوه إليه من خير عميم .

وقام زرادشت يناجى ربه ويبثه همه ، فقال فى انفعال :

— أهورا !. أين المفر ؟. وإلى أين أذهب ؟

ربى ! أعرض عنى النبلاء والعظماء .

ولم يلق إلىّ سمعه أحد من الناس .

حتى هؤلاء الأفاكون حكام البلاد الدجالون وضعوا أصابعهم فى آذانهم .

مزدا ! أيها الحكيم اهدنى الصراط حتى ترضى . إلٰهى كيف أهتدى بهداك ؟

عرفت يا إلٰهى السر فى خيبة رجائى وسبب إخفاقى فى دعواى .

إنى فقير فلم يعرنى سمعهم إلا المستضعفون .

إياك أدعو يا إلٰه الخير .

وإياك أستعين يا مبعث النور .

فامنحنى يا إلٰهى العون والتوفيق .

وأعنى كما يعين الصديق الصديق .

واهدنى الصراط المستقيم .

ربى ! أما آن أن ينبثق فجر الهداية والفداء ؟

وأن ينتشر دينك ليجلو هذا العالم من الشرور ؟

أين يا رب هؤلاء الذين ستفيض عليهم السعادة بفضل تعاليمك ؟

أهورا ! أنت عونى وإنى أضع فيك كل ثقتى ، فأعنى يا إلٰهى على أن أبلغ رسالتك وأن أنفذ ما به أمرتنى .

وانقضت سنة وزرادشت يقول للناس كما اعتاد أن يقول :

— اجعلوا العدو صديقا .. اجعلوا الخبيث طيبا .. اجعلوا الجاهل عالما . عليكم بالتقوى .. وتحلوا بالشرف والأمانة وأدوا الديون إلى أصحابها .. يمحق الله الربا . الكفر رأس الخطايا .. اعبدوا الله وتطهروا وأقيموا الصلاة . إن للمتقين جنات وحور العين وللكافرين نار الجحيم .

ولم يستجب لدعوته أحد ، وبينا هو فى حزنه إذ دخل عليه ابن عمه ميتيوما يعلمه بأنه آمن بأهورا مزدا والدين الجديد ، فهب زرادشت فرحا ، فقد وقع أخيرا ما رآه فى منامه وجاء النصر وتحقق وعد الله ، وعما قليل ينطلق ابن عمه بجيش المؤمنين لتكون الكلمة العليا لله وحده .

وبلغ زرادشت الثانية والأربعين وأوحى أهورا مزدا إليه أن اذهب إلى ملك إيران وادعه للدخول فى الدين الجديد ، فراح يقطع السهول والفيافى ويتسلق الجبال ويطوى الوديان ، وطال عليه السفر وسالت الدماء من قدميه ونال منه التعب ، ولكن النور الذى أضاء فى قلبه ازداد إشراقا .

وبلغ بلخ عاصمة الملك ودخل القصر ، وسار ليمثل بين يدى الملك ثابت الجنان تعلوه مهابة ووقار ، حتى بلغ قاعة العرش فإذا قورش وأعوانه يتشاورون فى أمور الملك ، فاشترك زرادشت معهم فى الحديث ، وسرعان ما استولى على ألبابهم فقد كان محدثا لبقا قوى الحجة راجح العقل سديد الرأى مؤيدا من الإله الحكيم .

وأقبل قورش على زرادشت لا يبرم أمرا قبل أن يسأله الرأى ولا يقطع برأى قبل أن يرجع إليه ، فأكلت الغيرة أفئدة رجال القصر فراحوا يكيدون له كيدا ويوغرون صدر الملك على الرجل الذى كاد يصطفيه لنفسه .

ووسوسوا للملك وهمسوا فى أذنه قائلوا : لئن وثقت فيه لتكونن من الخاسرين . وعجوا فى وشايتهم فأمر الملك بأن يلقى فى غياهب السجن إلى

حين .

وراح زرادشت يرتل بصوته الأخاذ آيات من الأبستاق ، كتابه المقدس ، فكاد السجن يفيض بنور يملأ قلبه سلاما وأمنا ، وكان يستشعر وهو فى محبسة حرية تفوق تلك الحرية التى يتمتع بها نزلاء القصور والدور .

ومرض أخو الملك ووزيره وأخفق الأطباء والسحرة والمجمون فى إبلاله من مرضه ، فمشى الخوف إلى قلب الملك واستبد به القلق ، وجاء إليه أحد رجال القصر يسعى وقال له : -

— لماذا لا تدع يا مولاى ذلك الذى يزعم أن الوحى يأتيه من السماء ليعالجه ؟

— وإن أخفق؟

— تستحل دمه لأنه كذاب .

وجيء بزرادشت من سجنه وقال له الملك :

— أتستطيع أن تبرئ أخى ؟

— بإذن الله .

— إذن تفعل ..

— على شرط .

— وما هو ؟

— أن تؤمن بالله الحكيم أهورا مزدا وأنه لا إله غيره .

— إن أصبح أخى بارئا أشهد أن لا إله إلا هو .

وراح زرادشت يصلى لله ويبتهل فى حرارة ويدعوه أن يبرئ المريض ليؤيد دينه بتلك قوى عادل قادر على أن ينشره فى الآفاق ، واستمر زرادشت فى صلاة ودعاء وابتهال حتى أحس أن ربه قد استجاب له .

وأصبح المريض بارئا بإذن الله فامتلأ قلب قورش سرورا وخر ساجدا لله

القادر الحكيم ، وآمن لزرادشت وشهد أن لا إله إلا أهورا مزدا الخالق العظيم .

وآمن رجال القصر والنبلاء وعامة الشعب ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكان الله قد فرض على المؤمنين خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فلما حان وقت الصلاة تطهر القوم ووقف زرادشت يؤم الملك والمؤمنين ويتلو :

— أيها الرب الخالق القادر !

اغفر لى ما ارتكبت من سيئات

وما وسوست به نفسى من شرور ،

وما نطق به لسانى من قول خبيث

وما ارتكبت من موبقات

أيها الرب الخالق القادر !

باعد بينى وبين كل محرم

حتى أحشر يوم الدين مع الأبرار والصديقين .

وعرف الملك أن الدين أقوى من الدولة فأمر كتابه أن يكتبوا الأبستاق الكتاب المقدس ، فكتبوه فى جلد اثنى عشر ألف معزى ، بأن حفروه فى الجلود ونقشوه بالذهب .

وراح زرادشت يأمرهم أن يتمسكوا بالدين الذى جاءهم به إلى أن يبعث النبى العربى ، وكان يقول لهم فيما يقول :

— استمسكوا بما جئتكم به حتى يجيئكم صاحب الجمل الأحمر .

وسرت فى الفلاحين نفحة روحية ملأت جوانحهم قوة جعلتهم يتطلعون إلى نشر دين الله ، فانضموا إلى جيش قورش ليقاتلوا فى سبيل الدين الجديد طلبا لإحدى الحسنيين : النصر أو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير .

وذاع فى بابل أن دينا جديدا ظهر فى فارس يدعو إلى الله وحده « أنا الرب وليس آخر لا إله غيرى » . ووصل ذلك الخبر إلى أشعيا الثانى نبى اليهود الذين يقاسون ذل الأسر فى بابل ، فتهلل بالفرح ورأى الفرج فى النهضة الدينية الجديدة ، فراح ينادى بين اليهود فى أرض السبى بأن قورش رجل قوى لا يقهر ، وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر فيعودون إلى أورشليم ويشيدون هيكلا جديدا ومدينة جديدة تكون جنة بحق ، الذئب والحمل يرعيان معا ، والأسد يأكل التبن كالبقرة ، أما الحية فالتراب طعامها .

وسار قورش إلى بابل والتقى جيش فارس بجيش الكلدانيين ، وراح المؤمنون يرمون السهام لتستقر فى الصدور والقلوب . وسرعان ما دب التخاذل فى نفوس الكلدانيين فانقض عليهم الفرسان من الجانبين وهم يهتفون لأهورا مزدا فى أصوات كالرعد تنخلع لها قلوب الأعداء .

ودارت الدائرة على أهل بابل وقضى على مملكة بابل الجديدة ، بابل التى كانت تخر ساجدة لمردوخ وسين وشمش وعشتار والآلهة الأخرى ، لتزدهر إمبراطورية فارس بفضل تعاليم زرادشت التى ثبتت فى النفوس إيمانا عميقا ، وبعثت فى الكيان نفحة روحية سرت فى قلوب المؤمنين فملأتها عزة وكرامة .

وانتظر اليهود ما يحيق بأعدائهم من عذاب مهين ، ولكن قورش كان مؤمنا صادقا فكان أكثر رقة وأكثر حضارة من الآشوريين ، بل من اليهود أنفسهم ، فلم يأمر بسلخ الأسرى وهم أحياء بل عاملهم بالتى هى أحسن ، ولم يأمر بتخريب بابل ولا بتقويض معاقلها ولا بإضرام النار فى دورها .

وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم ، وأعاد لهم ما كان باقيا فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما بختنصر من الهيكل . وأمر الجماعات التى كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجون

إليه فى أثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم .

ولم يتحمس شباب اليهود لهذا التحرير فقد تأقلم كثير منهم فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى قفارهم الخربة فى الأرض المقدسة .

وتطلع قورش إلى أن يمد سلطانه حتى وادى النيل ، ولكنه راح يفكر طويلا ، فسيطأ بخيله ورجله شعب قيدار وشعب النبط وقبائل بنى إسماعيل الأخرى ، إن وصية زرادشت لا تزال ترن فى أذنيه : « استمسكوا بما جئتكم به حتى يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » ، وإن صاحب الجمل الأحمر من هؤلاء ، وهو يكره أن يسفك دماء قوم سيبعث فيهم ذلك النبى المنتظر ، فرأى أن يبعث إليهم ليكون بينه وبينهم عهد وصداقة ومودة .

ورأى أن يشرك معه فى حكمه ابنه قمبيز فنادى به ملكا على بابل ، ثم سار ليخضع سورية والأراضى التى تفصل بينه وبين مصر بعد أن تحالف مع ملوك الإسماعيليين وزعماء قبائلهم .

وأخضع قورش سكان آسيا لسلطان فارس ، وتحالف مع العرب الذين أبوا أن يخضعوا كالرقيق للحكام الذين تعاقبوا على المنطقة تعاقب الليل والنهار منذ خرجوا من البيت المحرم ابتغاء التفسح فى الأرض ، ثم راح يعد العدة لغزو مصر .

وأحس فرعون مصر أحمس الثانى (أماريس) الخطر الذى يتهدده ، فعمد إلى التحالف مع بعض اليونانيين ليقفوا فى وجه الزحف الذى يحمل لواء دين جديد .

وشبت ثورة صغيرة فى شمال فارس ، فلم يبعث قورش من يخمدها من قواده بل ذهب بنفسه على رأس جيشه لإخمادها ، وفى أثناء القتال أصابه سهم قاتل ، فسقط قورش المؤمن من أيد زرادشت فى دعوته وعمل على نشر دينه ليلفظ أنفاسه ، وليتولى ابنه قمبيز إمبراطورية فارس من بعده .

٤

أشعلت دعوة زرادشت نار الحماسة فى صدور الفارسيين ، وبدلت النفحة الروحية فلاحى الأمس البسطاء فأصبحوا مقاتلين صناديد يجودون بأرواحهم عن طيب خاطر فى سبيل الله ، وتمكين سلطان أهورا مزدا فى الأرض .

مات قورش مؤسس أعظم إمبراطورية فى التاريخ القديم فلم يدب اليأس فى قلوب أهل فارس ، فإن كان قورش قد مات فأهورا مزدا حىّ لا يموت .

وقام قمبيز فى بابل فجمع جيوش المؤمنين وخرج لفتح مصر وتحقيق حلم أبيه . ورث قمبيز عن قورش عرشه وقوته ولكنه لم يرث شيئا من كرمه ولا من تسامحه ، كان يرى القانون مظهرا لإرادة أهورا مزدا ، وكان يرى فى آلهة الأقوام الآخرين شركاء لإلٰهه الفرد من صيغ من الوحدانية جوهره ، فعزم على تحطيم أصنام الآلهة جميعا ليخلو وجه الأرض لإلٰهه خالق الناس ملك الناس إلٰه النور .

وانطلق قمبيز بجيشه إلى أرض العرب ، إلى الأرض التى أوصى زرادشت أتباعه أن يكرموا أهلها لفضل صاحب الجمل الأحمر الذى سيبعث فيهم ، فقوبل بالترحيب ودخل أرض النبط دخول الظافرين ، وخف لاستقباله والترحيب به ملك النبط وأنزله بقصره التى نحت فى الجبل وأشرف على البتراء العاصمة التى تدفقت إليها قوافل التجارة من أقطار الأرض فى مشارقها ومغاربها ، وازدهرت فيها فنون البابليين والسوريين والمصريين .

كانت البتراء حصينة تستعصى على عقاب الجو ، وكان أهلها يحتون من

الجبال بيوتا آمين ، وقد انتشرت المعابد الفخمة على قمم الجبال : معبد اللات ومعبد العزى ومعبد منوتن ومعبد ذى الشرى ، وكانت القرابين تحرق فتتصاعد أدخنتها مع البخور تعلن للآلهة أن عبادها قد أحرقوا خطاياهم .

ودار الحديث بين قمبيز وبين ملك النبط حول الله وجوهره ، ولما كان بنو إسماعيل يعرفون الله ، وبقيت لهم بقية من دين إبراهيم ، فقد كان من اليسير أن يفهم ملك النبط فلسفة قمبيز وإن كان بنو إسماعيل أشركوا بالله وجعلوا اللات زوجه وأم الآلهة ، والعزى ومنوتن والإلـٰهات الأخريات بناته وقالوا إن شفاعتهن ترتجى .

كان العرب قبل أن يدخلوا فى دين إبراهيم يعبدون الكواكب ، وكانت الشمس عندهم زوجة الإلـٰه القمر ، والنجوم بنيه وبناته ، وقد وقر فى أذهانهم منذ أن بعث إبراهيم أن الله هو رب الكون وخالق كل شىء ، ولما طال عليهم العهد وقست قلوبهم وأشركوا بالله ، فقد جعلوا اللات زوجه وصارت رمزا للشمس ، وجعلوا العزى ابنته وصارت رمزا لكوكب الصباح ، ومنوتن ابنته الأخرى ووكلوا إليها الحظ والمنايا .

خرج قمبيز من وادى موسى واسباب وجيشه فى أمان ، ولا غرو فقد كانت الأرض بين بيت المقدس وخان يونس فى قبضة حلفائه من بنى إسماعيل ، تحميها جيوش عربية قوية ذات بأس شديد .

أثرى النبط من التجارة فوجدوا أن لا مفر من تكوين جيش قوى يحمى طرق القوافل والتجارة التى تغدو وتروح بين اليمن ومكة ويثرب وبصرى وبابل ودمشق ودلتا النيل . وقد اشتد ساعدهم فراحوا يحلمون بأن يمدوا سلطانهم إلى كل هذه الأقاليم ويتهزون فرصة ضعف الملوك والأباطرة ليثبوا وثبتهم كاوثب الهكسوس من قبل ، ويضعوا أيديهم على الممالك ما بين وادى الرافدين ووادى النيل .

سار قمبيز ومن معه من اليهود فى أرض حلفائه من بنى إسماعيل آمنين ، وقد خرج اليهود مع جيوش الفرس لا اعترافا بفضل قورش عليهم إذ خلصهم من ذل أسر البابليين ، بل ليتركوا جاليات منهم على طرق القوافل لتصبح شرايين التجارة فى خدمة بنى إسرائيل ، فقد كان حلمهم مذ وضعوا أقدامهم فى أرض فلسطين أن يتحكموا فى التجارة وأن يسيطروا بأموالهم على العالمين .

مات أحمس الثانى قبل أن يشن قمبيز وحلفاؤه من بنى إسماعيل الحرب على مصر ، وقام بسامتيك الثالث يتأهب لخوض المعارك دفاعا عن الوطن المقدس وعن شرف آمون إله الفراعين . وهربا من عار الدنيا والآخرة لو أذله أهورا مزدا .

واستعان بسامتيك بجنود مرتزقة من اليونانيين ، وأسند قيادة الجيش إلى قائد يونانى ، وخرج الجيش من منف وكان مزيجا من المصريين واليونانيين لقتال من جاءوا للاستيلاء على مصر وإخماد أنفاس آمون وكهنة آمون .

وبلغ جيش مصر رفح وإذا بقمبيز وجنوده قد نزلوا بأرباضها ، فراح الجيشان يتأهبان للقتال ووطن المصريون العزم على أن يردوا الفرس على أعقابهم مجللين بعار الهزيمة ، وأن يقفوا سدا فى وجه قمبيز الطامع فى أن يبسط سلطانه على منف محزن علال الآلهة والعرش العظيم .

وفى جنح الظلام تسلل قائد جيش مصر اليونانى إلى معسكر قمبيز وأفشى له جميع أسرار الدفاع عن البلاد ، ولم تكن هذه هى الخيانة الوحيدة التى ارتكبها اليونانيون بل إن ملكهم بوليقراط ملك جزيرة ساموس لما رأى الجيش الفارسى وصل إلى غزة ، نقض التحالف الذى أبرم بينه وبين أحمس الثانى ، والذى تعهد فيه أن يهب لنجدة حليفه إذا داهمته جيوش فارس .

وراح جيش مصر يحارب الخيانة وجيوش فارس وبنى إسماعيل دون جدوى ، فسرعان ما تصدعت الصفوف بعد أن خر فيها سوس الجنود

المرتزقة الذين تقاعسوا عن القتال وفتحوا الثغرات ليتدفق منها فرسان فارس والعرب ، وما لبث أن حاقت الهزيمة بجيش مصر فارتد الفاروق إلى منف مولين الأدبار ، وقمبيز وجنوده فى أثرهم يهللون لأهورا مزدا الذى صدق وعده ومكنهم من الفراعين .

ولم تصمد منف للحصار وسقطت غنيمة باردة فى أيدى قمبيز ، سقطت محرن علال الآلهة والعرش العظيم ، مدينة أزريس ومدينة هاجر أم هؤلاء العرب الذين تهللوا بالفرح لما وقع بسامتيك فرعون مصر أسيرا فى أيدى الفرس .

وانطلقت جيوش فارس إلى طيبة ، وتخلفت حفنة من اليهود لتكون حلقة فى سلسلة النفوذ الاقتصادى التى بدأت تمتد من سوسا عاصمة فارس إلى منف قلب وادى النيل .

ودخل قمبيز طيبة دخول الفاتحين ، ولم يعكر صفوه إلا نبوءات كهنة آمون فى سيوة التى كانت تنتشر بين المصريين انتشار الريح . ومن القصر الفرعونى فى طيبة قرر أن يبعث ثلاث حملات حربية ، واحدة للاستيلاء على قرطاجنة ، والثانية للاستيلاء على واحة سيوة مقر وحى الإله آمون ، والثالثة للاستيلاء على كوش .

كان قمبيز ينفس على القرطاجيين سيادتهم فى البحر ومناوأتهم لسلطان فارس ، وكان يتميز غيظا من وقاحة كهنة آمون فى سيوة فقد كانوا يوسعون الأرض إذاعة بأنه سيبوء بالإخفاق ، وكان يزيد فى حنقه عليهم أن الإغريق كانوا يؤمنون بوحى آمون إيمانا عميقا ويصدقون كل ما يتنبأ به الكهنة من سوء مصيره وإخفاق فتوحاته ، وكان يريد أن يستولى على كوش ليأمن ثورات الجنوب ويخضع وادى النيل كله لسلطانه .

وخرجت الحملات الثلاث وخرج قمبيز على رأس الجيش المنحدر إلى

كوش ، وكان اليهود فى ركابه لا ليشدوا أزر الجيش الفارسى بل ليمدوا السلسلة اليهودية البشرية التى بدأت من فارس ليسروا فى شرايين التجارة مسرى الدم ، ولتكون فى أيديهم مفاتيح خزائن الأرض ومصائر الشعوب .

وانسحب الكوشيون نحو الجنوب وتركوا قمبيز وجنوده يواجهون الطبيعة القاسية ، وراح يقتفى أثرهم وهو يرجو أن يصل إلى مروى عاصمة ملكهم ليستريح بها كما استراح فى طيبة ، إلا أن أنفاسه وأنفاس جنوده تقطعت فى منتصف الطريق ، وصادفتهم أهوال ونقصت المؤن وحلق فوقهم شبح الفناء ، فوجد قمبيز أن خير ما يفعله أن يعود إلى طيبة يستمع إلى أنباء انتصارات جيوشه الخارجية لتأديب القرطاجيين وكهنة آمون .

وفى القصر الفرعونى فى طيبة سمع ما أطار لبه ، علم أن الحملة الأولى أخفقت . فقد أبى العرب الفينيقيون أن يحملوا الفرس فى البحر على أساطيلهم ليضعوا أغلال الرق فى رقاب أهلهم العرب القرطاجيين . وجاءته أنباء الحملة الثانية تلك التى انطلقت إلى واحة سيوة بضجيج عرباتها وخفيق راياتها لتقويض معبد آمون وسلخ جنود كهنته لتعلق على الملأ كذب نبوءة آمون وأن قمبيز هو النجم الصاعد وملك الملوك — وكانت أنباء تطيش لها العقول . فقد غاب الجيش كله فى جوف المجهول بعد أن بلغ الواحات الخارجة وأخذ منها المؤن والأدلاء ثم انساب فى الصحراء .

أطبق على الجيش الصمت الرهيب ، ودفن سره معه ، فما وصل إلى سيوة منزل وحى آمون جندى فارسى ، ولم يعد جندى واحد إلى طيبة ليقص على ملك الملوك ما لاقاه جيشه فى الطريق .

وتهلل كهنة آمون بالفرح وقالوا :

— انتقم آمون من أعدائه ، أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية دفنتهم جميعا فى الرمال .

وذبحت الذبائح وقربت القرابين وتجاوبت فى جنبات سيوة الأناشيد تمجيداً لآمون العظيم، ودخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس وخر ساجداً تمثال آمون ، وقامت الاحتفالات فى المعبد حتى إن الابتهالات بلغت الجوزاء وارتفع البخور فى السماء كالسحاب .

وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون .

وسرى فى طيبة همس ينبض بالفرح ، لقد انتقم آمون من قمبيز ، وقرع ذلك الهمس أذنى ملك الملوك فاستشاط قمبيز غضباً وراح يسخر من دين المصريين ، وبدأت الثورة تتحرك فى مصر فقد رفع من روح الشعب ما أذاعه كهنة آمون من أن إلـٰههم القدير قد قضى وحده على جيش الفرس الذى جرؤ على رفع أسلحته فى وجه جلالته .

ووجد قمبيز أن التسامح لم يعد يجدى ، فهيبة فارس وهيبة أهورا مزدا وهيبة إمبراطورها أصبحت جميعاً فى الميزان . فراح يصب جام غضبه على المصريين . بقتل العصاة وهدم المعابد ، وفى احتفال دينى كبير فى منف طعن بخنجره العجل أبيس .

وأخرج الجثث المحنطة من مدافنها ونبش قبور الملوك ، وخرب الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من أصنام وهو يسبح بحمد أهورا مزدا إلـٰهه العظيم .

وانتابته نوبة صرع فاعتقد المصريون أن ما حل به إن هو إلا عقاب من آلهتهم وأنه آية من آيات آمون الذى اتخذه قمبيز هزواً ، وارتفع آمون فى أعين المصريين والإغريق وعلا علواً كبيراً .

وفى نوبة من نوبات صرعه أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه بركسبيس بسهم من قوسه ، ودفن اثنى عشر من الفرس أحياء .

وجاءت الأنباء من فارس قاسية تزيد فى قسوتها عن الضربات التى وجهها

إليه القدر فى وادى النيل ، فقد جاءه نذير السوء يقول : إن ثورة عارمة قامت فى فارس تبغى القضاء عليه وعلى سلطانه .

وعاد قمبيز مسرعا يريد الوصول إلى بلاده ليحمد أنفاس الثورة المندلعة فى فارس ، وخلف وراءه اليهود فى الفنتين (جزيرة أسوان) وفى طيبة وفى منف وفى كل مدن التجارة بأرض الفراعين وأرض السوريين يمتصوا دماء الشعوب .

وانتابته نوبة الصرع فى أرض حلفائه من بنى إسماعيل وكان يحقد على نفسه لأنه أهان إلٰهه أهورا مزدا إلٰه النور فما استطاع أن يبسط سلطانه على العالمين ، بل إن آمون إلٰه المصريين تحداه ودفن جيشه فى الصحراء ولطخ جبينه بالعار .

تقوض الحلم الجميل . حلم إخضاع العالم لإلٰه النور وحده لا شريك له ، إنه هو الذى أساء إلى إلٰهه وإلى بلاده ، إنه هو قمبيز ، قمبيز الفظ غليظ القلب من قتل أخته وحبيبته وزوجته ركسانا ، وسدد إلى فلذة كبده سهمه فأرداه .

وصرخ قمبيز صرخة هائلة دوت فى أرجاء المكان بآلام نفسه ، ثم راح يطعن قلبه بخنجره ليسكت الصيحات المنبعثة من أغواره تتهمه بأنه عار على بلاده ، وعار على إلٰهه الحكيم إلٰه النور .

ومات قمبيز وهو هائم على وجهه فى أرض حلفائه من بنى إسماعيل ، ولم يحزن عليه حلفاء الأمس من اليهود فقد كانوا ينظرون إلى المعارك الطاحنة الدائرة بين فارس وآشور وبابل وعيلام ودمشق ومصر نظرة رضا ، بل كانوا يباركونها ويؤججون نارها ليدب الوهن فى تلك الممالك ، وتحين فرصتهم التى يرقبونها بصبر نافذ ليثبوا على ملك هذه الشعوب ، لتكون لهم اليد العليا من بابل إلى دلتا النيل .

٥

سجى نزار بن معد فى فراشه وجلست عند رأسه زوجتاه سودة بنت عك والحدلة بنت وعلان بن جوشن بن جلهمة بن جرهم . ورأت الزوجتان أن قد حضرت نزارا الوفاة ، فبعثت سودة تطلب ولديها مضر وأياد ، وأرسلت الجدلة إلى ولديها ربيعة وأنمار أن أقبلا فأبوكما يجود بأنفاسه .

وجاء مضر وربيعة وأياد وأنمار والتفوا بأبيهم حفيد عدنان ، وألقوا إليه السمع فقال نزار فى صوت خافت :

ــ ولاية الكعبة لأياد .. أخرجوا جرهم من البيت فقد كثرت مظالمهم .

وصمت ليلتقط أنفاسه ، ثم قال فى جهد وهو يقلب وجهه فى بنيه :

ــ أى بنى ، هذه القبة الحمراء وهى من أدم وما أشبهها من المال فلمضر ، وهذه البدرة والمجلس فلأنمار ، وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود وما أشبهها من مال فلربيعة .

والتفت إلى خادم شمطاء كانت ترقبه فى حزن وقال :

ــ وهذه الخادم وما أشبهها من مالى فلأياد . وإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى الجرهمى ومنزله بنجران ، وإن أمتم رضيتم .

وخفت صوته وانبهرت أنفاسه ، ثم سكنت حركته إلى الأبد ، فقاموا من عنده وجوههم باسرة يتلفتون فى حيرة ، فقد مات نزار من ملأ مكة تقى وعدلا قبل أن يتم وصيته .

واختلف بنو نزار وتشاجروا فى ميراثه ولم يهتدوا إلى القسم ، فتوجهوا إلى

الأفعى يريدونه فى نجران ، وفيما هم فى الطريق إذ رأى مضر أثر بعير كان يرعى فقال :

ـــ إن الذى رعى هذا الموضع لبعير أعور .

فقال ربيعة :

ـــ إنه لأزور .

فقال أياد :

ـــ إنه لأبتر .

فقال أنمار :

ـــ إنه لشرود .

فساروا قليلا فإذا برجل يسألهم :

ـــ ألم تروا بعيرا لى قد ضل ؟

فقال مضر :

ـــ أهو أعور ؟

ـــ نعم .

وقال ربيعة :

ـــ أهو أزور ؟

ـــ نعم .

وقال أياد :

ـــ أهو أبتر ؟

ـــ نعم .

وقال أنمار :

ـــ أهو شرود ؟

فتهلل الرجل بالفرح وقال :

— نعم هذه صفة بعيرى . أين هو ؟

فقالوا جميعا :

— إنا لم نره .

ونظر إليهم الرجل فى ريبة وقال :

— كيف لم تروه ، وقد وصفتم لى صفته ؟

— قلنا لم نره.

وانطلقوا إلى الأفعى الجرهمى والرجل فى أثرهم يطلب بعيره ، حتى إذا دخلوا نجران وبلغوا الأفعى ، وكان حكم العرب وقاضيهم ، هرع إليه الرجل يشكو إليه هؤلاء الرجال الذين وصفوا له بعيره ثم ينكرون أن أعينهم وقعت عليه ، قال صاحب البعير :

— هؤلاء أصابوا بعيرى ، وصفوا لى صفته وقالوا لم نره .

وحلف مضر أنهم لم يروه ، فنظر الأفعى فى عينى مضر وقال .

— وكيف عرفت أنه أعور ؟

— إنه رعى جانبا وترك جانبا فعرفت أنه أعور .

والتفت الأفعى إلى ربيعة وقال :

— وكيف عرفت أنه أزور ؟

— رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فعرفت أنه أفسدها بشدة وطئه .

وقال لأياد :

— كيف عرفت أنه أبتر ؟

— باجتماع بعره ، ولو كان ذيالا لمصع به.

فقال لأنمار :

— وكيف عرفت أنه شرود ؟

— إنه رعى فى المكان المكلىء ولم يجره إلى مكان أعزر منه نبتا .

فالتفت الأفعى إلى صاحب البعير وقال له :

— ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه .

وخرج الرجل وهو فى حيرة من هؤلاء الرجال الذين وصفوا له بعيره دون أن يروه !

والتفت الأفعى الجرهمى إلى الرجال وقال :

— من أنتم ؟

— نحن أبناء نزار بن معد بن عدنان .

فقال الكاهن فى ترحيب :

— أهلا بكم ومرحبا . وما جاء بكم إلى ؟

— قال لنا أبونا وهو يموت : إن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى الجرهمى ، وقد اختصمنا فى الميراث فأتيناك لتحكم بيننا .

فأطرق الأفعى وهو يقول فى إنكار :

— تحتاجون إلى وأنتم كما قد أرى ؟

وقام الأفعى يذبح لهم ويستحث خازنا له الطعام ، ثم وضع الطعام وأكلوا وشربوا ، وتنحى عنهم الأفعى حيث لا يرى وهو يسمع كلامهم ، فقال ربيعة :

— لم أر كاليوم لحما أطيب منه ؛ لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة

فقال مضر :

— لم أر كاليوم خمرا ، لولا أن حُبلته نبتت على قبر .

فهمس الأفعى :

— ما هؤلاء إلا شياطين !

وذهب إلى القهرمانة وقال :

— خبريني خبر هذه الكرمة.

— إن حُبلته غرستها على قبر أبيك .

وانطلق إلى الراعي وسأله عن العناق الذى ذبحه وقدمه طعاما لبنى نزار بن معد ، فقال الراعي :

— هي عناق أرضعتها بلبن كلبة ، ولم يكن ولد في الغنم غيرها وماتت أمها.

ورجع الأفعى إليهم ثم التفت إلى ربيعة وقال :

— من أين علمت اللحم ؟

— لأن لحم الكلب يعلو شحمه ، بخلاف لحم الشاة فإن شحمها يعلو لحمها.

وقال لمضر :

— من أين عرفت الخمر ؟

— الكرم إذا نبتت على قبر يكون انفعال خمرها أقل انفعالا .

واعتدل الأفعى الجرهمي ثم قال :

— قصوا عليّ قصتكم

فقصوا عليه ما قال نزار قبل أن يلفظ النفس الأخير ، فقال الأفعى :

— ما أشبه القبة الحمراء من مال فلمضر ، وأما صاحب الخباء الأسود فله كل أسود ، وأما الدراهم والأرض فلأنمار .

وقفل بنو نزار بن معد راجعين إلى مكة ، وذهب مضر بالدنانير والإبل فسميت قبيلة مضر « مضر الحمراء » ، وأخذ ربيعة الفرس وما أشبه فسميت « ربيعة الفرس » ، وأخذ أنمار الغنم فسميت « أنمار الشاة » ، وأخذ إياد النعم البرقاء والخيول البلق ، فسميت « إياد البرقاء » .

٦

ولد معد بن عدنان فى أرض النبط ، ولكن الله لم يشأ أن يعبد معد أصنام النبط ولا أوثان قيدار ، فلما قام بختنصر وعزم على أن يطأ أرض العرب بخيله ورجله ألقى الله فى قلب عدنان أن يبعث ولديه معد وعك إلى أهلهما بالحجاز ليكونا فى مأمن بجوار بيتِ الله .

كان البيت معظما وزواره مكرمين ، ولا غرو فهم ضيف الله . وكان اللائذ به فى أمن وسلام ، وكان الحجاج يغدون ويروحون مطمئنين لا يخشون خيانة ولا غدرا ، قلوبهم مؤمنة ونفوسهم راضية تنعم بالفيض الإلٰهى ، بذلك النور الذى يبدد ظلمات الجوانح والصدور .

جلبت التجارة إلى مكة الذهب والفضة فأراد الجراهمة أن يهدوا رب البيت هدية تتفق مع ما أصبحوا فيه من غنى ، فوضعوا غزالتين من الذهب فى جوف الكعبة .

وسرى إيمان معد بن عدنان بالله الواحد القهار فى ضميره سريان الدم فى شرايينه ، فإن كان قد تزوج فى جرهم فقد ضاق بولاية جرهم للبيت ، فقد بقيت فيهم أكثر من سبعمائة سنة ، وقد أشاح الحارث بن مضاض بن عمرو ابن الحرث الجرهمى بوجهه عن البيت يغدو ويروح بين الحجون والصفا ، والتف به أصحاب السوء فراح يقضى لياليه فى سمر ومجون بعد أن كان ولاة البيت يذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار .

كان معد على دين آبائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان أبعد من جاء من نسل

نابت فإن كان أبناء نابت وقيدار أول من غير دين الأباء ، فقد كان معد أكثر أبناء نابت بن إسماعيل غيرة على دين الله . وقد حلف فى مكة برارا التقى ليعيد بنى إسماعيل إلى سنن الآباء .

ومات معد وأصبح نزار شيخ العدنانيين ، وعلفت عين الحارث عن بيت الله وعن ضيف الله ، وفشت المظالم ووقعت على من دخل مكة من غير أهلها ، واضطرب ميزان العدل وفشا الغش فى الأسواق ، وضاق نزار بن معد بذلك البغى فأوصى بنيه وهو يجود بأنفاسه :

— أخرجوا جرهم من البيت وليتول ولاية البيت أياد .

واجتمع أياد ومضر وربيعة وأنمار يتشاورون فى وصية أبيهم ، لقد أوصاهم بإخراج جرهم الذين بغوا فى البيت فحق قتالهم ، فإن كان الجرهميون كثيرين فما أكثر بنى إسماعيل وما أعزهم .

وقبل أن يمتشق أياد ومضر وربيعة وأنمار سيوفهم ، وقبل أن ينادوا فى أهليهم حى على القتال ، اكفهرت السماء وبرق البرق ورعد الرعد ثم انهمرت الأمطار على جبال مكة فجرت سيولا إلى الوادى تجرف الدور وتقتلع الخيام وتنزل الهلع فى قلوب القوم الذين استحلوا حرمة البيت المحرم ، فحل بهم غضب الله .

ودخل السيل البيت فانهدم ، فكادت قلوب الناس تنخلع من صدورهم ، غضب الله عليهم كما غضب على قوم نوح ، إلا أن الأرض بلعت ماءها وأقلعت السماء وغاض الماء وقضى الأمر وقيل بعدا للقوم الظالمين .

ومشى أياد ومضر وربيعة وأنمار وأشراف بنى إسماعيل إلى جرهم وحدثوهم عن بغيهم فى الحرم ، فأظهروا التوبة وأعادوا بناء البيت على بناء إبراهيم الخليل ، وقام خطيب جرهم يحذر قومه مغبة الفسق فى الأرض

الطاهرة ويحذرهم أن يعودوا ويستخفوا بأمر البيت الحرام ، فقال :

— يا قوم احذروا البغى فإنه لا بقاء لأهله ، قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم فلم يعظموه وتنازعوا بينهم واختلفوا ، فسلطكم الله عليهم فأخرجتموهم فتفرقوا فى البلاد ، فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة البيت بيت الله ، ولا تظلموا من دخله أو جاء معظما لحرمته ، أو جاء بائعا لسلعته ومرتغبا فى جواركم ، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منه خروج ذل وصغار ، حتى لا يقدر منكم أحد أن يصل إلى الحرم ، ولا على زيارة البيت الذى هو لكم حرم وأمن ، والطير تأمن فيه .

وقام رجل منهم وقال :

— من الذى يخرجنا منه ؟ ألسنا أعز العرب وأكثرهم رجالا وأموالا وسلاحا !

فقال مضر :

— إن جاء الأمر بطل ما تقولون .

ومرت الأيام ونسى الجرهميون نذير السماء ، فعادوا إلى بغيهم فاستحلوا بحق الحرم وظلموا من دخله أو جاءه معظما لحرمته ، وصفقوا فى الموازين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، وأفزعوا من جاءوا ملتمسين الأمن فى جوار بيت الله .

ورأى أشرار جرهم الناس وهم يلقون الحلى والمتاع فى خزانة الحرم ، فلعبت الأهواء بأفئدتهم وزين الشيطان لهم سرقة مال الله ، ذلك المال الذى كان للفقراء والمساكين ولسقاية زوار بيت الله ووفادتهم

وسرقوا أموال الحرم استخفافا بالله وبيته ، ونسوا أن الله قادر على أن يذيقهم العذاب الأليم ، وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك

بظلام للعبيد .

واجتمع البعاة يتسامرون عند البيت ، فلم يعد البيت أكثر من ناد يجتمعون فيه بعد أن نزع من قلوبهم توقيره وتعظيمه وبينما هم سمار يتضاحكون يأتون فى ناديهم المنكر إذا بجحافل النمل تنحدر من سفوح الجبال إلى الوادى المقدس ، فبدا كأن الأرض غطيت بغلالة سوداء أخذت تنداح حتى حجبت أديم مكة .

وأتى النمل على الأخضر واليابس ، وراح يكسو الإبل والأنعام يملأ أعينها وخياشيمها وكل أجوف فيها لا يغادرها إلا عظاما ، ثم يستمر كأنما يعرف غايته .

وأحيط الحرم بأم النمل بعد أن محقت كل ما اعترض طريقها ، وصارت مكة عروشها خاوية كأن لم تغن بالأمس ، وحانت التفاتة من أحد السمار فارتسم الهلع فى وجهه وندت من بين شفتيه صيحة مرعوبة كأنما شهد الموت :

ـــ النمل ! النمل !

وتجاوبت صيحات الهلع فى جنبات الوادى ، وبلغت القلوب الحناجر وتقطعت الأنفاس من الرعب ، وماج الناس بعضهم فى بعض يتدافعون بالمناكب قد ذهل كل بنفسه عمن حوله ، يجرى هنا وهناك لا يقوم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ينعق بما لا يسمع ، ولكن أين المفر ؟ والنمل يزحف من كل جانب ليطبق على من استخفوا بحرمة الله .

وحاول الناس فى يأس أن يشقوا طريقهم بين جيوش النمل التى غطت كل ما تقع عليه العين . فمشى النمل على نعالهم وراح يزحف على سيقانهم وإن هى إلا لحظات حتى غطى أجسامهم واتخذ طريقه إلى أنوفهم وآذانهم ، فسقطوا

يتخبطون يسبحون فى بحار النمل وقد ذاقوا مس العذاب الأليم .

وانطلق صراخ الفزع من الحناجر ، وتجاوبت جنبات مكة بالعويل واشتد النحيب ، وفح الناس فحيح الأفاعى وهم يتلوون كأنما قد ألقوا فى الجحيم ، ونشبت معارك يائسة بين المتشبثين بالحياة وذلك النمل الذى كان يتوافد توافد الموج يهاجم فريسته فى عناد وإصرار .

وشلت الأيدى وخرست الألسن وهمدت الأجسام فقد زهقت الأرواح ، وساد الحرم سكون الرموس بعد أن بطش الله البطشة الكبرى ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

وتقضت أيام رهيبة على من استحموا بحرمة بيت الله ، ذاقوا العذاب ألوانا قبل أن صاروا كأمس الدابر ، ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما .

وانقشع النمل عن الوادى بعد أن تجرع غصص الموت كثير من جرهم وجلا عنها بعضهم يجرجرون أذيال الذنوب ، ومشى أياد ومضر وأنمار وربيعة بعضهم إلى بعض يتلاومون ، فأبوهم نزار بن معد أوصاهم بأن يخرجوا جرهم من البيت بعد أن فجروا فيه ، ولكنهم تقاعسوا عن تنفيذ وصية أبيهم فبعث الله جنوده لينتقم من الظالمين .

كاد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لأنهم سكتوا عن الفاسقين ، وقد أرسل الله جيوش النمل نذيرا لهم ليخرجوا من بقى من جرهم من الحرم ومن حواره ، ذلك بأنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام إنهم قوم فاسقون .

وحمل أياد ومضر وربيعة وأنمار وكل من كان من بنى إسماعيل فى مكة السلاح ابتغاء إجلاء من لم يعظموا حرمات الله ، وإن كانوا أخوالهم وإن تزوجوا فيهم .

ودارت الحرب بين الحق والباطل ، بين جنود الله وحزب الشيطان ، وراح الرجال يمشون إلى الرجال يلعبون بالسيوف ويسددون السهام ، وكانت قلوب العدنانيين عامرة بالإيمان بينا كانت قلوب جرهم هواء .

وسالت الدماء ، وحمى وطيس القتال على سفوح الجبال وفى الوادى المقدس وحول الكعبة ، وانكسرت جرهم فراحوا يتأهبون ليولوا الأدبار ، وأحس الحارث شيخ جرهم وملكهم أن الدائرة ستدور على قومه فانطلق إلى جوف الكعبة وأخرج الغزالين وكانا من الذهب ، وانتزع حجر الركن وقد عزم على أن يفر بما حمل .

والتفت الحارث حوله فرأى العدنانيين ظهروا على قومه ، فإن انطلق بالغزالين وحجر الركن فما أسرع أن يلحقوا به ويستولوا على ما معه ، ووقعت عيناه على بئر زمزم وفى مثل لمح البصر قفزت إلى رأسه فكرة فخف لتنفيذها .

راح يدفن الغزالين وحجر الركن فى البئر وأهال عليها التراب ، ثم امتطى راحلته وأرخى لها العنان ، وأحس الرجال فرار قائدهم فولوا الأدبار وفروا مخلفين وراءهم مكة .

وانحدر الحارث ومن بقى معه من فلول جرهم إلى اليمن ، وما غاب البيت عن عينيه حتى هاجه الشوق فراح ينشد فى صوت أقرب للنحيب :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا
صروف الليالى والجدود العواثر

وكنا ولاة البيت من بعد نابت
نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا
فليس لحى غيرنا ثم فاخر
وكنا لإسماعيل صهرا وجيرة
فأبناؤه منا ونحن الأصاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة
كذلك بالناس تجرى المقادر
أقول إذا نام الخلى ولم أنم
إذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وصرنا أحاديث وكنا بغبطة
كذلك عضتنا السنون الغوابر
فسحت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرم أمن وفيها المشاعر
بواد أنيس ليس يؤذى حمامه
ولا منفر فيها وفيها العصافر
وفيها وحوش لا ترام أنيسة
إذا أخرجت منها فما ان تغادر

٧

طوى الزمن أيام قورش وقمبيز ودارا ، وامتدت الإمبراطورية الفارسية بفضل النفحة الروحية التى نفحها زرادشت فى روح الشعب الفارسى من فارس إلى بلاد كوش جنوبى مصر ، وراح الفرس يحلمون بتحطيم منافسيهم الإغريق والاستيلاء على عاصمة ملكهم أثينا .

كان زرادشت قد أشعل نارا لتذكر المؤمنين بأهورا مزدا الإله الحكيم رب العالمين ، فطال على الناس الأمد وقست قلوبهم ونسوا أصل الدين القيم وحسبوا أن النار تعبد لذاتها ، فبنوا بيوت النيران وخروا لها ساجدين ، وذهب دين زرادشت فيما ذهب وجاء على أنقاضه دين المجوس .

كان أحشويرش واليا على بابل أثناء حكم أبيه دارا ، وقد استمرت هذه الولاية اثنى عشر عاما ، فلما هلك دارا تولى أحشويرش ملك فارس وصار ملك الملوك « شاهنشاه » .

وكان أول عمل قام به هو إخماد الثورة التى اندلعت فى مصر . وقد عذب وقتل وهدم المعابد وصب جام غضبه على الكهنة وقضت سيوفه على الحيوانات المقدسة .

وقامت ثورة أخرى فى بابل فدق حصون المدينة وهدم معابدها ونهب كل ما فيها من تماثيل ذهبية لمردوخ ونابا وعشتار ، ولم يتركها إلا خرائب تجرى الجرذان فى أكوامها وتنعق البوم على آثارها .

وتغلغل نفوذ اليهود فى دواوين كسرى ورأوا أنه كلما اتسعت رقعة فارس

امتدت سلسلة سلطانهم وازدهرت تجارتهم ووقعت دول وممالك فى قبضتهم الاقتصادية ، فراحوا يزينون لأحشويرش غزو بلاد اليونان للقضاء على منافسة الإغريق ، وأغروه أن يسير فى البر لا فى البحر ليتمكنوا من ترك حلقات اليهود فى مدن القوافل التجارية ، فما كان البحر يصلح لتحقيق مأربهم .

وسار أحشويرش على رأس جيشه واليهود معه يبثون جماعات منهم فى بقاع الأرض ليتحقق لهم حلم السيطرة العالمية على تجارة الدنيا وسياستها بأيد ترتدى قفازات حريرية .

وفى سبعة أيام أقام الفينيقيون جسرا على البسفور عبره أحشويرش وجنوده ، وانطلقوا يصيخون أسماعهم لأهازيج النصر حتى وطئوا بأقدامهم أرض أثينا قلب إمبراطورية الإغريق النابض ، وقبل أن يتمكن أحشويرش من أن يطعن الإغريق الطعنة القاتلة جاءت الأنباء أن الأسطول اليونانى حطم الأسطول الفارسى فى معركة سلاميس البحرية .

وعرف قلب أحشويرش الخوف واستولت عليه فكرة أنه إن لم ينسحب بجنوده سريعا فسيلتف حوله اليونانيون ويقضون عليه وعلى من معه من خيرة جنود فارس ، وقد يكون فى ذلك ضياع الإمبراطورية .

وانسحب الشاهنشاه إلى أرض فارس وراح يفكر فى أمره ، إن سلطانه يمتد إلى شعوب لم يمتد إليها سلطان ملك قبله ، فولاية الهند تدفع إلى خزائنه ما يقرب من خمسة آلاف وزنة من الفضة كل سنة ، وتدفع بابل وآشور ألف وزنة ، أما مصر فقد كانت تدفع سبعمائة وزنة وكميات من القمح تكفى لإطعام مائة وعشرين ألف نسمة ، وكانت سورية وفلسطين تدفعان ثلاثمائة وستين وزنة ، وكانت بلاد الميديين تبعث مائة ألف رأس من الغنم ، وكانت

بلاد أرمينيا ترسل ثلاثين ألف طير إلى الملك الذى يتربع على عرشه .

فكر أحشويرش فرأى أن ورنت هائلة من الذهب والفضة ترد إليه ، وكانت الوزنة قرابة نصف الكيلو ، وأن العملة التى تحمل صورته تتداول فى كل الأرض ، وأن البريد منتظم بين عاصمة ملكه وجميع ولاياته ، وأن الضرائب تجبى لتصب فى خزائنه ، فماله والحروب ، لماذا لا يتمتع بحياته ويبنى القصور ويعيش فى ترف ويغرق فى اللذات ؟!

وغص القصر بالنساء والمغنيات وأدوات الطرب والشراب ، وبدأت المادية الطاغية تنخر فى البنيان الأشم الذى أقامته نفحة زرادشت الروحية ، تلك النفحة التى حملت الرعاة الحفاة الذين كانوا يعيشون حياة الصعلك فى فارس إلى أقصى الأرض .

ورأى اليهود أن الفرصة الذهبية سنحت ، فما دام ملك الملوك قد استكان للترف فما أيسر أن يستولوا عليه وأن يجعلوه ألعوبة فى يد غانية يهودية ، وما أكثر الغانيات الفاتنات فى بنى إسرائيل .

وقف مردخاى وكان من اليهود الذين يقفون لحراسة قصر ملك الملوك فى ثياب مزركشة ، وقف منتصبا كتمثال ولكن الأفكار كانت تشتعل على رأسه ، فرأى نفسه وهو يباع فى أسواق الرقيق إلى رجل فقير لم يكن صاحب ضياع أو قصور بل صاحب عمل اشتراه ليعاونه فى عمله ، ورأى نفسه وهو يعمل لذلك الرجل حتى كسب ثقته ، ثم كاتبه على أن يهب له حريته لقاء مبلغ كبير ، ولما كان يهوديا فقد كان قادرا على كسب الأموال من كل السبل ، فراح يعمل حتى ادخر ما يفك به رقه ويعيد إليه حريته ..

* * *

ودخل مردخاى غرفته فى القصر الكبير فألفى إستر ابنة أخيه تتطلع إلى

صورتها فى المرآة وقد لاح فى وجهها الرضا ، كانت رائعة الحسن شديدة الأسر عيناها تلمعان ببريق يخطف القلوب ، وشعرها الأسود الجميل المسترسل خلفها يزيدها روعة وحسنا ، كانت فى السابعة عشرة يزينها تاج الشباب ويتدفق فيها الدم الفوار .

ورمقها بنظرة طويلة وقال :

— ما خلق الله هذا الجمال عبثا ، لا بد يا إستر أن يبذل لمصلحة بنى إسرائيل .

وشرد قليلا ثم قال :

— لا بد أن نستولى على هذا القصر ، أنا بدهائى وأنت بجمالك ، فما جئت إلى هنا إلا لأتسلط على القصر ومن فيه وأحرك رجاله ليعملوا على ما فيه مصلحتنا نحن اليهود .

— حلم لذيذ وما أحسب أن ذلك ميسور .

— ما أيسر ذلك على من ينفق الأموال ويقدم مثل جمالك الفاتن البديع ، أتعرفين موكان حكيم المملكة الذى لا يقطع الملك أمرا إلا إذا استشاره ؟ إنه طوع بنانى أغرقته بهداياى . إنه ليس وحده الذى استملته إلينا فهناك الخصيان السبعة الذين لا يغادرون الملك فى الليل أو فى النهار .

— أتحسب أننا سنحج فى استمالة كل الرجال بالمال ؟

— من لم يأسره المال يأسره الجمال .

وتأهب القصر للوليمة الكبرى التى أعدها الملك أخشويرش للأمراء وأشراف قومه ورؤساء مملكته ، كان الملك يريد أن يظهر للناس عظمته ليزداد فى أعينهم رفعة ، فأنفق على الوليمة بسخاء .

وتوافد الأمراء والأشراف إلى حديقة القصر ، وأقبل الملك يتألق

كجوهرة ، وجاء الخدم بكئوس الذهب والفضة يقدمون الخمر ، وانقضى الليل والجميع فى حبور حتى إذا قام الملك انصرف الجميع ليعودوا إلى الوليمة فى اليوم التالى ، فقد كان مقررا أن تستمر وليمة الأمراء والأشراف مائة وثمانين يوما .

وأعدت الملكة وشتى وليمة للنساء ، فما كان الرجال والنساء يجتمعون فى مكان واحد ، واستمرت هذه الوليمة أياما وأسابيع وشهورا .

وأراد الملك أن يشرك عامة الشعب فى الإعجاب بعظمته فدعا الشعب إلى قصره ، ودعت الملكة النساء إلى جناحها .

وراح الخدم يصبون الخمر حتى جرت أنهارا .

وانتشى الملك ولعبت الخمر برأسه فقال للملأ :

— إن امرأتى أجمل امرأة فى هذه البلاد ، ألا تصدقون ؟ سترونها الآن وستحكمون أنها أجمل امرأة فى الوجود .

ونادى الملك خصيانه :

— برتا .. حربونا . اذهبا وقولا لها إن أطلبها هنا ليرى الناس جمالها البديع .

كان مردخاى حاضرا فلمعت فى ذهنه فكرة ، فاقترب من الخصى كركس وهمس فى أذنه :

— ليت الملكة ترفض الحضور . كيف تحضر جلالتها إلى هؤلاء السكارى ، لو كان لى من الأمر كثير أو قليل لذهبت إليها أشير عليها بعدم المجيء .

وانسل إلى مموكان الحكيم حتى إذا ما عاد الخصيان ألقم أذنه وهمس :

— يخيل إلىّ أن الملكة رفضت المجيء ، فلو أنها رفضت لكان فى ذلك إهانة

للملك وللشعب جميعا .

وتقدم الخصيان إلى شاهشاه وقالوا :

— لا تقبل جلالتها أن تجيء تعرض نفسها على سكارى يترنحون .

فصاح الملك فى غضب :

— أين مموكان ليرى رأيه فى هذه التى عصت أوامرنا ؟

وجاء مموكان يقول ما أوحى به إليه مردخاى :

— إن الملكة وشتى تستحق أن تجرد من لقبها وأن تطرد من القصر جزاء وفاقا على غرورها وعدم خضوعها لما أمر به جلالتك .

— على بالكتاب ليكتبوا إلى أقطار مملكتى أن الملك أحشويرش شاهشاه فارس طلق الملكة وشتى لعصيانها أوامره ، فما كان لامرأة أن تعصى زوجها لأنه وحده الحاكم فى بيته .

ودخل مردخاى على إستر وهو يتهلل بالفرح وقال لها :

— إستر ! آن لهذا الجمال أن يسود . طلق الملك الملكة وطردها من قصره . إنه بعد أن طلقها سيحس وحشة وسينشد السلوى ، سيبحث عن العذارى الفاتنات فى مملكته ، وليس فيها من هى أفتن منك يا إستر ، سأقدمك إليه لتسبيه لبه وتقوديه حيث تقوديه ، ولن تقوديه إلا إلى ما فيه مصلحة بنى إسرائيل .

— أتقدمنى يا عمى حظية للملك ؟

— أجل حظية للملك ، حظية الملك التى تقدم جسدها ضحية لمصالح شعبها . يا لها من تضحية كريمة خليقة بها يا إستر .

وبعث الملك رسله إلى أنحاء مملكته يلتمسون الفتيات الأبكار الجميلات ، وتوافد إلى القصر فتيات رائعات الحسن ممشوقات القد ، غاية فى الفتنة

والجمال ، ودفع بهن إلى هيجاى حارس النساء ليطيبهن بالعطور والبخور والأدهان .

وفى ذات يوم همس مردخاى فى أذن هيجاى أنه عثر على تحفة من تحف الجمال ، والتمس منه أن يأتى معه ليراها فإنه على ثقة من أنها ستبهر الخصى الخبير فى النساء .

وانطلق مردخاى وهيجاى إلى حيث كانت إستر ، وأبرمت بين مردخاى والخصى أخطر معاهدة أبرمها اليهود !

كان هيجاى يدفع إلى الملك بعذراء كل ليلة ، فما تنقضى الليلة ويلوح نور الصباح حتى يدفع بالمرأة إلى حارس السرارى لتنضم إلى قطيع النساء المترقبات إشارة من الملك لتسرى عنه ليلة .

وجاءت الليلة المرتقبة ليلة دخول إستر على الملك ، فأخذ هيجاى يتفنن فى تزيينها ويوصيها بما تفعل لتفتن الملك وتستولى منه على السمع والبصر والفؤاد . وانقضت الليلة وجاءت الليلة التالية ، وجاء إليها هيجاى يزف إليها البشرى الغالية ، إن الملك يطلبها ليلة ثانية .

وتصرمت الليالى والملك يطلب إستر كل ليلة فقد شغف بها حبا . وفى ذات ليلة لعبت الخمر برأسه وأسرته أفانين بنت اليهود فنادى بإستر ملكة على البلاد .

وراح مردخاى يتقرب من أخشويرش ، إنه يريد أن يصبح المحرك للملك من وراء ستار ، وراح يسترق السمع لكل حديث ويحصى حركات رجال القصر ، ولما كان الملك قد ألقى بنفسه فى أحضان المجون وأسلس قياده لليهود فقد أحنق ذلك كل من حوله .

كان بغثان وترشى خصيا الملك حارسا الباب يدبران مؤامرة اغتيال .

الملك ، ويسمع مردخاى بشهما ونجواهما فيرفع الأمر إلى إستر ، ويقبض على الغلامين ويحكم عليهما بالقتل والصلب ، ويفكر فى مكافأة مردخاى فيبعث إلى هامان وزيره ويقول :

— أنقذ مردخاى حياتى وإنى أفكر فى أن أدنيه منى .

— أرى يا مولاى أن تمنحه جائزة وأن تدعه حيث هو .

— لماذا يا هامان ؟

— لأنه يهودى واليهودى لا يخلص إلا لنفسه

ودخلت إستر على الملك وقالت :

— ماذا فعلت لمردخاى يا مولاى ؟

— أعطيته جائزة .

— إن ما فعله مردخاى يستحق أن يسحن يا مولاى .

— هذا حق .

وأمر أحشويرش أن يدون ما فعله مردخاى فى التوراة ، فى سفر أخبار الأيام ، فقد صارت التوراة سجلا لتاريخ اليهود . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

وفى ذات يوم دخل هامان على الملك وقال له :

— إن اليهود الذين وفدوا إلى بلادنا سبيا من أورشليم قد عظم نفوذهم فى البلاد ، أثروا واغتنوا وأصبحوا أسياد المال المتحكمين فى الأسواق والأقوات والأرزاق ، إنهم يتلاعبون بالأسعار ويمتصون دم شعبك يا مولاى .

لو كان نفوذهم قد قصر على دنيا المال ، لهان الخطب ، ولكن نفوذهم تغلغل فى كل مكان ؛ عمموا الرؤساء الرشوة وبذروا فى قلوبهم الطمع

وغرسوا فى النفوس الأحقاد ليشغل الشعب بأحقاده عنهم ، إنهم لو قدروا على أن يقوضوا عرشكم تحكم لقوضوه .

— ماذا ترى أن نفعل فيهم ؟

— سنستأصلهم ، نقتل أطفالهم وغلمانهم وشبابهم ونساءهم ورجالهم وشيوخهم ، فنستريح من شرورهم .

— هذا هو الرأى يا هامان . خذ خاتمى وأصدر إلى الولاة أمرا بقتل كل يهودى فى ولاياتهم .

وعلم مردخاى بالأمر الملكى القاضى بإبادة اليهود فى فارس والهند والبلاد الممتدة إلى كوش جنوبى مصر ، فشق ثيابه وانطلق إلى ميدان القصر يصرخ وينوح ، وراح يحثو التراب على رأسه . وبلغ إستر ما يفعل فبعثت إليه من يسأله عن الخبر فأرسل لها مع الرسول :

— إن هامان استصدر أمرا بقتل جميع اليهود فى الثالث عشر من شهر آذار .

نزلت المحنة بشعب إسرائيل فوجب عليها أن تمد يد العون إلى شعبها .

وأولمت إستر للملك وهامان وليمة وجلسوا ، ولما دارت الكئوس قال الملك لإستر :

— ماذا تطلبين يا إستر ؟ لك أن تسألينى نصف مملكتى .

— كل ما أطلبه هو رضى مولاى .

ودخلت إستر مخدعها فإذا بالملك يدعوها إليه ، فذهبت وهى تحمل سفر أخبار الأيام ، ولما أغلق الباب عليهما راحت تقرأ والملك يصغى ، حتى إذا بلغت قصة مردخاى وتلك المؤامرة التى كانت تدبر لاغتيال أحشويرش قالت :

— هذا رجل أسدى إلى الدولة أجل خدمة ، ماذا فعلت له يا مولاى ؟

— كل ما أذكره أننا منحناه بعض المال .

وطوقت الملك بذراعيها وقالت وهى تقبله :

— ليت الذين حولك يا مولاى مثل هذا الرجل الذى أفعم قلبه بالإخلاص .

— غدا سنفكر أنا وهامان فى تكريم هذا الرجل .

— لى رجاء يا مولاى ، إذا أردت أن يكون رأى من تستشيره خالصا فلا تذكر له اسم من تريد تكريمه . سله عما يشير بفعله لرجل يسر الملك أن يكرمه .

واجتمع الملك وهامان وإستر ، وقال الملك لهامان :

— بماذا تشير علينا يا هامان فى رجل يسرنا أن نكرمه ؟

— أرى يا مولاى أن يكلف أحد الأشراف بإلباس ذلك الرجل اللباس السلطانى ، وأن يقدم له فرس الملك ليركبه فى ساحة المدينة ، وأن ينطلق الشريف أمامه يهتف : « هذا جزاء من يرضى الملك عنه ويأمر بتكريمه » .

وقال الملك لهامان :

— خذ اللباس والفرس يا هامان واذهب إلى مردخاى ، ذلك اليهودى الجالس ببابى وافعل به كل ما قلته فإنه يسرنا أن نكرمه .

وذهب هامان إلى مردخاى وفى صدره أتون نار يكاد يموت كمدا وألبسه لباس الملك وأركبه فرسه !

وفى الليل راح أحشويرش يمرر يده على عنق إستر ويقول :

— ما أروع هذا العنق البديع !

— هذا العنق البديع يا مولاى ستعمل فيه السكاكين .

— من ذا الذى يجرؤ أن يمسه ؟!

— من أساء استغلال عطفكم ورعايتكم .

— من يكون ؟

— هامان يا مولاى . هامان الذى حرضكم على اليهود ، على الذين أخلصوا لكم ، والذين لا ذنب لهم إلا أنهم أحبوكم .

— وما علاقتك أنت بهامان وبأمره بقتل اليهود ؟

— إنى يهودية يا مولاى ، فإذا نفذت أمر القتل فيهم قطعت رأسى معهم ، بحق حبى يا مولاى أستوهبك حياتى وحياة شعبى .

ودخل هامان على إستر وقال لها :

— ليتنى أعرف ذلك الذى مشى بالبهتان بينى وبين مولاى .

فهبت إستر كنمرة وقالت فى قسوة :

— أنا يا هامان ، أنا إستر اليهودية التى وسوست للملك أن يبيدها ويبيد شعبها .

— ما كنت أعرف يا مولاتى أنك يهودية .

— آه لو كنت تعرف لفرشت طريق اليهود بالورود !.

— لا . ما كنت أفعل إلا ما فيه مصلحة مولاى ومصلحة بلادى . كنت أشير عليه أن يبيدهم لأن فى إبادتهم حياته وحياة شعبه .

وصاحت إستر :

— ابتعد يا أبغض من وقعت عليه عيناى .. ابتعد .. اخرج ..

وفتح الباب ودخل الملك وصوت إستر يرن فى أذنيه . فثارت ثائرته ورأى هامان بالقرب ممن شغف بها حبا فتحركت غيرته فصاح:

— يا لئيم الذى أكرمته فكفر بنعمتى ودخل على أهلى فى غفلة منى !

وقتل هامان فخلا الجو لإستر ، وأصبح أحشويرش أطوع لها من بنانها تحركه كيف تشاء ، فكانت تمد أعداءها بين رشف الكئوس ورشف الثغور ، فمكنت لمردخاى فى القصر وأقنعت الملك أن يبعث إلى الولاة أن الملك العادل أحشويرش قد عفا عن اليهود وأكرمهم وخصهم برعايته .

وتحركت فى إستر روح الشر ، فراحت تحرض اليهود على التنكيل بأهل البلاد لتنزل الرعب بقلوبهم فتمكن لأهلها فى الأرض ، فقام فى مملكة أحشويرش عهد من الإرهاب ، فى ظل إستر ومردخاى ، وفى غفلة من الملك اللاهى عن شعبه بالجسد الذى يحوى بين جنبيه روحا تتعطش إلى سفك الدماء .

وراح مردخاى يقدم إلى الملك أسرابا من العذارى ليشغله باللذة عن إنصاف المظلومين وما أكثرهم فى ملكه !

وصارت المملكة الفارسية الهائلة الممتدة من الهند وفارس إلى كوش مرتعا خصبا لليهود ؛ يعيثون فيها فسادا ؛ ورضى اليهود عن إستر وقدسوها ، ودونوا قصتها فى التوراة وخلعوا عليها هذا اللقب « إستر القديسة » وصارت عند كل يهودى ملء العين والفؤاد .

٨

قامت العداوة بين الشرق والعرب ، بين الفرس واليونان ، وكانت عداوة شديدة الضراوة حتى إن أحشويرش حرج بجيوشه ليحتل أثينا ، ولكنه انسحب منها ليرعى فى أحضان اللذة واليهود .

ونخرت اللذة والدعة والفساد فى عظام الإمبراطورية الفارسية ، وراح مردخاى يسوم الفارسيين العذاب ، يقتل كل من يرفع صوته بالإصلاح ويردى أعداء اليهود فى التهلكة وينكل بالمتبرمين من سلطانه وسلطان إستر ، الساخطين من تغلغل اليهود فى اقتصاد البلاد واستيلائهم على منابع الثروات .

وراحت دولة اليونان الفتية تتأهب لتلعب دورها فى المنطقة بعد أن رأت الفساد يستشرى فى فارس ، والأغبياء يقلدون الشاهنشاه فى ترفه واستسلامه لليهود ، لقد دب الضعف والانحلال فى كيان أعدائها وإن بدا للناس شامخا مهيبا .

وبينما استشعرت اليونان راحة لذلك السوس الذى بدأ ينخر فى عظام الإمبراطورية الفارسية ، أحست ممالك النبط وقيدار وقبائل بنى إسماعيل الأخرى قلقا ، فقد تحالفوا مع الفرس وعاونوا قمبيز على فتح مصر ومدوا يد العون إلى دارا من بعده وباركوا فكرة إحياء توصيل البحر الأحمر بالبحر الأبيض عن طريق النيل ، فقام دارا بحفر قناة توصل بين شرق الدلتا والبحيرات والبحر الأحمر ؟

إنه ذلك المشروع القديم الذى بدأه ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وقد

حاول نكاو الثانى فى الأسرة السادسة والعشرين أن ينفذه ، وبعد أن قطع فيه شوطا وتحمل فى سبيله تضحيات كثيرة توقف عن المضى فيه نزولا على وحى من هيكل مدينة « بوتو » يعبر فى وضوح أن هذا العمل ضار بمصر ، ولن يستفيد منه إلا أعداؤها ؟

كانت العلاقة بين الفرس والعرب لا تزال طيبة ، فقد أوصى زرادشت أتباعه أن يتبعوا تعاليمه إلى أن يجيئهم صاحب الجمل الأحمر الذى سيبعث فى العرب ليملأ الدنيا عدلا ونورا ، وكان ملوك قيدار والنبط وشيوخ الإسماعيليين سعداء بهذه الصلة الطيبة ، كانوا تجارا ، وكانت أطماعهم عريضة ، وأن العلاقات الطيبة بينهم وبين فارس العظيمة تمكن لهم من تحقيق آمالهم ، إذا تيسر لهم حمل اللبان والمر والطيب والحرير والذهب والفضة إلى الهند وإلى كوش جنوبى مصر ، وقد عاونت القناة التى حفرها دارا على ازدهار تجارتهم .

كان ملوك النبط وقيدار وشيوخ الإسماعيليين مطمئنين ما دامت فارس حليفتهم قوية مرهوبة الجانب . فلما ظهرت بوادر الضعف فى حلفائهم فى قصر أحشويرش أوجسوا خيفة ، فلو قضت مؤامرات النساء التى تنسج فى جنبات القصر على إمبراطورية أحفاد قورش ، فإن ساعد اليونان سيشتد وتصبح مصر وسورية وممالك النبط وقيدار وبنى إسماعيل الممتدة بين مصر وبابل ميدانا للقتال بين الإمبراطورية الفارسية الغاربة وإمبراطورية اليونان التى بدأت ترتفع ليشرق نورها على العالمين

وراح النبط يحصنون عاصمتهم البتراء ويبنون الحصون فى الجبال حتى صارت كالصخرة يصعب اختراقها ، وراح بنو قيدار يقوون قلاع دومة الجندل ويتأهبون جميعا للدفاع عن حريتهم إذا جاء الإغريق يوما ليطئوا

بلادهم التى لم تسترق أبدا لدولة من الدول أو إمبراطورية من الإمبراطوريات العظيمة التى تعاقبت على المنطقة ، مد خرجوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض .

وفى ذات ليلة بينما كان أحشويرش يسير فى ردهات القصر يترنح من خمر إستر إذ طعنه أحد الحجاب طعنة قاتله ، فدبت الفوضى فى البلاد ، وأعمل الطامعون فى العرش سيوفهم فى رقاب منافسيهم فجرت الدماء أنهارا ، وأخيرا تمكن أرتحشتا الأول ابن أحشويرش من أن يتولى الملك بمعاونة اليهود ، وأن يصبح شاهنشاه فارس .

وحنقت الممالك التى أرادت أن تتحرر من سيطرة فارس من الهد إلى كوش على اليهود الذين عاونوا على عودة الحكم إلى ابن أحشويـرش ، وازدادت كراهيتهم لهم . ولكن ماذا يهم اليهود من تلك الكراهية ما دام ملوك فارس قد أصبحوا ألعوبة فى أيديهم ويوجهونهم حيث يشاءون !

كان قورش قد سمح لليهود الذين خلصهم من ذل الأسر ببابل أن يعودوا إلى فلسطين وأن يعيدوا بناء هيكلهم الذى خربه بختنصر ، وأمر قورش الجماعات التى كان اليهود يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجون إليه فى رحلتهم الطويلة إلى فلسطين ، ولم يتحمس شباب اليهود لذلك التحرير لأن كثيرا منهم تأقلموا فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائحة ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة !

ومرت سنتان على نداء قورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التى دامت ثلاثة أشهر إلى الأرض التى خرج منها آباؤهم قبل ذلك بمائة عام .

وأذن دارا الأول لليهود أن يعيدوا بناء الهيكل فأتموا بناءه بعد التى عشرة سنة ، ودبت الحياة مرة أخرى فى أورشليم ، وكان أشعيا قد ألقى نظرة عليها منذ مائة سنة بعد أن دمرها بختنصر وقال :

— أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟

فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال :

— كم لبثت ؟

قال :

— لبثت يوما أو بعض يوم .

قال :

— بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما .

فلما تبين له قال :

— أعلم أن الله على كل شيء قدير .

وقام أشعيا يستأنف دعوته ، ودعاه كتاب التوراة أشعيا الثانى !.

وأراد اليهود الذين استولوا بدهائهم ودسائسهم على ملوك فارس أن تكون هم الكلمة العليا فى أورشليم ، فراحوا يريبون لأرتحشستا أن يسمح بعودة العزير فى ألف وخمسمائة يهودى ممن نشوا فى أرض السبى إلى أورشليم ، ليمكنوا لسلطان فارس فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

وعاد العزير والذين معه إلى بيت المقدس ، وكان العزير يحمل التوراة التى أعيدت كتابتها فى بابل بعد أن حرق بختنصر كل نسخ التوراة يوم أن غزا أورشليم واليهودية .

تأثرت التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى أرض السبى بأساطير البابليين ، فقد كان للبابليين أيام حرم ؛ أيام صوم ودعاء يحرمون العمل فيها وكانوا يطلقون على تلك الأيام شبتو ، فحرم اليهود العمل فى يوم السبت ، وما جاء بذلك الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

وسبى اليهود فى أرض السبى الحياة الأخرى واعتنقوا ما كان يعتنقه البابليون من أن الإنسان يذهب بعد الموت إلى الأرض التى لا رجعة منها ، إلى أرض الظلام وأطلقوا عليها شيول ، ثم قالوا إن الإنسان يثاب على أفعاله ويعاقب عليها فى الحياة الدنيا .

وراحت التوراة الجديدة تروى تاريخ اليهود فرفعت إستر إلى مرتبة القداسة ، ولما كان اليهود فى ذلك الوقت أذلة ملطخين بالعار فقد ألصقوا بالرسل والأنبياء كل نقيصة ، وجعلوهم يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ويضطجعون مع بناتهم ولا يتورعون عن الكذب والربا وإتيان الفسوق !

كان اليهود فى فلسطين فى شوق إلى التوراة ، فلما جاءهم العزير بما كتب فى أرض السبى فتنوا به حتى إنهم قالوا : العزير ابن الله .

ولم تعرف أرض فلسطين الاستقرار طويلا ، فسرعان ما شب النزاع بين اليهود الذين عادوا مع العزير واليهود الذين كانوا فى فلسطين قبل عودة من كانوا فى أرض السبى ، ونشبت مناقشات حامية بين يهود أورشليم ويهود السامرة ، قال السامريون إن كانت التوراة قد نزلت على موسى فعلى من نزلت الأحداث التى تروى تاريخ اليهود بعد موسى ؟ ومن ذا الذى روى الآيات الواردة فى التوراة الجديدة بعد الإصحاحات الخمسة الأولى ؟ ومن ذا جعل إستر قديسة ؟

واشتد الجدل بين العزير وقومه وبين السامريين الذين لم يعترفوا

إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى ، ورأى العزير أن يستنجد بأرتخشستا بعد أن بلغ النزاع بين اليهود الوافدين من فارس وبين السامريين حدا ينذر بنشوب الحرب بينهم ، بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وراح اليهود الذين استولوا على عقول ملوك فارس يزيون للملك مصر اليهود الذين خرجوا مع العزير بحجة تمكين سلطان الفرس فى فلسطين ، فبعث أرتخشستا ساقيه نحميا وكان يهوديا ليحكم بين الذين اختلفوا فى التوراة . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين .

وانطلق نحميا إلى فلسطين يحاول أن يلم شمل اليهود المختلفين وأن يعيد بناء ما تهدم من أماكنهم المقدسة ، وانتهى به الأمر أن جعل الشاهنشاه يعترف بالحاخام الأكبر ملكا على أورشليم وأرض يهوذا .. وعلى الرغم من ذلك ظل الخلاف ناشبا بين اليهود والسامريين . وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

طال على اليهود الأمد فقست قلوبهم ونسوا رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ورب موسى وهارون ، رب العالمين ، فراحوا يكتبون فى توراتهم الجديدة أن موسى صنع أفعى نحاسية ، وأن اليهود عبدوها فى الهيكل إلى أيام حزقيا ، وقدسوا الأفعى لأنها رمز الذكورة المخصبة ولأنها تمثل الحكمة والدهاء والخلود .

واتخذوا يهوه إلـٰها وصاغوه فى الصورة التى كانوا عليها فجعلوه إلـٰها صارما ذا نزعة حربية صعب المراس ولم يجعلوه عالما بكل شىء ، قالوا فى توراتهم الجديدة إن إلـٰههم طلب منهم أن يميروا بيوتهم لما تأهبوا للخروج من

مصر بأن يرشوها بدماء الكباش المصحاة لئلا يهلك أبناءهم على غير علم منه مع من يهلك من أبناء المصريين !

وراح الكهنة يؤكدون في توراتهم الجديدة أن لا أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين التي يتقبلها الإله ، أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية ، فأصبح كهنة الهيكل الثاني في بيت المقدس أقوى من الملوك أنفسهم .

ولم يجعلوا يهوه إلٰها واحدا لا شريك له بل جعلوه يقر بوجود آلهة أخرى ، وكان كل ما يبغيه أن يكون فوق مقام سائر الأرباب ، وقد قالوا على لسان موسى : « من مثلك بين الآلهة يارب ؟ » وقالوا على لسان سليمان : « إلٰهنا أعظم من جميع الآلهة » .

« إنما إلٰهكم الله الذي لا إلٰه إلا هو وسع كل شيء علما »

وفسد دين إبراهيم بين بني إسرائيل كما فسد بين بني إسماعيل الذين خرجوا من مكة لينفسحوا في الأرض ، واستقروا في شمال الجزيرة العربية على حدود بابل ودمشق ومصر ، ولم يبق دين إبراهيم على نقاوته إلا حول البيت الذي أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل ، أول بيت وضع للناس ، ذلك البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا .

وراح مضر ورجال قافلته يطوفون بالبيت طواف الوداع قبل أن ينطلقوا إلى البتراء عاصمة النبط ، فقد ظلت العلاقات الطيبة بين العدنانيين وملوك النبط فلم ينس العدنانيون يوما أنهم منهم وأن معد بن عدنان قد نشر القلم النبطي في ربوع مكة .

وانطلق مضر بتجارته يجوب الآفاق ، وبينما كان في طريق عودته إلى الحرم وقد نال الإبل التعب والكلال وحنت إلى الراحة ، إذا به يسقط عن بعيره فوثبت يده ، فراح يمشي خلف الإبل ويقول :

— وايداه ! وايداه !

وكان مضر من أحسن الناس صوتا ، فلما سمعت الإبل ترنمه بذلك دب فيها النشاط وذهب عنها كلالها ، وفطن من فى القافلة إلى أن الابل قد أعنقت وعادت إليها حيويتها لما داعب آذانها ترنم مضر ، وعرف القوم أن الحداء يذهب كلال الإبل ، فكان مضر أول من سن الحداء فى العرب .

٩

كان زرادشت قد علم قومه أن لا إلٰه إلا أهورا مردا إلٰه النور ، الإلٰه الحكيم ، وأن ليس معه إلا صفاته : الروح الطاهرة والعدل والنية الطيبة والعمل الصالح والصدق والتقوى والخلود . وحذرهم من قوى الشر المتمثلة فى « أهريما » الشيطان الرجيم ، وأنذرهم بيوم لا بيع فيه ولا شراء : يوم الدينونة والحساب وخلود أرواح المتقين الأبرار فى عالم النعيم ، أما أرواح الأشرار فلها الويل والثبور .

وفرض زرادشت على أتباعه الصلوات الخمس وحرم عليهم الضحايا والقرابين ، وكان الكهنة « المجوس » يقدمونها لآلهتهم الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريح ، وحرم الخمر وكان أهل فارس يشربون « الهوما » المسكر وكان المجوس يقدمونه فى الطقوس الدينية ويؤكدون أنه دم الإلٰه يجرى فى شرايين المؤمنين !

ونفخ زرادشت فى أرواح الفارسيين نفخة روحية عظيمة حملتهم من هضبتهم القاسية إلى أقصى الأرض : إلى القوقاز وأفغانستان وبلوخستان والهند وإلى أواسط آسيا الصغرى وإلى بلاد الرافدين وسورية وفينيقيا وفلسطين ومصر والمدن اليونانية فى السواحل العربية للأناضول ، إن الأرض يرثها عبادى الصالحون .

وازدهرت فارس وحملت إليها خيرات العالمين ، وزخرت عاصمتها اصطخر بفنون الشعوب التى سبقتها فى الإيمان والحضارة : بابل وسورية

وفلسطين ومصر ، فما قامت حضارة إلا بعد انتفاضة روحية ملأت جوانب المؤمنين بالنور . فاصبر إن العاقبة للمتقين .

واخترعت النقود وقامت دور السك فى فارس وفى اليونان وفى أرض النبط بصرف العملة ورسم صور الملوك عليها . وقد يسر ذلك الاختراع التجارة فنشطت القوافل ، وراح البريد يجرى فى جسم الإمبراطورية الفارسية جريان الدم فى الشرايين .

واتخذت فارس اللغة الآرامية لغة التجارة ، فانتشر الخط الآرامى إلى جوار الخط المسمارى الفارسى . وكان عرب النبط يكتبون بالآرامية ولا غرو فقد كانوا يمشون بالتجارة بين الهند وفارس وبابل ودمشق وغزة ومصر ويثرب ومكة واليمن ، فازدهرت تجارتهم وقوى نفوذهم فى المنطقة

وكان النبط يحلون كل عون من عرب الفرس ، أولئك العرب الذين أسكنهم بختنصر الحيرة يوم أن وثب على العرب وقاتلهم وأسر منهم من أسر . ومما ساعد النبط على مد نفوذهم التجارى فى فارس أن العرب الذين نزلوا بالحيرة والأنبار كانوا من بنى إسماعيل ، كان الأصل واحدا والمصلحة واحدة .

ولم تنقطع الصلة بين العدنانيين وبين النبط وعرب الحيرة والأنبار ، فقد كانت تجارة نزار تنطلق من مكة إلى يثرب إلى البتراء ومنها إلى أسواق فارس أو أسواق الشام ومصر ، وكان مضر يغدو ويروح بين الأمصار بتجارة مكة ، فإن كان بنو معد بن عدنان قد استقروا إلى جوار الكعبة فإنهم لم ينسوا يوما أنهم من النبط أمهر تجار العرب الذين تحصنوا فى صخرتهم المنيعة البتراء التى نحتت فى صخور الجبال ، وامتدت مملكتهم حتى أشرفت على حدود بابل ومصر ، واشرأبت بعنقها لتنشر ظلها على دمشق ودلتا النيل .

مضى على أسرة قورش قرنان من الزمان وقد مكنها إيمانها بالله الواحد القهار أهورا مزدا إلٰه النور الإلٰه الحكيم أن تبسط سلطـانها على ممالك الأرض ، وأن تكون فى أقصر مدة أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ القديم . ولكن طال على الناس الأمد فقست قلوبهم وراحت أساطير الأولين تتسرب إلى ضمائرهم ، فامتزجت ديانة التوحيد بالوثنية القديمة ونفذ المجوس من خلال دعوة زرادشت إلى قلوب الناس ، وراحوا يشركون مع أهورا مزدا إلٰه الشمس « مترا » وقالوا : إنه إلٰه العدل والإخلاص .

وبدأ فساد ديانة التوحيد فى فارس كما فسدت من قبل بعد نوح فى بابل ، وبعد إبراهيم فى أرض النبط وممالك قيدار وأبناء إسماعيل الذين هاجروا إلى شمال الجزيرة العربية وفى أرض السبى وفى فلسطين ، فقد جعل الكهنة صمات الله الواحد الأحد آلهة . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد و لم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم .

وعبدت الإلٰهة « أناهيتا » إلٰهة الماء والخطب والنساء فى فارس و لم تكن من آلهة الفارسيين فى العصور الخالية ، فهى صورة جديدة لعشتار البابلية

وقد يسر اتصال الشعوب بعضها ببعض انتقال الآلهة كما تنتقل السلع والتوابل والبخور ، فعبد أزريس فى بلاد الإغريق وصار أدونيس ، وعبدت إيزيس فى أرض النبط وصارت العزى ، وعبدت فى اليونـان وصارت أفروديت ، وعبد عرب الحيرة اللات والعزى وسند ، ومن يدرى فقد يكون سند هذا هو ست إله الهكسوس أو أى إلٰه آخر من آلهة الفراعين .

أسن الدين فى فارس فهام ملوكها فى أحضان اللذة وأسلسوا للنساء القياد ، فراح الحسان ينسجن المؤامرات لتنفيذ مآربهن الشخصية والسياسية ، وقد

نجحت إستر فى أن تجعل أحشويرش ألعوبة فى يدها لينفذ ما يمليه عليه اليهود ليمكنوا سلطانهم فى الأرض ، فصار البلاط الفارسى ميدانا لدسائس تحاك فى الظلام ومن وراء ستار !

وذهب أحشويرش ولكن نفوذ اليهود والنساء ازداد تغلغلا فى شئون الملك ، وانتهز المجوس كهنة آلهة الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريح ذلك الضعف فراحوا يشجعون الملوك والندماء والنساء ورجال السياسة من القوادين والمستغلين على شرب « الهوما » دم الإله ليخدروا حواسهم ، ويشغلوهم باللذات عن استغلالهم للشعب وعن امتلاء خزائنهم بالأموال .

وشاعت الفاحشة فى قصور الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة ، وانتشر الفساد فى دور العبادة ، وراح اليهود يسحرون كالسوس فى عظام الدولة ، ولم ير الشعب بل استكان للظلم وجارى ملوكه فى الفساد ، ودب فى صفوف الجيش الوهن بعد أن اعتمد ملوك فارس لضعاف على مرتزقة الإغريق الذين جاءوا من الآفاق يبحثون عن مال وخمر وجسد .

كان كل شىء فى فارس ينذر باقتراب هبوب العواصف ونزول الكوارث ، إن الملك لله يؤتيه من يشاء بحقه ، وحق الملك إقامة العدل والإحسان ، فإن انحرف الملك عن الجادة فعلى الشعب أن يقومه وأن يعيده إلى الصراط المستقيم ، فإن استمر فى بغيه وعدوانه فعلى الشعب أن يخلع طاعته ، فإن لم يفعل حق على الملك والشعب العذاب . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا .

كان أهل فارس ظالمى أنفسهم يكاد أن يصيبهم سيئات ما عملوا ، وفى ذلك الوقت الذى شاعت فيه الفاحشة فى فارس كان فى بلاد الإغريق شاب

يدعى أرسطوطاليس برع فى الرياضة وفاز مرتين فى الألعاب الكورنتية ، وسماه معلمه الأول الذى كان يعلمه الألعاب الرياضية أفلاطون لاتساع منكبه ، وقد كانت روح أفلاطون دقيقة حساسة فقادته إلى مجالس سقراط ، فكان يلقى إليه سمعه مبهورا معجبا بجدله وقوة حجته وفلسفته .

وشغف أفلاطون بالحكمة وبمعلمه حتى إنه قال : أشكر الله أنى ولدت يونانيا لا بربريا ، حرا لا عبدا ، رجلا لا امرأة ، وفوق كل ذلك أشكره لأنى ولدت فى عهد سقراط .

ومات معلمه وهو فى الثامنة والعشرين ، وكان موته صدمة مروعة للشاب الرقيق الحس ، فراح يتأمل الحياة والناس فامتلأت نفسه باحتقار الديمقراطية ومقت الرعاع ، وما كان ذلك يستغرب منه فقد نشأ فى الرفاهية والرخاء بل وفى مهد الثروة ، وآمن بوجوب القضاء على الديمقراطية واستبدالها بحكم الأحكم والأفضل محلها ، وأصبح أكبر همه فى الحياة أن يبتدع طريقة يستطيع أن يكشف بها عن أحكم الناس وأفضلهم ثم يقنعهم أن يتقلدوا زمام الحكم .

وأصبح أفلاطون موضع ريب الديمقراطيين فأشار عليه أصحابه بأن أثينا لم تعد دار أمان له . وأن العناية الإلـٰهية هيأت له فرصة ليرى العالم ويسير فى الأرض فيكون له قلب يعقل به ، لعله يهتدى إلى ما يريد .

وشد الرحال إلى مصر وأصغى إلى الكهان ولكنه سمع منهم ما يكره ، إذ قالوا له : إن اليونان لا تزال دولة فى المهد ليس لها تقاليد ، وأنها خلو من الثقافة . وصدمه القول ولكنه فتح عينيه وجعله يتلفت ويتأمل .

ومن مصر انطلق إلى صقلية فإيطاليا ، وهناك اتصل بالمدرسة التى أنشأها فيثاغورس ، فتأثر بسيرة طائفة من الرجال لا شأن لهم إلا العكوف على

البحث والحكم ، إنهم تربعوا على العروش وتقلدوا مناصب الحكم ولكنهم كانوا يعيشون عيشة السذاجة الطبيعية ، فراح ينهل من المدرسة التى وافقت مزاجه .

وراح أفلاطون يجوب الآفاق وهو يقول مع معلمه سقراط : اعرف نفسك . وراح يدوى بين جنبيه سؤال : ما الإنسان وما مصيره ؟

كان أفلاطون على الرغم من تعدد الآلهة فى أوليمب يؤمن بإله واحد ، وكان يأمل ألا يفنى فى التراب متى شرب كأس الردى . فراح يسعى للحصول على الحكمة سعى من يحبها .

وعادت أسئلة كثيرة تلح على ذهنه : ما العدالة ؟ ما الشرف ؟ ما الفضيلة ؟ ما الأدب ؟ ما الوطنية ؟ فلما عاد إلى أثينا راح يكتب محاوراته ليصور الفردوس الأرضى الذى يتصوره . وما انتهى منها حتى وضع أمام أعين العالم جمهوريته الفاضلة .

كانت جمهوريته تدور حول الدولة برجالها والأمة بآحادها . وعنده أن الفرد دولة مصغرة والدولة جسم كبير ، وأن ما يسعد الدولة يسعد الفرد وأن الرجل الكامل والمثل الأعلى هو الذى تحكم عقله فى شهوته ، وانقادت حماسته إلى حكمته ، وعاش ومات فى خدمة المجتمع .

وأثر أفلاطون فى حكم أثينا فنفخ فيهم روحا وثابة تتطلع إلى العدل وتحقيق الحكومة العادلة ، فإذا بآمالهم تتسع ليضموا العالم فى دولة واحدة .

وانتهى ملك فارس إلى دارا الثالث وكانت خزائنه تفيض بالذهب والفضة ، وكانت قصوره آية من آيات الفنون ، وكان الترف يطل برأسه فى المدن الفارسية ، وكانت كئوس الهوما مترعة والحسان يخطرن فى القصور والدور أحرارا وإماء يقدمن أنفسهن لطلاب اللذة ، ويبعن ضمائرهن

لأصحاب الفتن والمؤامرات .

وأمست فارس جسدا بلا روح ، جسدا نهما إلى الفسوق طار من قلبه الإيمان ، وكثر فيها المترفون من قلوبهم هواء وعقولهم حواء . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون .

كان دارا الثالث يرتمي في أحضان الحسان في فارس بينما كان فيليب المقدوني يتغذى بأفكار فلاسفة عصره ويتنقى في سعادة آراء أفلاطون ، ويحلم بإقامة جمهوريته ، فراح يفكر في غزو فارس ، وفي أن يقتص إمبراطوريتها من أطرافها .

ومات فيليب قبل أن يحقق حلمه وأحلام الفلاسفة ، وقام ابنه الإسكندر من بعده وقد امتلأ وجدانه بحلم الحكومة العالمية والمدينة الفاضلة ، ولما كان الإسكندر شابا طموحا لا حدود لآماله ، فقد راح يعد العدة لغزو العالم ليضمه في حكومة واحدة تخضع لسلطانه ، يمارس فيها من ضروب العدل والإحسان ما يحقق جمهورية أفلاطون الفاضلة .

بدأت العداوة بين الشرق والغرب منذ قامت الحروب بين فارس واليونان ، فقد مشى ملوك الفرس حتى وطئوا بخيلهم ورجلهم أرض أثينا ، وكان ذلك أيام أن كانت الشعلة المقدسة متأججة في قلوب المؤمنين من الفرس . أما وقد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وخبت الشعلة الدينية وأسلموا قيادهم لمترفيهم ، فقد حق عليهم العذاب والهوان والاستسلام لأقوام سرت فيهم نفحة روحية جديدة .

سرت في اليونانيين نفحة الروح ، ولكنها نفحة كالبصيص من أثر الفلاسفة ، نفحة ستدفعهم دفعة لن تطول ؛ إن الأرض لله يورثها من يشاء

من عباده ، والعاقبة للمتقين .

من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .

١٠

كانت ولاية البيت فى بنى إياد بن نزار فكانت لهم السيادة الدينية على مكة ، وانطلقت قوافلهم التجارية تجوب الآفاق تحمل الذهب والفضة والحرير والتوابل والبخور إلى الأمصار ، وتعود بخيرات مصر وسورية والعراق وفارس إلى البلدة التى حرمها الله .

وكان بنو قضاعة بن معد يحسدون بنى إياد أن ذهبوا بالسيادة والشرف والغنى ، وراحوا يتطلعون إلى ولاية البيت ويرصدون الأحداث لعل الإياديين يبغون طلما فى الأرض فيخرجوهم من البيت ، ويصبح لهم شرف ولايته .

وكانت قوافل بنى قضاعة تخرج إلى مملكة النبط التى ازدهرت واتسعت رقعتها ، حتى ضمت كل قبائل بنى إسماعيل فى قيدار وعريبى وفى شبه جزيرة سيناء وأصبحت دولة مرهوبة الجانب ، يخطب ودها الفرس والإغريق على السواء ، ويهابها فراعنة مصر خشية الوثوب على دلتا النيل ، وشاهنشاهات فارس خوفا من أن يضعوا أيديهم على دمشق بعد أن استولوا على غزة ورفح وهددوا أورشليم .

كان بنو قضاعة ينظرون فى إعجاب إلى أبناء نابت بن إسماعيل الذين صارت لهم مملكة قوية تناوئ الفرس والإغريق ، لا تخضع لأى القوتين العظيمتين اللتين تتصارعان للاستيلاء على العالم : قوة الفرس وقوة اليونان بل ظلت حرة طليقة بلا قيود . ونسى بنو قضاعة فى موجة حماستهم للأنباط وإعجابهم بهم أن أبناء نابت بن إسماعيل قد تخلوا عن وظيفتهم الدينية الأساسية

ليقوموا بدور سياسي ودور تجاري في المنطقة ، وأنهم قد تحولوا من الولاء الروحي لحكم القانون الإلٰهي إلى تملك أسباب السيطرة على الطبيعة ، فخمدت فيهم الاستثارة الروحية التي كانت كفيلة بأن تبسط سلطانهم على العالمين .

كانت دعوة إبراهيم دعوة عالمية ، وكانت ملة إبراهيم تدعو إلى أخوة عالمية ، وقد حرج أبناء نابت وأبناء قيدار وأسباط إسماعيل حكومة عالمية تخضع لقانون الله وتقيم الفردوس الأرضي المنشود ، ولكن أعلال الحضارات كبلت الدعوة الدينية ، فأصاب النفوس — التي كانت مؤمنة برسالتها — تحلل روحي جعلها تطلق لذواتها العنان ، موقنة بأنها تعيش وفقا للطبيعة بإطلاق الحبل لشهواتها على الغارب ؛ فأخمد الفيتق الذي عقدت عليه الآمال في أن يؤدي رسالته .

وكان بنو قضاعة يسيرون بقوافلهم إلى الحيرة على سيف البادية غير بعيد من نهر الفرات ، وكانوا يقولون : يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة ، فهي منزل برىء صحيح من الأدواء والأسقام ، وكانوا مفتونين بهؤلاء العرب الذين أنزلهم بختنصر بها ، فسرعان ما نشطوا واتحدوا وأخذوا بأسباب الحضارة وقووا صفوفهم ، حتى أوشكوا أن يكونوا قوة عربية أخرى يعمل حسابها إلى جانب قوة النبط في ميزان القوى الدولية

وتشتتت أحلام بني قضاعة إذ كانوا يحلمون بالهجرة إلى العراق والانضمام إلى عرب الحيرة .. عرب الفرس ، فكل البشائر تؤكد أن المستقبل لهم ، ولكن كثرة الأحلام والأماني بعثرت جهود بني قضاعة .

وراح بنو مضر يتكاثرون في سرعة ، وفي سنين قليلة صاروا قبيلة قوية لها قوافل تغدو وتروح بين عواصم الدنيا ولها آمال تبغي تحقيقها ، ولما كانت أعلى

أمنية لقبيلة تعيش فى كنف بيت الله أن يكون لها شرف ولايته وسقاية حجيجه ، فقد ملأت هذه الأمنية صدور أشراف مضر وساداتها .

كانت ملة إبراهيم لا تزال ناصعة فى مكة لم يعرف أبناؤها بعد عبادة الأوثان والأصنام ، وقد أثمرت الاستثارة الروحية فاكهة حلوة تجلت فى إلياس بن مضر ، فقد كان شابا متدينا زاهدا فى الدنيا يشفق عن سعة ، وقد آتاه الله الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

رأى النزاريون والقضاعيون والإياديون والمضريون وكل من جاءوا من معد بن عدنان ممن كانوا يخرجون فى القوافل الضاربة فى الشمال وفى الجنوب والشرق والغرب ، رأوا معابد ود وساف فى أرض ثمود ، وأطالوا النظر إلى ود وتفرسوا فى مناف . كان رجلا لا لحية له يحدر على عارضيه شعر رأسه الصعبى ، وحول جفنيه وحدقتيه خطان ناعمان ، يزين جيده قلادة ، وعلى صدره طيات ردائه يعطف طيلسانه الإلهى من كتفه اليسرى ليتصل بكتفه اليمنى . إنه إله يرمز إلى الآلهة الشمسية ، فقد ارتد القوم عن دين الله وعادوا إلى عبادة الكواكب والشمس والقمر . إلى ما كانوا يعبدون قبل أن يدعوهم إلى الإسلام خليل الرحمن .

وسحر بنو معد بن عدنان من دين ثمود ، وما دار بخلدهم أنه سيأتى يوم يوضع فيه ود وساف فى جوف الكعبة !

ورأوا معابد الإله « ذى الشرى » فى أرض النبط وكان إلههم الأكبر أقاموا له معبدا فخما فى البتراء نحتوه فى الجبال ، وراح الناس يحجون إليه ويتقربون إليه بشرب الخمر ، ولا عرو فقد كان حفدة نابت بن إسماعيل يعيشون فى مأساة الانحلال الروحى إذ رأوا المجوس فى فارس يتقربون إلى آلهتهم بشرب الهوما دم الإله ، فراحوا يحاكونهم فى التقرب إلى رب البيت بشرب

الخمر .

ورأوا معابد اللات أو الشمس أم الآلهة جميعا ، ومعابد العزى ومناة ، وما دار بخلدهم أنه سيأتى يوم توضع فيه اللات والعزى ومناة فى جوف الكعبة .

كانت الآلهة فى تلك الأيام تنتقل من شعب إلى شعب كما تنتقل السلع ، فانتقلت عبادة إيزيس من أرض مصر إلى أرض النبط وصارت العزيزة ثم العزى ، وانتقلت إليها عبادة أزريس وصار « ذا الشرى » . كما انتقل إلى أرض اليونان وصار أدونيس ، وكما انتقلت إيزيس إليها وصارت إفروديت !

وكان ذو الشرى حجرا أسود غير مصقول يبلغ ارتفاعه أربع أقدام وعرضه قدمين ، يستند إلى قاعدة مكسوة بالذهب عليها تصاوير جميلة تمثل تقديم القرابين إليه .

ورأى بنو معد فى مصر المسلات رمزا لإله الشمس ، ورأوا تماثيل رع إله الشمس ، وآمون إله الشمس تارة وإله الهواء تارة أخرى ، وصور قرص الشمس المجنح ، وسمعوا أن نجم الكلب إن هو إلا روح إيزيس وأن النجم الشعرى إن هو إلا روح أزريس ، فكاد بنو معد أينما ذهبوا يجدون أن عبادة الكواكب والنجوم قد عادت كما كانت قبل بعثة جدهم الخليل ، فكانوا يسخرون من عبادة ود وبعل فى الشام سخريتهم من عبادة « شيع القوم » الذى لا يشرب خمرا فى الحيرة ، إلا أنهم كانوا يلقون السمع إلى أساطير الشعوب .

ولم يستعر البراريون ولا القضاعيون ولا الإياديون ولا المضريون ولا غيرهم من بنى معد بن عدنان آلهة ثمود ولا النبط ولا الشام ولا الحيرة ولا بابل ولا فارس ولا مصر ، فقد كانوا على دين إبراهيم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولكن إلقاء سمعهم إلى الكهنة والأساطير جعلهم يعبدون الله على حرف ،

وبدأت الأباطيل تتسلل إلى سنة الآباء .

وقام إلياس بن مضر في مكة كما قام أفلاطون في أثينا ينصح الناس ، ولكن إلياس لم يكن في حيرة من أمره ، لم يسأل ما العدالة وما الشرف وما الفضيلة وما الأدب وما الوطنية ؟ و لم يتحدث عن العالم الآخر حديثا يطابق ما تصوره خياله ، فلم يقل بأن الأرواح تنتهي إلى موضع سري فيه فجوتان في الأرض تقابلهما طاقتان في السماء ، وأن القضاة يجلسون بين الفجوتين للحكم ، وأن الأبرار بعد صدور الحكم لهم يسيرون إلى اليمين في طريق السماء ، وأن الفجار ينطلقون في الطريق المنحدر إلى اليسار وبيات شرورهم من خلفهم ، و لم يقل كما قال أفلاطون بأن السيئة بعشر أمثالها وأن الحسنة كذلك ، و لم يتصور مدينة فاضلة تسودها نظم خيالية ليس لها مكان إلا في أخيلة الفلاسفة ، بل كان إلياس يحدث قومه عن شريعة الله وعن العدل الإلٰهي وعن قانون الأخلاق السماوي ، وعن أن الحسنة بعشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون .

وراح إلياس يحدث قومه بأن الله جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، وكان يصف لهم فردوسا أرضيا قام في الأرض أيام آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، فردوسا مارس الناس فيه كل ألوان العدل والشرف والفضيلة وذاقوا فيه حلاوة الرضا والاستقرار ، و لم يحدثهم عن فردوس أرضي لم يجد له مكانا إلا في الخيال !

راح إلياس بن مضر يقاوم البدع في مكة وينكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن الآباء ، وما كان إلياس فظا ولا غليظ القلب بل لان لهم جانبه ، وكان يدعوهم بالتي هي أحسن فالتفوا حوله يلقون إليه سمعهم وقد اتخذوه

قدوة وعظموه تعظيم أهل الحكمة ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم .

وجلس إلياس فى الدار يسبح الله ويقدس له ، وقد شفت روحه وهامت فى الملكوت لتتصل بروح الوجود وتتلقى فيض النور الذى يشرق فى جنبات الأبرار ،وعلى حين فجأة مست أذنيه ضحكات بريئة أخرجته من وجده وهيامه ، فالتفت فرأى ابنيه عامر وعمرو يدخلان وهما يتضاحكان فقال لهما :

ـــ ما الذى أضحككما ، أضحك الله سنكما ؟

فقال عمرو ، وكان لا يزال صبيا وإن كان أكبر من أخيه :

ـــ كنا فى إبل نرعاها فاقتنصنا صيدا فقعدنا عليه نطبخه ، وعدت عادية على الإبل فقلت لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ . فلحقت بالإبل وجئت بها .

فقال إلياس لعامر وهو يرمقه فى حب :

ـــ أنت مدركة .

وقال لعامر وهو يضمه إلى صدره :

ـــ وأنت طابخة .

وسمعت أمهم ليلى بنت عمران بن إلحاف بن قضاعة مناجاة زوجها لولديه ، فجاءت مسرعة تخندف فقال لها :

ـــ تخندفين ؟

فعرف عامر بمدركة وعرف عمرو بطابخة وعرف الابن الثالث بقمعة وعرفت أمهم بخندف .

وجاء أوان الحج فاشترى إلياس بعض الإبل ووهبها للنحر فى الحج ، وأراد أن يشعر الناس أنها هدى فشق أحد جنبى سنام البدن ليسيل منه الدم ليكون

ذلك علامة على أنها هدى للبيت ، فكان إلياس أول من أهدى البدن إلى البيت وأول من سن الإشعار .

وبان فضل إلياس ورصوا به رضا لم يرضوا مثله لأحد من ولد إسماعيل ، فطمع بنو مضر فى أن تكون ولاية البيت فيهم ولكن إلياس كان زاهدا أعرض عن الدنيا وزينتها وطمع فيما عند الله ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

ومات إلياس فتولت خندف وعيناها تفيضان بالدمع حزنا على زوجها الكريم ، فلم تطق الصبر فى الدار التى شهدت أسعد أيام حياتها مع إلياس الحكيم ، فتركت بنيها الصغار وهامت على وجهها تسيح فى الأرض تبكيه ، تركت فلذات كبدها شغلا بحزنها على أبيهم وكانوا صغارا رحمهم الناس فقالوا :

ـــ هؤلاء أولاد خندف التى تركتهم وهم صغار أيتام.

ونسب أولادها إليها : إلى المرأة التى هامت على وجهها حزنا على زوجها حتى لحقت به فى دار اليقين . مات إلياس وماتت خندف من بعده و لم يمت أمل بنى مضر فى ولاية البيت ، فإن كان إلياس قد زهد فيها فقد يستطيع مدركة أو طابخة أو قمعة أبناء خندف أن يصبح واليا على أول بيت وضع للناس، وفى ذلك شرف لمضر وسلطان مبين .

١١

كان فيليب المقدونى معجبا بأفلاطون ، وكان يرى أن أفلاطون هو الفلسفة والفلسفة هى أفلاطون . وكان إعجابه بذلك المعلم العظيم أنه يعنى بالصفات الحقيقية الخالدة ، فلما أراد أن يتخذ معلما لابنه الإسكندر ، اتخذ أرسطوطاليس تلميذ أفلاطون العظيم لينهض بتثقيف من سيتولى عرش مقدونيا يوما .

وراح الإسكندر يصغى إلى أستاذه أرسطو ويتشرب آراءه فى الحكمة والفلسفة وما وراء الطبيعة ، وربما طالما مشى إلى جواره وهو يحدثه عن الدورة المشئومة فى الحكم : ملكية فأرستقراطية فحركة رجعية فديمقراطية ففوضى ثورية فدكتاتورية ، فقد كان أرسطو يتحدث وهو يمشى ويمشى حوله مريدوه ، لذلك أطلق عليهم المشاؤون .

وحدث أرسطو تلميذه عن جمهورية أفلاطون ، فراح يعلمه فوائد الثروة ويلقنه العدالة وما تقدم العدالة ، وحقيقة الصديق ، وأنه لا خير فى مضرة الآخرين ، وأن الصالحين نافعون دائما ، وأن الشرائع مرآة من يسنها ، وأن الحكام غير معصومين ، وأن خطأ الفنان ليس خطأ الفن ، وأن الطبيب هو شافى المريض لا جامع المال ، وأن الحاكم راع ورعيته الشعب .

وألقى الإسكندر سمعه إلى أستاذه وهو يشرح له أركان المدينة الفاضلة ، فتعلم أن العدالة تطلب لذاتها ، وأن الأبرار فى نعيم فى العالم الآخر وأن الفجار يغوصون فى أوحال المستنقعات وقد كتب عليهم أن ينقلوا الماء فى الغربال إمعانا

فى تعذيبهم .

وسمع الإسكندر حديثا طويلا عن الله ولقن أن الله صالح . وأنه ينبغى وصفه بالصلاح والحق ، وأن لا شىء ضارا يخرج من الصالح ، وأن من ليس بضار لا يصنع ضررا ، وأن من لا يضر لا يصنع شرا وهو علة الخير وهو برىء من ابتداع الشر ، وأن علينا أن نفتش عن علة الشرور فى غير الله ، وأن الله هو أصل خير البشرية وسعادتها .

وتعلم دستور المدينة الفاضلة القائم على الشجاعة والقضاء على مخاوف الموت وعلى بشاعة تصوير الحياة فى الآخرة ، وأن رأس العظمة حرية النفس ، وأن احترام النفس ركن الرجولة . وأن لا خير فى الكذابين فإن جاز الكذب لأحد فللحكام فى مخادعة الأعداء أو إقناع الشعب بما فيه خير الدولة ، ولا يباح لأحد سواهم أن يشترك معهم فى هذا الامتياز .

ووعى الإسكندر أن من أفظع أعمال الرعاة وأدعاها إلى الخزى فى الرعية ، أن كلابهم التى ربوها لحراسة القطيع تهجم على الغنم إما بسبب جوعها أو نهمها فتمزقها بأنيابها فتصبح ذئابا لا كلابا حارسة، وأنه ينبغى أن يهذب الرعاة تهذيبا صحيحا إذا أريد أن يستخرج أفضل ما فى كنوز أفئدتهم من لطف وحنان ومحبة لرفاقهم الذين وضعوا تحت أيديهم .

وكان صوت أرسطو يرن فى أعماق ضمير الإسكندر بقول أفلاطون : يبيت الحكام المستبدون من معالاة الناس فى التحلل من القيود تحللا يسميه الناس حرية ، وأن هذه الحرية تهوى آخر الأمر بالأمة إلى درك الاستعباد . إن كل شىء يزيد على حده ينقلب إلى ضده ، وذلك لأن العامة التى ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها فى العادة زعيما يقودها ، وهو إنسان جرىء لا ضمير له يسعى لنيل رضاء الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم ، ولما كان هذا

الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فرداً كغيره من الأفراد ، فإنهم يخلعون عليه حماية المنصب العام ويجددون له هذه الحماية على الدوام .

ومات فيليب المقدونى واستولى الإسكندر من بعده على عرش أثينا ، وأصبحت السلطة فى يد أول مواطن فى جمهورية أفلاطون يستطيع بنفوذه أن ينشر آراء معلمه وأستاذ معلمه . وكان الإسكندر خير من ينهض بهذه الرسالة فقد كان شاباً يتقد حماسة ، وقد آمن بكل الأفكار التى نفخها أرسطو فى روحه .

وسع أرسطو آفاق آمال تلميذه ، ملأ رأسه بأفكار كبيرة وأهداف اجتماعية عظيمة ، وشحنه بنفحة روحية جعلته يمتشق الحسام عندما صار إليه الأمر ليخضع العالم لسلطانه ويجعل منه دولة واحدة تدين بثقافة واحدة ، يسرى فى أرجائها العدل والحرية والأخلاق الفاضلة ، إنه حلم عظيم لرجل عظيم .

كان الإسكندر قائداً ممتازاً فراح يغزو الممالك من حوله ، وسرعان ما ركعت الدول تحت قدميه مما أطمعه فى غزو فارس الإمبراطورية التى شاخت ونخر فيها الفساد واليهود ومؤامرات نساء القصر الفاتنات .

كانت فارس تسيطر على أحد طرفى الطريق التجارى العظيم الذى يربط عرب آسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وكانت بلاد اليونان تسيطر على طرفه الثانى ، فكانت الحرب بين الدولتين واقعة لا ريب فيها لتستولى إحداهما على الطريق كله ، وكانت اليونان تترقب أن يقوم سيد منهم يضم شتاتهم ويؤلف بين قلوبهم ويخوض بهم غمار المعركة المنتظرة ، فلما وحد الإسكندر مدن اليونان فى دولة واحدة وكون جيشاً منظماً أحسن تدريبه وزوده برماح طويلة ، خرج بفيالقه المتراصة ليسدد طعنة قاتلة إلى قلب فارس سيدة العالم ،

ليخلو له وجه الدنيا .

واجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ومعه قوة من رجاله خالها الآسيويون ضئيلة ، إذ كانت مؤلفة من ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة الآف من الفرسان، وكان كل من في آسية مقتنعا بأن اليونان لقلتهم لن يجرؤوا على الاشتباك في حرب مع الفرس لكثرتهم .

وجاء جيش فارس قوامه أربعون ألف مقاتل ليصد جيش الإسكندر عند نهر غرانيقوس ، فخسر الفرس في هذه الواقعة عشرين ألف مقاتل و لم يخسر الجيش اليوناني إلا مائة وخمسة عشر رجلا ، فقد كان الجيش الفارسي مسلحا بالسهام فكان هدفا صالحا لرماح المقدونيين الطويلة ، وزاد الأمر سوءا أن قواد الفرس جاءوا معهم بسراريهم و لم يكن منهم من هو راغب في القتال .

واتجه الإسكندر جنوبا وشرقا يخضع بعض المدن ويستسلم له بعضها الآخر ، ومر عام تمكن فيه دارا الثالث من جمع خليط من ستمائة ألف رجل بين جندي ومغامر ، وعبروا نهر الفرات على جسر من القوارب طيلة خمسة أيام ، وحملت أموال الملك على ستمائة بغل وثلاثمائة جمل ، وعد أسوس التقى الجيشان .

كان الإسكندر يؤمن بفكرة ويحارب لتحقيق هدف ، بينا كان دارا الثالث شاهنشاه إيران قد غرق في اللذة حتى الآذان وهد الترف بناءه وروع فؤاده ، ونزع من قلوب جنوده ذلك الإيمان الذي غرسه زرادشت في أفئدة فلاحي فارس فحملهم إلى أطراف الأرض وجعلهم أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ في ذلك الزمان .

كان الإيمان بفكرة فلسفية يقاتل جنودا قلوبهم هواء ، غايتهم كأس خمر وجسد ترب وتفاهات الحياة . لم يكن مع الإسكندر إلا ثلاثون ألفا من رجاله

وكان مع دارا الثالث جنود لا قبل للإسكندر بها ، ولكنه كان غبيا عباء لا يحد فاختار ميدانا للقتال لا يتسع إلا لجزء صغير من جيشه ليقاتل اليونان ، على حين يبقى سائره معطلا .

ووقعت المجزرة بين اليونان وفارس ، ولم يخسر فيها الإسكندر إلا أربعمائة وخمسين رجلا ، بينما خسر دارا ألفا ومائة رجل قتل معظمهم وهم يولون الأدبار مفزوعين مرعوبين .

وراح الإسكندر يطارد الجيوش المهزومة وعبر في مطاردته مجرى مائيا على جسر من جثث الفرس ، وفر دارا من الميدان فرار الأنذال تاركا فيه أمه وزوجة من أزواجه وابنتين له وعربة وخيمة مترفة ، ووقعت السيدات في الأسر ولكن الإسكندر أكرمهن وأظهر شهامة فائقة في معاملتهن .

وخرج سكان بابل للترحيب به وقدموا له مدينتهم وما فيها من ذهب ، فتقبل منهم ما عرضوه في لطف وبشاشة ، وسرهم بأن أمر بإصلاح هياكلهم المقدسة التي هدمها ملوك الفرس .

وأرسل إليه دارا يعرض عليه الصلح ، وكان مما عرضه أن يقدم للإسكندر عشرة آلاف وزنة من الذهب إذا رد إليه أمه وزوجته وابنته ، وأن يزوجه ابنته ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع بلاد آسية الواقعة غرب الفرات ، وأنه لا يطلب لقاء ذلك إلا أن يأمر الإسكندر بوقف القتال وأن يتخذه صديقا له .

واجتمع الإسكندر بقواده وعرض عليهم شروط الصلح ، فقال بارميو القائد الثاني لجيوش اليونان :

— لو كنت الإسكندر لقبلت هذه العروض الطيبة مسرورا ، فأمحو بشرفي من شر هزيمة قد تكون ساحقة .

— لو كنت بارميو لقبلت هذه الشروط ، أما وأنا الإسكندر فإني

أرفضها .

ورد الإسكندر على دارا : « إن عروضك لا معنى لها ، فإنى أملك بالفعل ما تعرضه على من بلاد آسية ، وفى وسعى أن أتزوج ابنتك متى أشاء » .

وعلم دارا أن لا أمل فى عقد صلح مع ذلك الشاب الذى يطمع فى أن يبسط سلطانه على الدنيا ، فراح يجمع وهو كاره جيشا آخر أكبر من جيشه الأول ليقف به فى وجه ذلك المارد الذى يحلم بأن يضم العالم فى دولة واحدة ، ثقافتها واحدة ويحكمها رجل واحد .

ورأى الإسكندر أن يغزو سورية ومصر حتى يقطع عن فارس كل إمدادات محتملة . فانطلق إلى سورية فقوبل بالترحيب وفتحت له المدن أبوابها وهتفت للمنقذ والقائد المظفر . حتى إذا ما بلغ مدينة صور حصن العرب المنيع إذا بالقلاع شمخت بالجمود وأطلت العداوة من العيون .

وبعث الإسكندر إنذارا إلى حاكم المدينة ، وأبت صور أن تسلم أو أن تسمح لأية حامية يونانية بالنزول فيها ، فأمر الإسكندر بالهجوم على المدينة وهو يمضغ غضبه .

و لم تكن هذه أول مرة ترفض فيها صور التسليم فقد أبت أيام شلمصر أن تفتح أبوابها للملك الأشورى وأبت أن تستسلم لبختنصر ، وإنها لتقف فى شجاعة نادرة أمام جيوش الإسكندر التى جرت جيوش فارس ساجدة عند أقدامها .

وضيق الإسكندر على المدينة الحصار فاضطر الأحرار من أهلها أن يفروا منها ليلحقوا بإخوانهم فى قرطاجنة . تلك المدينة التى أسسها فى إفريقية أحرار فروا من صور من قبل ، أيام حصار شلمصر وحصار بختنصر ، فقد رفض أحرار العرب فى كل مكان الخضوع لجبابرة الأرض ، أنفة من أن يكونوا

أرقاء .

وكان هؤلاء العرب الأحرار حملة ثقافة وعلم ، فقد نشروا الحروف الهجائية الفينيقية وهم يمشون بتجارتهم بين آسية وإفريقية ، وقد أثرت ثقافتهم في الحضارة اليونانية قبل أن يأتي ذلك الملك المقدوني ليذل بلادهم .

وسقطت صور بعد أن قاومت مقاومة الأبطال وبعد أن فر منها أحرارها إلى قرطاجنة ، ولقد كانت قرطاجنة تزدهر وتعظم كلما أحدث صور وصيدا في الضمور والاضمحلال .

وغزا الإسكندر مصر وبنى الإسكندرية ، ثم انطلق إلى واحة سيوة إلى وحي الإله آمون الذي ذاع صيته في بلاد الإغريق بعد هلاك جيش قمبيز في الصحراء ، وقد رضي آمون عن الإسكندر وأرضاه حين جعله ابنا له وألبسه تاجه .

وعاد الإسكندر إلى بابل ، وبعد مسيرة عشرين يوما منها وصل جيشه إلى السوس واستولى عليها دون أن يلقى مقاومة ، ثم تقدم إلى برسبوليس بسرعة لم تمكن دارا من حمل ما فيها من أموال ، فأخذ ثمانية آلاف وزنة من الذهب وأطلق ساقيه للريح ، وسرعان ما دخل الإسكندر القصر واستولى على مائة وثمانين ألف وزنة ، كانت ما بقي من خراج الهند وبابل وآشور وسورية وفلسطين ومصر وأرمينيا وبلاد الأناضول .

كان دارا قد جمع من الولايات الفارسية وخاصة من ولاياته الشرقية جيشا جديد عدته ألف ألف مقاتل ، يتألف من فرس وميديين وبابليين وسوريين وأرمن وساكي وهنود ، ولم يسلحهم بالقسي والسهام بل جهزهم بالحراب والرماح والدروع ، وأركبهم الخيل والفيلة والعربات ذات الدواليب التي ركبت فيها المناجل لكي يحصد بها أعداءه حصد الحنطة في الحقول .

حشدت آسية العجوز هذه القوة الهائلة لتحاول بها مرة أخرى أن تدفع عن نفسها أوروبا الناهضة الفتية ، ووقف الشرق أمام الغرب وجها لوجه ، التقى الإسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان وأربعون ألفا من المشاة بذلك الخليط المختل النظام ، وعند كواكميلا صار الفرس حصيد سيوف الإسكندر وجنوده ، وتبدد شمل الجيش الفارسي في يوم واحد ، واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان فنادى الإسكندر أن يؤسر دارا أسرا ولا يقتل ، بيد أن رجلين من حرس دارا طعناه من خلفه وقد أرادا بطعنهما إياه الحظوة عند الإسكندر .

وبلغ الإسكندر ما أصاب دارا فسار حتى وقف عنده ، فرآه يجود بأنفاسه ، فنزل عن دابته حتى جلس عند رأسه وقال :

— لم أهم قط بقتلك وإن الذى أصابك لم يكن عن رأيى .

ونظر إلى الشاهنشاه المسجى على الأرض فأحس رأفة تسرى فى كيانه فقال :

— سلنى ما بدا لك فأسعفك فيه .

فقال له دارا وهو يلفظ النفس الأخير :

— لى إليك حاجتان : إحداهما أن تنتقم لى من الرجلين اللذين فتكا بى ، والأخرى أن تتزوج ابنتى روشنك وأن ترعى لها حقها وتعظم قدرها .

وأتاه الرجلان اللذان وثبا على دارا يطلبان الجزاء فالتفت إلى من عنده وقال :

— اضربوا رقبتهما واصلبوهما .

ولاحت الدهشة فى وجه الرجلين واستولى عليهما رعب شديد ، فقال لهما الإسكندر :

— هذا جزاء من غش أهل بلده .

وأرسل الإسكندر جثة دارا مكرمة إلى برسبوليس فى موكب حافل وأمر أن تدفن كما تدفن أجسام الملوك الأخمينيين ، وكان دارا الثالث آخر ملوك هذه الأسرة .

وتزوج الإسكندر روشنك ابنة دارا ، وشجع قواده أن يحذوا حذوه ليزيل الفوارق بين الشعوب ويجعل من ملكه الكبير أمة واحدة مؤمنة بثقافة واحدة ، ولا عرو فقد كانت فكرة إقامة جمهورية أفلاطون فى الأرض تستولى على كل تفكيره .

وانضوى الشعب الفارسى تحت راية الإسكندر إعجابا منه بكرم أخلاقه ونضرة شبابه ، ونظم شئون فارس وجعل من الفرس شركاء له فى الحكم ، ثم ترك فى فارس حامية قوية لحراستها وواصل زحفه إلى الهند .

وامتد ملك الإسكندر شرقا وغربا فعزم على أن يتخذ بابل عاصمة إمبراطوريته ، فراح يصلح ما درس منها ليعيد إليها مجدها ، واستقر بقصرها فخفت شعوب الأرض إلى بابل بالهدايا تخطب ود رجل العصر وإمبراطور الدنيا غير منازع ، وتقدم له الولاء والخضوع . ولكن العرب فى شمال الجزيرة العربية وفى جنوبها أنفوا من ذلك فلم يبعثوا إليه بالهدايا ولم يرسلوا إليه الرسل ، بل لاذوا بالصمت العميق .

واستشاط الإسكندر غضبا وورمت أنفه فراح يتوعد كل سكان جزيرة العرب بالويل والثبور ، وأقسم أن يطأ بلادهم بخيله ورجله وأن يسوق من يجود من حصيد سيفه أذلة صاغرين .

وقبل أن ينفذ وعيده ويغزو جزيرة العرب مات فى بابل ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين ، فحزنت عليه أم دارا الثالث حزنا جعلها تقضى على حياتها

بامتناعها عن الطعام حين علمت بموت الرجل الكريم الذى أظهر شهامة نادرة يوم أن وقعوا أسرى فى يده .

وبموت الإسكندر ماتت أحلامه وتحطمت آماله ، فقد كان يؤمن بفكرة فلسفية وما كان كل قواده يؤمنون بها ، فلو كان الإسكندر يحمل دعوة دينية لها مؤمنون لقام خلفاء الإسكندر بنشر ذلك الدين ، أما وأن الإسكندر كان يحمل آراء معلمه وآراء أفلاطون المعلم العظيم ويعمل على نشر آراء أستاذيه ويعمل على إقامة جمهورية أفلاطون فى الأرض ، تلك الإمبراطورية التى تقوم على أحلام فيلسوف ، فسرعان ما ذابت إمبراطورية الشاب الكبير وقسمت بين قواده ، وكان منهم من لا يفهم أفلاطون ولا فلسفته ، بل كان فيهم من يرتاب فى الفلسفة ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق وكل التراث القديم .

وماتت جمهورية أفلاطون ، تلك الجمهورية التى لم يكن لها مقام فى مكان ما و لم تعش إلا فى خيال الفلاسفة ، لفظت أنفاسها يوم أن لفظ الإسكندر الأكبر فى بابل النفس الأخير ، بل لفظت أنفاسها قبل أن يذوق الإسكندر الموت أيام أن بسط سلطانه على الأرض و لم يستطع أن يحقق حلم أفلاطون الجميل .

وصار الإسكندر فى العابرين وبقيت جزيرة العرب لم يلحقها معرة غزو الإسكندر ، ليبعث منها النور يوما ويشرق على العالمين . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

١٢

ماتت أحلام الإسكندر بموته ، فما كان قواده الذين قسم إمبراطوريته بينهم يتمتعون بفضائل العنصر الحاكم . تلك الفضائل التى اتصف بها الإسكندر . ولم يكونوا مؤمنين بالفكرة الفلسفية الجميلة التى اعتنقها الإسكندر ، فما كان يخطر على بال أحدهم إمكان تحقيق حلم أفلاطون ، فعادت جمهورية أفلاطون كما كانت مجرد فكرة فلسفية جميلة لم يقدر لها أن تجد لها مكانا فى الأرض ، بعد أن هلك فى بابل أول مواطن آمن بالمدينة الفاضلة له نفوذ وسلطان ، واتسعت رقعة ملكه حتى كادت تغطى وجه الدنيا .

وتشتت الجيش المقدونى بعد موت قائده وانفصمت وحدته ، فراحت بعض فيالقه تعمل تحت إمرة خليفة الإسكندر فى بابل ، وراحت فيالق أخرى تأتمر بأمر خليفته فى سورية ، وسيطر خليفته فى مصر على جنود الإغريق الذين كانوا فيها ، ولما كانت اليونان قد أصيبت بداء الحرب الطبقية فقد فضل كثير من جنود الإسكندر أن يكونوا جنودا مرتزقة على أن يعودوا إلى بلادهم التى يتطاحن فيها زعماء البروليتاريا والرجعيين ، وقد أغراهم على ذلك أن رواتب الجنود المرتزقة كانت تدفع بسبائك الذهب والفضة .

وزاد حجم النقود المتداولة زيادة مفاجئة فى البلاد التى انتشر فيها مرتزقة اليونان ، فأدى تضخم الأموال المتداولة إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا ، فشاع الدمار بين الفلاحين والصناع الذين كانوا مستقرين قبل أن يقوم الإسكندر بمغامرته العسكرية ، فانتشر السخط فى البلاد التى قاست ويلات

التضخم ، وقد كان ذلك السخط هو السلاح الذى ستنتحر به ممالك خلفاء الإسكندر التى تبدو فتية .

كان الإسكندر قد توعد سكان جزيرة العرب بالغزو وقد مات قبل أن ينفذ وعيده ، ترى أيقوم خلفاؤه بتأديب هؤلاء العرب الذين أبوا أن يحملوا الهدايا إلى القائد المظفر وأن يخروا ساجدين تحت أقدامه .

مات الإسكندر فى بابل فتلاشت كل آماله وأمانيه ، ومات إلياس بن مضر فى مكة وبقيت تلك النهضة الدينية التى بثها فى المجتمع الذى تكون حول بيت الله ، إنه لم يأت بفلسفة جديدة ولا بدين جديد ، كل ما فعله أن أزال ركام الأساطير عن ضمائر المؤمنين وغسل رءوسهم من الشك والأباطيل وأعاد الروح إلى دين إبراهيم وإسماعيل . وأزاح الغشاوات عن أبصار المسلمين وبصائرهم فجعلهم يتعمون بنور الله ونور الوجدان ، نور على نور . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

آمن العرب الذين استقروا حول الكعبة منذ أن أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، أن لهذا الكون ربا له ما فى السماوات وما فى الأرض بيده الملك وهو العزيز الحكيم ، فأسلموا له وجوههم واستخفوا بكل جبار عنيد ، ولم ترتعد فرائصهم لما علموا أن الإسكندر هددهم بالغزو والسبى ، ولم تذهب نفوسهم شعاعا بل راحوا يتأهبون للقتال والدفاع عن بيت الله وكانوا على ثقة من نصر الله إن الله يدافع عن الذين آمنوا .

وجاءهم نبأ هلاك الإسكندر فحمدوا الله وأثنوا عليه أن جعل لهم حرما آمنا بينما يتخطف الناس من حولهم .

نفخ إلياس بن مضر الرماد عن نار الإيمان فى الصدور فأجج الحماسة الدينية فى قلوب الإياديين والنزاريين والمضريين وكل من نزل إلى جوار البيت

المبارك ، وألف بين القلوب فنامت المطامع إلى حين .

كان المضريون يطمعون فى ولاية البيت ويتطلعون إلى انتزاعه من أيدى الإياديين ، وقد قوى أملهم يوم أن التف الناس حول إلياس ورضوا به رضا لم يرضوه لأحد من ولد إسماعيل ، ولكن إلياس كان من الزاهدين لم يطمع فى ولاية ولا ملك . كل ما كان يرجوه أن يهديه الله وأن يهدى قومه إلى الصراط المستقيم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى .

ومات إلياس فالتف أشراف مضر حول ابنه مدركة وراحوا يزينون له الوثوب على أبناء عمومتهم ، على أبناء إياد بن نزار لينتزعوا ولاية البيت منهم ، لينتقل لمضر الشرف والسيادة وعز الدنيا وزينتها .

كان مدركة زعيم قومه وكان صالحا من الأبرار يمقت البغى والعدوان ، فلم يلق سمعه إلى قومه فولاة البيت من الإياديين يعرفون للحرم حقه ، وقد استقاموا بعد أن أثرت حكم الياس فيهم وهدتهم سواء السبيل .

وكان يكره أن يستخدم الأسلحة الدينية فى جلب مغنم لعشيرته ، وكان يشفق على المضريين من أن يتردوا فيما تردى فيع اليهود من عبادة أنفسهم ، منذ ذلك اليوم الذى بلغ فيه غرورهم أن ادعوا أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الناس . كان يخاف على المصريين أن يعبدوا ذواتهم كما فعل اليهود من قبلهم ، وأن يعزلوا أنفسهم عن مجتمعهم ، فراح يخمد حركات التمرد التى كانت تحاول أن ترفع رأسها لتعارض سلطان الإياديين .

وانقضت أيام مدركة فى سلام وصارت زعامة مضر إلى خزيمة بن مدركة ، وكان خزيمة محبوبا فى قومه ذا رأى سديد من عباد الله المتقين قد عرف عنه الصلاح ، وكان أمر البيت إلى وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد فخاف وكيع منافسة خزيمة ، ورأى أن خير ما يفعله لدرء تلك المنافسة أن

يشتهر بين قومه بالصلاح ، فبنى بأسفل مكة صرحا وجعل فيه سلما وكان يرقاه ويقول إنه يناجى الله .

وشعت مكة بالدين وبقوافل التجارة التى تعدو وتروح بين الشام والعراق وفارس ومصر وكانت كلها تحت حكم خلفاء الإسكندر ، فكان رحال القوافل يعودون بالسلع والأموال وأنباء تلك البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويروون على العاكفين بالحرم أساطير فارس وبابل والآراميين والمصريين واليونان .

كانت مكة على صلة وثيقة بالأحداث العالمية إلا أنها كانت بعيدة عن مسارح القتال بين جيوش الشرق والعرب ، لم تصل إليها جيوش بابل وآشور والفرس واليونان ، وكان كل ما وصل إليها تهديدات بختنصر ووعيد الإسكندر . ولم يدر بخلد أحد من الطائفين حول الكعبة أنه سيأتى يوم تحمل فيه الجزيرة راية الشرق ، وأنها ستكون محور الصراع بين الشرق والعرب ووريثة العداوة التقليدية بينهما .

وراح وكيع بن سلمة يعتزل الناس ويتعبد فقال الناس عنه :

— إنه صديق من الصديقين .

وراح يتكهن ويقول :

— من فى الأرض عبيد لمن فى السماء ، هلكت جرهم وأزيلت إياد ، وكذلك الصلاح والفساد .

إنه يتكهن بانتهاء ولاية إياد للبيت كما انتهت أيام جرهم ، وأنها ستزول يوم يزول الصلاح منها وينتشر الفساد . ترى أرأى وكيع التراخى يسرى بين الإياديين وأن الفساد بدأ يستشرى فيهم وأنهم باتوا مجتمعا مشرفا على الموت ، أم أنه رآهم أصبحوا أعجز من أن يقضوا على كبرياء مضر وتطلعهم إلى شرف

ولاية البيت ؟

استولى وكيع على مشاعر بنى عدنان جميعا فكان يحدث الناس أحاديث تستقر فى سويداء أفئدتهم ، فأمتع الأحاديث ما يهز العواطف ويمس مكامن النفس ، كان يقول :

— يقول ربكم : ليجزين بالخير صوابا ، وبالشر عقابا .

وحضرته الوفاة فجمع إيادا فقال :

— اسمعو وصيتى : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجليها .

ومات وكيع فساد مكة وجوم وترقرق الدمع فى العيون ، ونعى فى الوادى المقدس ، ووقف أحد النعاة من إياد على رءوس الجبال يقول :

ونحن إيـــــاد عبـــــاد الإلٰـــــه
ورهــــط مناجيــــه فى سُلَّـــــم
ونحن ولاة حجـــــاب العتيـــــق
زمـــــان النُخـــــاع على جرهـــــم

وقامت نائحة وكيع على جبل قيس فقالت :

ألا هـــلك الوكيــــع أخـــو إيـــاد
سلام المرسلين على وكيــــــــــع
مناجـــى الله مـــات فـــلا خلـــود
وكل شريـــف قـــوم فى وضيـــــع

وحزنت إياد على وكيع حزن الثكلى على وحيدها ، ترى كيف يكون حال الإياديين بعده ؟

١٣

كان البط يحلمون بسلام دائم يسود المنطقة ، وأن يقوم الوفاق الاجتماعي بين الشعوب المتناحرة عوضا عن تلك الحروب المدمرة التي تعوق نمو تجارتهم وازدهار حضارتهم ، ولكن العالم انقسم على نفسه إلى معسكرات وشيع يضرب بعضه بعضا ، فالطبقات تتصارع والدول تشن الحروب بعضها على بعض وتحاول كل منها ابتلاع حضارة غريمتها وهضمها .

اعتنق الإسكندر وهم الدولة العالمية الفاضلة فراح يبسط سلطانه على العالمين ليقيم المدينة الفاضلة ، حلم أفلاطون الفيلسوف . وجاد الإسكندر بأنفاسه قبل أن يحقق الوحدة العالمية السياسية المرتجاة بفرض إرادته المطلقة على بقية الدول ، وقسمت إمبراطوريته بين قواده وما كان أحد منهم يعتنق مبادئ قائدهم بل كان جلهم يعجبون بفلسفة أرستبوس الظريف !

كانت فلسفته بسيطة صريحة ، فقد كان يقول : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعا في اللذة أو خوفا من الألم حتى لو أفقرنا أنفسنا لخير أصدقائنا أو ضحينا بحياتنا من أجل قوادنا ، وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذي لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة .

وعلمنا بالأشياء مشكوك فيه ، وكل ما نعرفه معرفة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية ، وليست أعظم اللذات هي اللذات العقلية أو الخلقية بل هي اللذات الجسمية .

ولهذا فإن العاقل من سعى وراءها أكثر من سعيه وراء أى شيء آخر ، ومن الذى لا يضحى بخير عاجل فى سبيل خير آجل غير مؤكد ؟

والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه فى ذلك ، وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهى عابرة ، والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه فى الساعة التى نحن فيها .

وليست فائدة الفلسفة فى أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها فى أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتفع بها ، وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها ، بل هو الذى يستمتع بها دون أن يكون عبدا لها ، والذى يستطيع بفعله أن يفرق بين اللذائذ التى تعرضه للخطر والتى لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذى يظهر الاحترام المقرون بالفطنة للرأى العام وللشرائع ، ولكنه يعمل على قدر ما يستطيع على ألا يكون سيدا لإنسان ما أو عبدا له .

كان أرسطو يلقن تلميذه الإسكندر أن الله روح العالم فهو المحرك الأول الذى لا يتحرك ، يحرك كل شيء ويبطنه حسب القوانين الأزلية ، وأنه حقيقة العالم الفعلية ، فقام الإسكندر الشاب بنصل تلك النفحة الروحية يغزو العالم.أما قواده فقد اعتنقوا فلسفة اللذة ، فلسفة أرستبوس الطريف ، فسرعان ما راح السوس ينخر عظام الإمبراطورية الفتية .

وقد توعد الإسكندر النبط والعرب بالغزو وبقتل الرجال وسبى النساء ، ولكن الإسكندر مات قبل أن يتحرك وينفذ وعيده ، وصارت سورية تحت حكم قائده أنطيغونس ، ترى أيسير أنطيغونس بجنوده لتأديب هؤلاء العرب الذين بلغت بهم الغطرسة ألا يبعثوا بالهدايا والسفراء إلى بابل لتهنئة الإسكندر ملك الملوك الذى دانت له بالولاء الأرض جميعا ؟!

كان ملوك النبط قد ضربوا النقود أسوة باليونان وروما ومصر والفرس . وقد يسر ذلك الاختراع القيم التجارة ، ولكن بعض التجار كانوا لا يزالون مستمسكين بالأساليب العتيقة يفضلون الماشية على العملات الفضية والنحاسية ويجدونها أعظم منها قيمة .

وتأهب الرجال فى البتراء للخروج إلى أسواق المدن المجاورة فوضعوا النساء والأطفال والشيوخ والعجزة فى « صخرة » حصن البتراء ، وتركوا بعض رجال لحراستها وما كانت مسورة ، وإن كانت مخازنها تفيض بخيرات ممالك دنيا من قمح وحرير وتوابل وبخور وفضة .

وانطلق الخارجون إلى معابد ذى الشرى واللات ومنوتن والعزى ورب البيت يطوفون بأصنامها وأوثانها طواف العرب بالبيت العتيق ، ويتمسحون بها ويلتمسون منها البركة ، فقد كان فى النبط بعض سنن الآباء إبراهيم وإسماعيل ونابت . كانوا يعبدون الله إلا أنهم أشركوا معه آلهة أخرى فجعلوا اللات والعزى زوجه وأم الآلهة ورمزوا إليها بالشمس ، وجعلوا العزى ومنوتن والإلٰهات الأخر بنات الله يشفعن إليه .

وخرجت قوافل التجارة من البتراء فى ركاب بعضهم النقود الجديدة الفضية والنحاسية ، بينا راح البعض الآخر يسوقون الماشية أمامهم فقد كانوا لا يزالون يعتقدون أن الماشية هى أفضل وسيلة للتبادل لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولسهولة نقلها من مكان إلى آخر .

وشغلت أذهان الرجال بالتجارة والبيع والربا ، فقد عرف الربا فى أرض بابل وفى أرض مصر وفى كل سوق من أسواق الشام والعرب قبل أن يتحدث فلاسفة اليونان عن الفوائد المشروعة وغير المشروعة .

كان النبط مطمئنين لا يخشون غدراً، فقد مات الإسكندر الذى هددهم

بالقتل والسبى وكانت علاقتهم بأنطيغونس خليفته على سورية طيبة فى ظاهرها ، فكان الهدوء يسود مملكتهم التى امتدت إلى حدود دمشق بعد أن استولوا على غزة وخاد يونس وسيناء . وما دار بخلدهم أن أنطيغونس أوجس منهم خيفة ؛ إن هى إلا وثبة واحدة وتصبح دمشق فى قبضة يدهم ، فماذا يبقى للإغريق بعدها فى سورية ؟

وكان أنطيغونس يطمع فى محالفتهم وكان يمنى النفس بأن يأتوا إليه يوما يقدمون له ولاءهم ، ولكنهم لم يحفلوا به . وكيف يحفلون به وقد أنفوا أن يرسلوا الهدايا إلى الإسكندر بعد أن صار إلـٰها ؟ إنهم لن يخضعوا له عن رضى من أنفسهم بل يجب أن يرغمهم على ذلك إرغاما .

كان ملك أنطيغونس قد استفحل وعظم سلطانه واستقر فى أنطاكية ، وقد نفخ ذلك النجاح فى غروره فراح يحلم بأن يعد فى إسرائيل والسامرة وأرض النبط وفى كل أرض يستطيع أن يبسط عليها سلطانه من الممالك التى حوله

وراح الصناع يعملون ليل نهار ليصنعوا أصناما على صورته ، وبعث بالتماثيل إلى إسرائيل لتوضع بالهيكل فأبى اليهود أن يقبلوها ، فسار أنطيغونس إليهم وأثخن فيهم بالقتل والسبى ، وفر بعضهم إلى الجبال والبرارى فرجع واستخلف على بيت المقدس قائده .

قاوم اليهود وضع تماثيله فى الهيكل ، أفيقبل النبط أن يضعوها فى ذى الشرى واللات والعزى ورب البيت دون قتال ؟ واستدعى أنطيغونس صديقه أثينيوس وزوده بأربعة آلاف جندى من المشاة وستمائة فارس ، وأمره أن يسير إلى النبط ويدهمهم بليل على حين غرة ليجبرهم على التحالف معه وعبادته وتأييد مصالحه فى المنطقة .

وخرج أثينيوس من مقاطعة أدوم فى هجعة الليل وسار فى حذر شديد إلى البتراء وهاجم « الصخرة » فارتفعت أصوات تشق السكون ، وفى مثل لمح البصر أسكتت تلك الأصوات إلى الأبد . باغت أثينيوس الأطفال والنساء والعجزة والشيوخ بهجومه المفاجئ وراح يقتل كل من يقاومه ، ويسوق ما فى الصخرة من ماشية ويحمل الحبوب والتوابل والحرير وكل ما فى المخازن من طيب وفضة .

وأمر أثينيوس جنوده بالانسحاب سريعا قبل أن يفضحهم النهار ، فانسحبوا وقد ملأت الغبطة صدورهم وكانت الغنائم عظيمة أعظم مما كانوا يحلمون .

وانساب حملة أثينيوس فى الصحراء مزهوة بنصرها ، وانقضى يومان فأنهك التعب الرجال فنزلوا ليستريحوا فى معسكر أقاموه وقد سكروا بخمر النصر العظيم .

وجاء الليل وما كاد الرجال يستسلمون للذيذ الرقاد حتى أحاط النبط بالمعسكر إحاطة السور بالمعصم ، فقد فر أحد حراس « الصخرة » ليلة أن فاجأها أثينيوس وجنوده وانطلق إلى الأسواق ينبئ رجال النبط بما لحق بأهلهم ، فخرجوا يطيرون فى مسالك الصحراء السرية كأنهم النسور يطلبون أنطيغونس والذين معه .

وراح النبط يُعملون السيوف فى النيام ، غدر بغدر ، فسالت الدماء ودب الذعر فى العسكر ، وخف رجال أنطيغونس إلى خيولهم يريدون النجاة ولكن أين المفر ؟ وسيوف النبط تحصدهم حصدا .

وتمكن أثينيوس وخمسون من رجاله أن يلوذوا بالفرار ، ليقصوا على أنطيغونس كيف روت دماء جنوده الصحراء وتركت أجسادهم لجوارح

الطير وقيظ البيداء .

كان النبط تجارا فكانوا أهل دهاء ، فلما قضوا على جنود أثينيوس كانوا على ثقة من أنه ما تحرك إلا بأمر أنطيغونس ، ولكن السياسة الرشيدة أملت عليهم أن يشكوا إلى أنطيغونس ما فعله بهم صديقه كأن الأمر لم يكن بأمره ومن تدبيره .

وخرج رسل النبط من البتراء يحملون رسالة من ملكهم إلى أنطيغونس كتبت بالأبجدية السريانية ، أبجدية التجارة والمكاتبات بين ملوك المنطقة ، لاموا فيها غدر أثينيوس بهم واعتذروا فيها عما بدر منهم ، وقد حمّلوا صاحبه وزر صنعه .

وفى قصر الملك فى أنطاكية قابل أنطيغونس رسل النبط وأكرم وفادتهم وقال :

— إن ما حدث لم يكن بعلمى ورضاى ، عمل أثينيوس برأيه مخالف أمرى وإنى أحمله وزر ما فعل ، وأرجو أن ننسى ما حدث وأن تسود بيننا العلاقات الطيبة .

ولم يكن أنطيغونس صادقا فى التعبير عن حقيقة مشاعره فقد كان يمقت أن تتاخم حدود مملكته دولة قوية لها مطامع وأحلام ، وكان يريد أن يخدرهم إلى حين حتى يرى أمره .

وحان الحين الذى رأى أنطيغونس أنه أنسب وقت لتسديد طعنة نجلاء إلى قلب النبط ، فاستدعى ابنه ديمتريوس وأمده بقوة قوامها أربعة آلاف مسلح من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وأمره أن ينطلق ليجهز على النبط ويريحه من هؤلاء العرب الذين يزاحمون النفوذ الإغريقى فى المنطقة .

وسمع النبط بخروج حملة ديمتريوس فوضعوا أموالهم فى حصون يصعب

الوصول إليها ووضعوا عليها حراسة كافية ، وسلكوا دروبا تفضي بهم إلى الصحراء إلى حيث آبارهم السرية حيث يشربون ولا يشرب من يقتفي أثرهم .

وبلغ ديمتريوس « الصخرة » فصدم بأن البط خرجوا وحملوا معهم كل غال ونفيس وأغلقوا الحصون على ما لم يحملوه معهم ، فاشتد حنقه وشن هجوما قاسيا على « الصخرة » لينفس عن الغضب الذى يوغر صدره ، ولكن هجماته تكسرت تكسر الموج على الشاطئ قبل أن تجد لها منفذا فى صفوف العرب البواسل الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم دفاع الليوث الكواسر .

وعضــ ديمتريوس عضب الخيل على اللجم ، فراح يصرخ فى جنوده ويأمرهم بتشديد الهجوم ، ولكن جنود الإغريق عجزوا عن فتح ثغرة فى صفوف الذين يقاتلون صفا كأنهم بنيان مرصوص .

وأخيرا رأى المدافعون أن يبعثوا لديمتريوس ببعض الهدايا إرضاء لغروره حتى يرجع عن ذلك الإصرار العنيد فى قتاله ففعلوا ، وتقبل ديمتريوس الهدايا ورفع الحصار عن « الصخرة » وهو يكاد ينفجر من الغيظ ، بعد أن امتنعت عليه المدينة وعاد إلى أبيه أنطيغونس يجر أذيال الخيبة .

١٤

نشبت العداوة بين خلفاء الإسكندر وبين العرب ، فإن بعث أنطيغونس خليفة الإسكندر على سورية بحملة إلى « الصخرة » ليقضي على نفوذ النبط الذى كان خطرا على ملكه ، فقد ضاق البطالسة خلفاء الإسكندر على مصر بنفوذ العرب التجارى فى البر والبحر .

وأخذت قبائل العدنانيين تنتشر من تهامة على ساحل البحر الأحمر إلى بادية الشام وبادية العراق ، وراحت تمد ممالك بنى إسماعيل بدم فتى جديد ، فقد خرج أبناء معد من نزاريين وقصاعيين وإياديين ومضريين من مكة ليلحقوا بالنبط فى البتراء وطور سيناء ودومة الجندل والحيرة ، وليتفسحوا على الخليج الفارسى فى عمان والبحرين والأحساء .

كانت أساطيل النبط تجوب البحر الأحمر تنقل التوابل والبخور من بلاد بونت إلى مصر وإلى ميناء النبط ومنه إلى البتراء . ولقد كانت البتراء ملتقى أهم الطرق البرية فى المنطقة ، إليها يصل طريق اليمن والعربية الجنوبية الموازى للبحر الأحمر . ومنها يتفرع الطريق إلى مصر والشام وغزة والمدن الفينيقية على البحر المتوسط ، ويخرج منها طريق آخر إلى الخليج الفارسى ، فكانت فى يد النبط تجارة الهند وما وراء الهند وحاصلات إيران والعربية الشرقية ، بل وتجارة الشام ومصر .

أنشأ البشر تلك الطريق لنقل خيرات شعوب إلى شعوب أخرى لرفاهية الإنسانية ، ولكن تلك الطرق يسرت نقل الجيوش فاستغلها الطامعون فى

بسط سلطانهم على جيرانهم وسلب ما من الله عليهم من خيرات . فراحت جيوش الآشوريين والبابليين والمصريين والإغريق والعرب تنطلق فى تلك الدروب بحثا عن الصيد البشرى ومجد الملوك ونهب ما فى حرائن الدول !

وكان اليمنيون بحارة مهرة شاركوا النبط فى نشاطهم التجارى فى البحر الأحمر ، معرف دلك البحر فى تلك الحقبة ببحر العرب وخليج العرب . ولا غرو فقد كانت سفن عرب الشمال وعرب الجنوب فى غدو ورواح بين موانيه تنقل السلع وحضارات الشعوب المسيطرة على مصائر المنطقة .

وورثت البتراء ما فى صحف إبراهيم من حكمة وما فى حضارة الفراعين من ثقافة وعلوم البابليين وفلسفة أفلاطون وأرسطو ، فأخذت اللغة العربية تتطور وتزدهر وترتقى لتليق بأن تصبح لغة القرآن .

وكان النبط قد جمعوا من التجارة ثروة عظيمة جعلت ملوك الإغريق فى الشام ومصر وفارس من سلوقيين وبطالسة وأشكانيين يطمعون فى بلادهم ، فاضطروا إلى تكوين جيش قوى لحماية القوافل التى كانت تسرى كالشرايين فى ممالك الشرق الأوسط التى كانت تحت حكم خلفاء الإسكندر .

وبدأت سفن البطالسة تزاحم سفن النبط فى بحر العرب لما قرر بطليموس الثانى أن تحمل تجارة مصر على سفن مصرية ، وكان جل من يعمل بها من اليونانيين الذين جاءوا إلى مصر فى أثر الغزو الإفريقى ، واشتدت المنافسة بين أساطيل البطالسة وأساطيل العرب من نبط ويمن . وأدت المنافسة إلى الاحتكاك بين الطرفين ، ومن ثم إلى هجوم من العرب على سفن البطالسة التى جاءت تنتزع منهم مناطق نفوذهم .

واضطر بطليموس الثانى إلى إنشاء قوة بحرية لحماية سفنه التجارية ، وقد نشبت معارك بين تلك القوة وقوات العرب البحرية للسيطرة على تجارة

المناطق الحارة والتوابل والبخور . وقد شارك العدنانيون من نراريين وقضاعيين وإياديين ومضريين إخوانهم النبط فى تلك المعارك ، وكانت قلوبهم وعواطفهم معهم فقد كانوا على يقين من أن الكساد سيسود جزيرة العرب شمالها وجنوبها وشرقها وغربها لو نجح البطالسة فى السيطرة على تجارة بحر العرب .

ودارت معارك قاسية بين سفن العرب والسفن الإغريقية . وظهرت القوة البحرية الإغريقية التى كانت تحرس سفن مصر التجارية وأنزلت بسفن العرب خسائر فادحة ، فانكمش العرب يرصدون الأحداث ويرقبون فرصتهم .

وانشغل بطليموس الثانى بمحاربة سلوقيى سورية ، فقد كان يطمع فى أن يوحد مصر وسورية تحت رايته ، فانتهز العرب هذه السانحة ووثب بحارتهم على سفن البطالسة مرة أخرى ولكنهم عجزوا عن أن يقضوا عليها ، فقد نجح البطالسة فى تطوير سفنهم وفى حمايتها بأساطيل حربية ، فصارت لهم السيادة فى البحر الأحمر .

وابتنى بطليموس فيلادلفوس مدينة برنيس على خليج العقبة لحماية التجارة والسفن ، وراح البطالسة يضعون الحاميات اليونانية فى جزيرة العرب على طول ساحل البحر الأحمر ، ليسيطر اليونان على البحر والطريق البرى .

وأصيبت التجارة العربية بضربة قاصمة بعد أن نافس البطالسة العرب فى تجارة مصر والشام وإفريقية والهند ، وشاركوا تجارة الجزيرة العربية فى الأرباح الطائلة التى كانت تحمل إلى البتراء ويثرب ومكة ومأرب ومدن القوافل فى العربية السعيدة وفى اليمن .

كان تجار العرب وحدهم فى الميدان قبل أن يذوقوا مرارة منافسة البطالسة ، فكانوا يفرضون ما يشاءون من أسعار ويحصلون على ما يريدون ،

ما دام لم يكن لهم منافس فى الأسواق التى كانوا يحتكرون تجارتها ، أما وقد قام البطالسة فى منافستهم فى تلك الأسواق فقد انهارت الأسعار وانكمشت الأرباح ، لما حدد سلوقيو الشام وبطالسة مصر أسعار السلع التى يحملها العرب وفرضوا عليها ضرائب باهظة لمصلحة خزائنهم ، وبذلك تحكموا فى أسعار التجارة العالمية وحرموا تجار الجزيرة العربية وسادتها من ملوك تجار وأسر أرستقراطية ربحا كان عظيما ، وقطعوا سبيل تدفق الذهب والفضة إلى الخزائن التى كانت عامرة بالعملات اليونانية والمصرية والفارسية والهندية .

ونزل الضيق بالناس ففزعوا إلى آلهتهم يتضرعون إليها أن ترفع عنهم تلك الغمة ، فانطلق أهل البتراء إلى معبد ذى الشرى يسوقون الذبائح ويبتهلون إليه فى حرارة ويسألونه فى رجاء أن يبدل عسرهم يسرا ، وراحوا يطوفون على معابد العزى ورب البيت واللات ومونتى والآلهة الأخرى يذبحون الذبائح ويحرقون البخور ويستغرقون فى الصلوات والابتهالات لعل الأرباب ترضى .

وراح الرجال والنساء فى ثمود يقدمون الولاء والخضوع لهبل العظيم ومناف واللات ولبنات الإله ويلتمسون منهن الشفاعة ويذبحون الذبائح ويعفرون الجباه بالسجود ، فقد كانوا يطمعون فيما عند الآلهة من خيرات وفى أن يعود إليهم ما كانوا فيه من نعيم .

وعجت معابد البتراء ومدائن صالح ويثرب ونجران ومأرب وصنعاء بالطائفين بأصنام الآلهة ، وشقت الدعوات أجواز الفضاء ، وارتفع البخور يعرج إلى السماء تقربا وزلفى لعل الآلهة ترضى فتمتع عبادها متاعا حسنا ، ويعود تدفق الذهب والفضة إلى الخزائن التى أوشكت أن تنضب من الأموال .

وطاف أهل مكة بالبيت العتيق وكان جوهر الدين الخالد الذى جاء به

إبراهيم لايزال نقيا ، فراحوا يدعون الله دون أن يشركوا به أحدا ، ووقفوا أمام باب الكعبة يسألونه أن يرزقهم من السماء ومن الأرض وأن يكشف ما بهم من ضر وأن يهديهم سواء السبيل .

كان أهل مكة يحدون فى رحاب بيت الله الأمن والملاذ من عاصفة الصراع السياسى ، وكانوا يرون مولد الحضارات من حولهم وضياعها دون أن يخشوا أن يأتى يوم يرون فيه خسوف حضارتهم ، فقد كانوا فى قرارة نفوسهم مؤمنين بأن حضارتهم خالدة ما داموا يعتقدون فى خلود الروح والحياة الأخرى .

قال نساك مضر وصالحو إياد إن النبط والثموديين واليمنيين باعوا بعضب من الله لأنهم جعلوا لله شركاء ، إن الله برىء من المشركين .

١٥

. نقل اليونانيون إلى أثينا آلهة الشعوب التى تعيش إلى جوارها لتصبح آلهة إغريقية فى جبل الأولمب . فاستوردوا من مصر أزريس ليصبح الإلـه للإغريقى ديونيسيس ، وإيزيس لتصبح أفروديت ، وجلبوا من سورية الإلهة عنت لتصير أنارجانيس ، ومزجوا بين أهورا مزدا إله الفرس وآمون إله الهواء والباطن وجعلوهما ريوس ، وأخذوا عشتار البابلية إلهة الشهوة والزواج والحب وجعلوها فينوس .

واعتقد اليونانيون أن آلهتهم على هيئتهم البشرية فراحوا ينحتون تماثيل للآلهة فى صور رجال ونساء ، وأقاموا بين هؤلاء الآلهة وبين القدر حروبا يشيب من هولها الوليد ، وامتزج الدين بالفن ، وسخر الفن كما سخر فى مصر الفرعونية لخدمة الآلهة .

وجاء عصر الفلاسفة اليونانيين فنشب الصراع بين الفلسفة والدين ، وعلى الرغم من أن بلاد اليونان كانت تبدو فى قمة مجدها فقد كان ذلك الصراع هو الخنجر الذى انتحرت به من قبل أن تتحرك روما لغزوها وضمها إلى ممتلكاتها .

وفى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه الحرب بين الدين والفلسفة فى اليونان كانت تتكون فى إيطاليا دولة رومانية متدينة تعيش بالدين وللدين ؛ فقد كان الطفل الرومانى يشب فى عالم تحقق فى جنباته الروح ، فهو يلقن منذ نعومة أظفاره أن نار الموقد التى لا تخمد ليست إلا رمز الإلهة فستا ومادتها ،

وأنها هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها . وأن الإله يانوس يحوم حول وصيد الباب وإن كانت الأعين لا تراه ، وهو ذو وجهين يرقب الداخلين من كل باب والخارجين منه ، وأن الأب رب والأم رب من الأرباب .

وإذا ما شب الطفل الروماني تعلم أن « كوبا » تحرسه وهو نائم و « إيبونا » تهديه سواء السبيل ، و « فيليتا » تعلمه الكلام ؛ وأن الأرض إلٰهة وأن للبساتين إلٰها وللماشية إلٰها وللزرع إلٰها . وكان الكهنة يخرجون في شهر مايو من كل عام في موكب غنائي إلى المزارع يطوقون الحجارة بتيجان من الزهر ، ويرشون عليها دماء الأضاحي ، ويبتهلون إلى الأرض ويدعونها أن تخرج الفاكهة الموفورة .

كان الرومانيون يعيشون في دنيا تموج بالآلهة ولم يعرفوا الله الواحد القهار ، وكان الشرك بالله طابع ذلك العصر ، ففي أرض النبط في بلاد أحفاد إسماعيل ورثة التوحيد أشركوا بالله آلهة استوردوها من مصر وثمود وبابل وسورية ، فعبدوا ذو الشرى واللات وهبل ومونس والعزى ورب البيت مع الله الأحد .

وفسد الدين اليهودي في أورشليم ، فقد أشرك بنو إسرائيل بالله وعبدوا بعلا والعجل وآلهة الوثنيين ، وفسد دين زرادشت في فارس فقد فعل الفرس بالأوستا كتاب زرادشت المقدس ما فعله اليهود بتوراة الله ، فأصبح هناك اختلاف بيِّن بين الأوستا القديمة والأوستا الحديثة ، فقد عادت آلهة الفرس الشعبية لتظهر مرة أخرى في دين التوحيد لتشوب نصاعته ، ولترتد به إلى الشرك البغيض .

وشارك ميثرا إله الفرس القديم أهورا مزدا الإله الحكيم في العبادة ،

ووضعت أدعية لميثرا رب الميثاق ورب النور ، وظهرت مرة أخرى أتاهيتا إلٰهة الماء والخصب ، وتعددت الآلهة فصار للفرس آلهة للنصر وآلهة للنار ، وآلهة لحماية الملوك .

وانتشر الشرك بالله في روما وأثينا ومنف وأورشليم والبتراء ودمشق وبابل ونينوى واصطخر ، وأما في مكة فقد ظل جوهر الدين نقيا وبقيت عبادة الله وحده منذ أن بذر إبراهيم الخليل بذرة التوحيد في المجتمع الذى تكون حول بئر زمزم ، وبقيت الحصة المؤمنة من بنى إسماعيل التى لاذت بالبيت على دين الآباء لم تشرك بالله . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

كل ما كان فى مكة من نزاع كان حول ولاية بيت الله وقد قامت المنافسة حول هذا الشرف العظيم بين بنى إياد وبنى مضر ، فإن كان إلياس بن مضر قد زهد فى زخرف الدنيا وأعرض عن إغراء المنصب وأسلم وجهه لله وأخذ يحجز الإياديين والمضريين عن أن يمتشقوا الحسام فى سبيل ذلك الشرف ، ويؤلف بين قلوب الإياديين والقضاعيين والمضريين ، وإن كان مدركة بن إلياس قد سار فى نفس السبيل الذى اختاره أبوه وأسلس القياد لوكيع ، وإن كانت أيام خزيمة قد انقضت فى سلام ، فإن أسد بن خزيمة بن مدركة طمع فى ولاية البيت ، ولم يجد غضاضة فى امتشاق الحسام لانتزاع ذلك الشرف للمضريين .

كان كنانة بن خزيمة وإخوته أسد بن خزيمة وأسدة بن خزيمة والهون بن خزيمة أشراف مضر وساداتها ، وقد كثرت مضر حتى صارت شعبا تملأ مواشيه بطاح مكة وتجوب قوافله الآفاق ثم تعود إلى الحرم تحمل الغنى والأرزاق .

وكان خزيمة يخرج على رأس قوافل مضر ، وكانت الصلة بينه وبين النبط وثيقة ، فما نسى أبناء عدنان يوما أنهم من النبط بل من أشرافهم وساداتهم ، وبقيت وشائج القربى متصلة بين أبناء عدنان وملوك البتراء . وكانت القوافل فى غدو ورواح بين مكة والبتراء تحمل البخور والتوابل ، وتخرج قوافل مكة مع قوافل النبط إلى بصرى ودمشق وتدمر وبابل وبلاد الفرس ووادى النيل ، وقد استخدم المكيون العملة التى ضربها ملوك النبط وكانت كعملة اليونان والرومان والفراعنة وملوك بابل والفرس سواء بسواء .

ومات خزيمة ونهض كنانة بن خزيمة بتجارة المضريين ، فكان يخرج على رأس القوافل ويرى معابد الشرك فى البتراء وفى بصرى ودمشق وأورشليم ، فكان يحمد الله أن ظل جوهر دين إبراهيم نقيا . فقد تألق الإسلام حول البيت المحرم بينا تداعى فى أرض النبط أرض يهوذا وإسرائيل ودمشق ، فقد كان الإسلام ملة إبراهيم بعيدا عن أهواء النظم السياسية التى تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافى مبادئها .

وكان بقاء جوهر دين إبراهيم نقيا فى مكة انتصارا روحيا للعقيدة السمحة ، فقد حلت الكوارث بديانات الأقوام التى سعت إلى تحقيق غايات سياسية على حساب الدين من نبط ويهود وآراميين وفرس .

واستقر أسد بن خزيمة فى مكة يرقب أحداثها ويعبئ المضريين للحدث الكبير ، فقد كان يرى الوهن يدب فى الإياديين وقد تعشت المظالم فيهم ، فراح يناوشهم ويزلزل حكمهم ويرصد الفرصة المواتية ليقضى على سلطانهم . وسرعان ما واتته فرصة ، فقد خرج رجل من إياد ورجل من مضر يصيدان فمرت بهما أرنب ، فاكتنفا بها يرميانها ، فرماها الإيادى فزل سهمه فنظم قلب المضرى فقتله .

وبلغ الخبر المضريين فخرجوا إلى الإياديين ثائرين يطلبون دم صاحبهم ، قال الإياديون :

— وإنما أخطأه .

وارتفعت أصوات الاستنكار وأبى المضريون أن يصدقوا أنه أخطأ صاحبهم وهموا بقتله ، فهب الإياديون للدفاع عن صاحبهم . وتناوش القوم وسرعان ما انقلب الأمر إلى مجالدة بين المضريين والإياديين. واشتد القتال فظهر المضريون على أبناء عمومتهم ، وقال المضريون :

— اخرجوا من الحرم .

— أجِّلُونا ثلاثا فلن نغصبكم أرضكم .

وبعد ثلاثة أيام خرج رجال إياد ونساؤها من الحرم وانطلقوا ليلحقوا ببنى إسماعيل فى أرض النبط وفى العراق ، فقد كانت الحيرة ترحب بالعرب الوافدين إليها لتشد بهم أزرها وتوطد أركان ملكها .

وصار أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس حازن الكعبة وسيد أشراف مكة ، وصار أخوه كنانة بن خزيمة أمين قوافل مصر التى تجوب مشارق الأرض ومغاربها . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

قل اللهم مالك المُلك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير .

١٦

كانت المدينة البيضاء تموج بالناس وبالقوافل التى تغدو وتروح بينها وبين البتراء ، فقد كانت المدينة البيضاء ميناء النبط ، فكانت السفن الراسية عند شواطئها المطلة على البحر الأحمر تفرغ بضائع مصر وتحمل التوابل والبخور الآتية من بلاد بونت وخيرات الشام والعراق وفارس والهند ، فقد كانت أهم الموانى التجارية على ساحل الحجاز .

كانت القوافل صاعدة هابطة بين البتراء وميناء المدينة البيضاء ، وكانت كثيفة كأنها قطع من الجيوش تقوم بنقل السلع والأموال . وكانت السفن تمخر عباب البحر الأحمر ثم تنساب فى القناة المحفورة بين البحر ونهر النيل لتتخذ طريقها إلى موانى البحر الأبيض ، بينما كانت القوافل تمخر عباب الصحراء ثم تنطلق إلى البتراء لتتدفق منها السلع إلى ما حولها من أسواق تدفق الدم من القلب إلى الشرايين .

وكان هرثمة الأول ملك النبط يستقبل وفود الدول المجاورة فى قصره ، وكان قصرا محصنا نحت فى الجبال يطل على وادى العربة وجبل هارون ، وكانت غاية آمال هرثمة أن يعيش شعبه فى سلام ، فهم قوم يمارسون التجارة واستتباب الأمور فى المنطقة يحقق لهم الاستقرار الذى تزدهر فيه تجارتهم ، أما الاضطرابات والمناوشات والحروب فتعود عليهم بالخسران والشر الطويل .

ولم يتحقق حلم هرثمة الأول ، فما عرفت المنطقة الهدوء مذ ناصب البطالمة فى مصر وخلفاء الإسكندر فى سورية النبط العداء . وقد أثر ذلك العداء على العرب جميعا عرب الشمال وعرب الجنوب على السواء ، ضاق به ملوك النبط وولاة البيت بمكة وملوك اليمن وشيوخ العرب المنتشرون فى الجزيرة فى كل مكان ، فقد كان كساد البتراء ينعكس على يثرب ومكة

ومأرب وصرواح وصنعاء وكل مدن القوافل ، وكان ازدهار التجارة فيها يجعل مدن الجزيرة جميعا تزدهر ازدهار الصحراء بالنوار .

وراح هرثمة الأول يتلفت حوله وبين الدول بعقليته التجارية الحاسبة ، فوجد أن دولة فتية تتكون فى روما ، دولة ترى أن من الخطر أن تترك الحضارة تبتعد كثيرا عن الوحشية ، فكان رجالها يتبارون فى رمى القرص والحربة والقفز من فوق الأعمدة والسباق والمصارعة والملاكمة والمجالدة ورفع الأثقال والرقص ، دولة تهتم بجيشها وتقسمه إلى فرق المشاة الثقيلة وتسلح كل جندى فيها بحربتين وخنجر وسيف وتلبسه خوذة من البرونز ودرعا من الزرد ، وإلى فرسان مزودين بالرماح والسيوف . وإن دولة حربية هذا شأنها لن تقنع بأن تقبع داخل حدودها .

كانت الإمبراطورية الرومانية آخذة فى النمو ، فقد انتصرت أخيرا على هانيبال القائد العربى الذى خرج من قرطاجنة ليستولى على إيطاليا ، وهزمت ذلك الجبار الذى اجتاز جبال الألب ، وانطلق يخضع المدن الإيطالية ، ولكن لا تمنح الآلهة كل مواهبها لرجل واحد ، فقد كان هانيبال يعرف كيف ينال النصر ولا يعرف كيف ينتفع به .

فطن هرثمة الأول إلى أن الرومان الذين استعادوا أسبانيا من القرطاجيين العرب هم الشمس التى ستشرق على العالم ، وأن شمس الإغريق أوشكت على الزوال ، فأسرع بالتحالف مع روما وقد شجعه على ذلك أن حكام الإغريق من بطالسة وسلوقيين أظهروا العداء للعرب بطيين ويمنيين على السواء .

وكانت علاقة النبط بالمكابيين اليهود فى فلسطين طيبة ، بل كانت علاقتهم باليهود منذ أن فروا من اضطهاد بختنصر إلى جزيرة العرب علاقة حسنة ، وقد تأثر هؤلاء اليهود بعادات العرب وتقاليدهم حتى بدوا كأنهم كانوا بطنا من

بطونهم .

وكان بنو إسرائيل منذ أن أعادهم قورش من أرض السبى إلى فلسطين فى شقاق شديد ، فقد قام النزاع بين العائدين من أرض السبى وفى جعبتهم أساطير البابليين وثقافتهم وبين من ظلوا فى فلسطين لم يبرحوا الأرض المقدسة ،وتجدد ذلك النزاع يوم أن عاد العزير إلى أورشليم فى ألف وخمسمائة ممن كانوا فى المنفى وفى يمينه التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى أرض السبى .

لم تعرف فلسطين الاستقرار يوما منذ أن أعاد قورش أسرى بنى إسرائيل إلى أورشليم ، فقد تجدد النزاع القديم بين إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب ، ونشب نزاع بين الوافدين بتوراة جديدة كتبت فى المنفى وبين من استقروا إلى جوار أطلال الهيكل يذرفون الدموع على المجد القديم .

وكان المكابيون قد انقسموا إلى ثلاث فرق : فرقة الفقهاء وأهل القياس وهم الربانيون وكانوا يسمون الفريسيين ، وفرقة الظاهرية المتعمقين بظواهر الألفاظ من التوراة وهم القراءون وكانوا يسمون الصدوقيين ، وفرقة العباد المنقطعين إلى العبادة والتسبيح والزهاد وكانوا يسمون الحيسديم .

واشتد الجدل بين أحبار اليهود وكهانهم يوم أن اختار بطليموس الثانى سبعين من أحبار اليهود وعلمائهم واستضافهم فى مصر ووكل إليهم ترجمة كتب اليهود الأربعة والعشرين سفرا فى من العبرية إلى اليونانية ، فنشأت التوراة السبعينية ، وازداد اليهود فرقة على فرقة وبدا أن إسرائيل كانت تنتحر بيدها قبل أن يقضى عليها واحد خارجى .

عاد الأحبار السبعون من مصر إلى أورشليم يحملون مائدة من الذهب نقشت عليها صورة أرض مصر والنيل وقد رصعها بطليموس بالجواهر والفصوص لتوضع فى الهيكل ، وبعث معهم من كان بمصر من سبى اليهود

وكانوا نحو من مائة ألف ، فقام نزاع بين الوافدين من أرض مصر وسكان بيت المقدس ، ودب الشقاق بين الشباب والشباب ، وبين الفقهاء وأهل القياس وفرق الظاهرية وبين الأحبار السبعين الدين قاموا بترجمة توراة اليهود إلى اليونانية . بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وقام فى يهوذا نزاع على منصب الكاهن الأعظم بين ياسون وأخيه أونياس . وعلى الرغم من أن اليهود كانوا يعتقدون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أنهم لا يرتقون إلى درجة بنى إسرائيل ، فقد كانوا يلودون بالنبط ويلتمسون عونهم .

كان ياسون من المعجبين بالثقافة اليونانية والمتأثرين بها ، فكان لدلك يعارض التحالف مع روما الدولة الفتية التى تطمع فى أن تبسط سلطانها على الأرض وتنزع من اليونان مجدها ، وكان يعلم أن الحارث الأول بمقت الإعريق واليونان فقد حاولوا مرارا أن يسترقوا بلاده وأن يسوا نساء شعبه وأطفالهم وأنه من أنصار التحالف مع الرومان . وعلى الرغم من دلك فر ياسون إلى البتراء لما انتصر عليه أخوه أونياس .

ولم يرحب هرثمة الأول بياسون ولم يدعه يستقر بأرضه بل طرده شر طردة ، فراح يفر من مدينة إلى مدينة والجميع ينبذونه ويبغضونه بغض من ارتد عن الشريعة ويمقتونه مقت من خان أهله ، واستمر فى فراره حتى ارتد إلى مصر مذموما مدحورا .

وانتقل أمر اليهود إلى يهودا المكابى ، ولم يكن من المعجبين باليونان فثار عليها وأيده هرثمة الأول فى ثورته ، فقد كان أمل هرثمة أن يتقلص ظل اليونان عن بلاد العرب بعد أن انتشرت الجاليات اليونانية هنا وهناك على شاطئ البحر

الأحمر وفى فلسطين وسورية ، وقد كانت تلك الجاليات تنافس النبط منافسة شديدة فى التجارة وتزاحمهم السلطان فى المنطقة .

ودخل يهودا القدس فهدم كل ما بناه أنطيغوس من المذابح وأزال ما نصبه من الأصنام وطهر الهيكل وبنى مذبحا جديدا للقربان ، واتخذ اليهود ذلك عيدا سموه عيد العساكر .

وعاد أنطيغونس الثانى يتطلع إلى إخضاع فلسطين فبعث جيشا لتأديب يهودا المكابى والاستيلاء على إسرائيل ، فخرج يهوذا للقتال وقد حلف وراءه مغتصبه فما اتحدت كلمة اليهود يوما ، وانتهز شملاوش عدو يهوذا اللدود الفرصة فسار إلى أنطيغوس وراح يكشف له مواضع الضعف فى جيش اليهود .

ودار قتال مرير بين أنصار يهودا المكابى وبين اليونانيين الذين أسسوا ملكهم فى أنطاكية . ولما كان لشملاوش أنصار فى أرض يهودا فقد خذل هؤلاء الأنصار يهودا المكابى ، وظهر جيش اليونان على عدوهم فقتل كثير من اليهود ، ولاذ يهودا المكابى ويوناثان أخوه بأذيال الفرار وعبرا نهر الأردن وسارا ثلاثة أيام فى الصحراء حتى التقيا بالنبط فقابلوهما بالترحاب ، وراح يهودا ويوناثان يقصان على النبط ما أصاب اليهود فى أرض جلعاد من أهوال .

كان النبط فى وئام مع المكابيين فى حين لم يكن إخوانهم العرب فى كل مكان على وفاق معهم ، فما كانوا يأمنون جانبهم بل كانوا يخشون غدرهم ، فكانوا يحاربون يهودا المكابى والذين معه ليستأصلوا شوكتهم قبل أن يغدروا بهم .

وكان العرب يعجبون من غفلة هرثمة الأول ملك إخوانهم النبط

ويتساءلون فى دهش : كيف يبدى الود للمكابيين ويركن إليهم ، بينما كان كل من له عيان فى المنطقة يرى أن المكابيين يطمعون فى دولته ويرصدون الأحداث ليثبوا وثبتهم إذا ما أسلست الأمور لهم قيادها .

وفى ذلك الوقت الذى كثرت فيه الفتن وشبت المنازعات وسادت الفوضى سورية وفلسطين وأسالت الأطماع لعاب الشعوب ليأكل بعضها بعضا ، خرجت الفيالق الرومانية من حدود بلادها لتنتشر فى الأرض وليرفرف النسر الرومانى على الشرق والغرب .

١٧

انقسمت إسرائيل بعد موت سليمان إلى إسرائيل واليهودية ونشبت العداوة بين الشمال والجنوب منذ ذلك الوقت ، ثم عادت وانقسمت إلى فريسيين وصدوقيين وحيسيديم وتفرقت أحزابا وشيعا وقام التنافس بين الإخوة على منصب الكاهن الأعظم ، فنشبت المعارك بين اليهود واليهود . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .

وراحت إسرائيل تنحر بأيدى أبنائها ، فالشقاق بين الأحزاب قد أنهك قواها وأدمى فؤادها ، إنها لا تواجه الموت على يد قاتل فما تحرك أحد بعد من خارج حدودها ليكتم أنفاسها ، بل كانت تقضى على حياتها بأيديها .

وقتت قبيلة عربية يوحنا المكابى ، فقد كان العرب يخشون غدر اليهود ويعجبون لسذاجة ملوك النبط الذين كانوا يعاونون المكابيين على توطيد سلطانهم فى فلسطين ، وقد تولى أمر اليهود من بعده أخوه يوناثان فبعث إلى هرثمة الثانى ملك النبط ليطلب منه الحماية والتأييد .

وهلك يوناثان أخو يهوذا المكابى فقام بأمر اليهود أخوهما الثالث شمعون ، فاجتمع إليه اليهود من كل ناحية وعظمت عساكره وتأهب ليصد هجوم الرومان الذين استولوا على أنطاكية إذا ما فكروا فى الزحف إلى الجنوب ليضعوا أيديهم على بيت المقدس ، ولكن الطعنة لم تأت من الخارج بل جاءت من الداخل .

وثب عليه صهره زوج أخته فقتله وقضى على بنيه وامرأته ، وهرب ابنه

الأكبر هركانوس بن شمعون إلى غزة فامتنع بها ، وجاء إليه المكابيون ونادوا به ملكا على إسرائيل ، وسار هركانوس بن شمعون على رأس جيشه حتى دخل أورشليم .

وبعث هركانوس رسله إلى روما فاجتمعوا بمجلس شيوخها وأبرموا معاهدة صداقة بين إسرائيل والرومان المتطلعين إلى السيطرة على العالم ، وقد أنعمت روما على هركانوس بلقب ملك اليهود بعد أن كان من سلف قبله من آبائه يسمى بالكوهن .

كان هركانوس وآباؤه من الفريسيين الربانيين أهل القياس ، فجمع قومه ذات يوم وقال لهم :

ـــ أريد منكم النصيحة .

فطمع بعض الربانيين فيه وقال :

ـــ إن النصيحة أن تنزل عن الكهونة وتقتصر على الملك ، وقد فاتك شرطها لأن أمك كانت سبية من أيام أنطيغونس .

فغضب لذلك وقال للربانيين :

ـــ قد حكمتكم في صاحبكم .

كان ينتظر منهم أن يقتلوه بعد أن أهان جلالته على الملأ وطعن في صلاحيته في أن يكون الكاهن الأعظم لليهود ، ولكنهم أحنوا في تأديبه بالضرب فحقد على الربانيين وتنمر لهم وأراد أن يباعد بينه وبينهم ،ففارق مذهبهم إلى مذهب القرائين .

ونشأت الفتنة بين هاتين الطائفتين من اليهود واتصلت بينهم الحرب ، وقتل هركانوس من الربانيين خلقا كثيرا انتقاما لكرامته التي أهدرها فريسى على أعين الناس .

دب الانحلال فى نفوس حكام اليهود فراحوا يثيرون الفتن بين الطوائف اليهودية ، وقلدوا اليونانيين فى حياتهم وتشبهوا بهم وسموا أبناءهم بأسماء قواد الإغريق .

وهلك هركانوس وملك من بعده ابنه أرستوبولوس ، وكان له أخوان هما أنطيغونس والإسكندر ، وكان أرستوبولوس يحب أخاه أنطيغوس ويبغض الإسكندر ، فقبض على الإسكندر وأمه واستخلص أنطيغونس وقدمه على العساكر واكتفى به فى الحروب .

وترفع أرستوبولوس عن تاج الكهونة ولبس تاج الملك ، ونفست البطانة مكانة أنطيغوس عند أخيه فكثرت السعاية فيه ، فلما قدم أنطيغوس من غزوة كان يغزوها وكان ذلك فى عيد المظال، وكان أخوه ملتزما بيته لمرض طرقه، فذهب إلى الهيكل للتبرك .

فجاء السعاة إلى الملك يهمسون :

— إنه ما عدل عن بيتك إلى الهيكل إلا لاستمالة الكهونتية والعامة وأنه يروم قتلك ، وعلامة ذلك أنه جاء بسلاحه .

ونادى أرستوبولوس خدمه وحشمه وغلمان قصره وقال لهم :

— إن جاء أنطيغوس متسلحا فاقتلوه .

وجاء أنطيغوس فى سلاحه بعد أن تبرك بالهيكل ليزور أخاه ، فانقض عليه غلمان الملك وقتلوه . وبعد أن قال السيف كلمته علم أرستوبولوس أنه قد خدع فى أخيه فندم واغتم ولطم صدره حتى قذف الدم من فيه ، وأقام عليلا بعده حولا كاملا ثم هلك .

وجاء الشعب إلى حيث حبس الإسكندر وأخرجوه من محبسه ، بايعوا له بالملك ، فصار إسكندر جنيوس المكابى ملك اليهود ، وتلفت حوله فرأى أن

هرتمة الثانى ملك النبط قد هلك وتولى مكانه عبادة الأول ، وأن البطرا بن كليوباطرا ملكة مصر قد شق عصا الطاعة وثار على أمه واحتاز البحر بأعوانه ونزل قبرص . ولما كان الإسكندر جنيوس دا أطماع واسعة فقد فكر فى أن يستغل الاضطراب السائد فى المنطقة لمصلحته .

وحرح الإسكندر بجيوشه ليغدر بالنبط حلفاء الأمس ، فلاقاه عبادة الأول وهزمه ، واضطر الإسكندر أن يفر إلى القدس . ولم يقف عبادة الأول بل راح يجد فى أثر من قلبوا ظهر المجن لحلفائهم .

وساد الاضطراب صفوف اليهود ولم يجدوا بدًا من أن يستدعوا أحد السلوقيين السوريين لحكمهم والوقوف فى وجه الجيش النبطى ، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من حدود بيت المقدس .

وحاصر النبط المدينة ونقبوا أسوارها وكادوا أن يستولوا عليها ، فلم يجد الحاكم السلوقى الذى استعان به اليهود بدا من مصالحتهم ، وقد صالحهم على أن يتنازل لهم عن مؤاب وجلعاد ، ولم تعرف القدس الاستقرار حتى بعد أن رفع النبط عنها الحصار ، فقد جاء عيد المظال واجتمع الناس بالمسجد وحضر الإسكندر معهم ، فتلاعبوا بين يديه مراماة مما عندهم من مشموم ومأكول ، وأصاب الإسكندر رمية من الطعام رماها أحد الفريسيين ، فغضب لها وشتم الصدوقيون الفريسيين وشُتم الإسكندر ، ونشب القتال بين الربانيين والقرائين وسالت الدماء أنهارا .

وأمر الإسكندر بأن يبنى حائط يفصل المذبح والكهنة عن الناس ، واتصلت الفتنة بين اليهود ست سنين قتل فيها من الربانيين نحو من خمسين ألفا والإسكندر يعين القرائين عليهم .

ومات عبادة الأول ملك النبط وتولى الملك من بعده هرتمة الثالث ، فوجد

أن السوس قد نخر فى ملك السلوقيين ، وأنه إذا وثب على دمشق فسيطعمهم طعمة فى الصميم ويرث سلطانهم .

وخرج هرثمة الثالث فى جيوشه وقابل جيوش السلوقيين وهزمهم ، ثم اتخذ طريقه إلى دمشق وما لبثت العاصمة أن وقعت فى أيدى البط أحفاد نابت ابن إسماعيل ، وبذلك أصبحت هذه الدولة العربية محيطة بالأرض التى كان يسكنها المكابيون اليهود من جميع الجهات .

وأحس الإسكندر جيوس أنه أصبح فى قبضة البط فخرج بجيوشه لقائهم ، وعند الحديثة على مقربة من البد التقى جيش البط بجيش اليهود ودارت معركة انتهت بانتصار هرثمة الثالث والقضاء على جيش اليهود .

وأصيب الإسكندر إصابة قاتلة فاستدعى امرأته الإسكندرة وأوصاها بكتمان موته وأن تسير بشلوه إلى القدس فتدفنه فيه ، وتصانع الربانيين على ولدها فتملكه ، لأن العامة إليهم أميل .

ودفنت الإسكندرة زوجها فى القدس واستدعت من كان نافرا من الربانيين وجمعتهم وقدمتهم للشورى واستبدت بالملك .

وكان لها ابنان من الإسكندر اسم الأكبر منهما هركانوس والآخر ألاستوبولوس ، وكانا صغيرين عند موت أبيهما فلما كبرا عينت هركانوس للكهونة وقدمت أرستوبولوس على العساكر والحروب وضمت إليه الربانيين ، وقد سألها الربانيون فى الأخذ بثأرهم من القرائين فيمن قتله الإسكندر منهم برأيهم فأذنت لهم فى ذلك ، فقتلوا من القرائين خلقا كثيرا ، وجاء القراءون إلى ابنها الكهونت ينكرون ذلك وقالوا لهركانوس :

— إن أخاك أرستوبولوس أطلق يد الربانيين فينا وقد كنا شيعا لأبيه ، وإنه بفعله ذلك قد وسع هوة الخلاف بيننا وبين الربانيين ، فالتمس لنا من

الإسكندرة إذنها فى الخروج من القدس والبعد عن الربانيين .

فأذنت لهم الإسكندرة رغبة فى انقطاع الفتنة ، وخرج مع الصدوقيين وجوه العسكر ، وسرعان ما لفظت الإسكندرة أنفاسها .

وكان أنتيباطر أبو هيرود صديقا لهركانوس ، وكان من عظماء بنى إسرائيل من الذين عادوا مع العزير من بابل ، وكان ذا شجاعة وبأس وله يسار يقتنى الضياع والمواشى ، وقد تزوج من النبط فكان له من زوجته النبطية أربعة من الأبناء وهم فزائيل وهيرود وفرواوس ويوسف وبنت اسمها سالومى .

ولما شعر أرستوبولوس قائد العسكر بموت أمه الإسكندرة فكر فى أن يقتل أنتيباطر ليتخلص من مكره وليهيض جناح أخيه ولكن أنتيباطر أحس بالخطر فراغ من الشرك الذى نصبه له أرستوبولوس .

وضرب أرستوبولوس البوق إعلانا للحرب ، وزحف لحرب أخيه هركانوس والربانيين . والتقوا بالأردن وانهزم هركانوس والربانيون ودخلوا بيت المقدس فحاصرهم أرستوبولوس وعزم على هدم الحصن ، فخرج إليه أعيان اليهود والكهنوتية ساعين فى الصلح بينهما ، وأجاب أرستوبولوس على أن يكون ملكا ويبقى هركانوس على الكهنوتية ، فتم ذلك واستقر عليه الأمر غير أن أنتيباطر لم يرض عن ذلك ، فأخذ فى التدبير على أرستوبولوس وراح يبغض الناس فيه ويذكر لهم أن هركانوس أحق بالملك منه .

وراح يحذر هركانوس من أخيه ويوسوس له أنه يريد قتله ، ثم أشار عليه بالخروج إلى هرثمة ملك النبط من هزم السلوقيين ووضع يده على دمشق ، يستنصره على أخيه .

وانطلق هركانوس وأنتيباطر إلى البتراء وراحا يزينان لملك النبط حرب

أرستوبولوس ، فأخذ يراوغهما وأرادا أن يغرياه بالسير لقتال ملك اليهود فوعداه بالتنازل للنبط عن بعض الأرضين وعن المدن الاثنتى عشرة التى كان الإسكندر الأكبر قد استولى عليها يوم أن دخل فلسطين دخول الفاتحين .

وتزاحف النبط واليهود وفزع الكثير من عسكر أرستوبولـوس إلى هركانوس ، فرجع أرستوبولوس هاربا إلى القدس فانطلق هرثمة فى أثره .

اتصلت الحرب وطال الحصار ثم سقطت القدس فى يد هرثمة ، وما كاد يستقر بها حتى كان بومبيوس القائد الرومانى قد جاء بنفسه إلى سورية للإشراف على إخضاع جميع أجزائها .

وهرع الأخوان هركانوس وأرستوبولوس إلى بمبيوس وحمل كل منهما إليه هدايا أسالت لعابه وجعلته يفكر فى أن يبعث بجيوشه إلى فلسطين ليضع يده على كنوزها . راح هركانوس يسب أخاه ويكيل له التهم ثم أخذ أرستوبولوس يسب أخاه أشنع سباب وبمبيوس يصغى إلى صغيتهما مرة ويطلق لخياله العنان يفكر فى الاستيلاء على بيت المقدس مرات .

وأرسل بمبيوس جيشا رومانيا بقيادة سكورس ليغزو فلسطين فاستولى على بعض أجزائها ، وقبل أن يجتاز حدود أرض يهوذا أرسل إلى هرثمة ملك النبط يخيره بين البقاء فى القدس والدفاع عنها وعداوة الرومان وبين تركها وترك الدفاع عنها ومصادقة القائد ، فرأى هرثمة الارتحال عنها ومصادقة الرومان .

واحتل الرومان القدس وأرض يهوذا وسائر فلسطين ، وأمر بمبيوس بإلحاقها بالمقاطعة الرومانية السورية ونصب عليها سكورس حاكما ، وانتزع من يهوذا مدنا وقرى ألحقها بهذه المقاطعة ، وأصبحت مملكة يهوذا الصغيرة فى حماية الإمبراطورية الرومانية بعد أن أخذ أرستوبولوس وأكثر أفراد أسرته أسرى وبعث بهم إلى رومة ليسيروا فى موكب الأسرى الذين جيء بهم من

الشرق يوم الاحتفال الكبير بانتصار بومبيوس العظيم .

وسار سكورس ليستولى على مملكة السط فهب هرثمة للدفاع عن بلاده ، وقاوم مقاومة عيفة جعلت سكورس يعقد مع هرثمة اتفاقية وافق بموجبها ملك النبط على المحافظة على الأمن وعلى التعاون مع الرومان ، وقد ضرب هرثمة وسكورس نقدا بهذه المناسبة عليه صورة رمزية تشير إلى هذا الاتفاق .

وراح العلم الرومانى ينتشر فى الأرض وراحت التجارة تسير فى أثر العلم الرومانى ، فأخذ التجار يشترون الأرقاء ويشترون الأرض وينشئون فى الأقاليم ضياعا أوسع رقعة من إيطاليا ، ولم يعد من المستطاع على سورى أو فلسطينى أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن رومانى ، ولا ينتقل درهم واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان .

كان اليهود تجارا ذوى خبرة بشئون المال ، وكان النبط تجارا يعيشون على التجارة وإقراض الناس ، وقد جاء الرومان إلى المنطقة بعقليتهم التجارية المستغلة التى جعلت بعض الآباء يبيعون أطفالهم فى أسواق الرقيق سدادا لديونهم وفوائدها . وقد قضوا على اليهود قضاء مبرما وأمنوا منافستهم ، ترى أيتركون دولة النبط تزاحمهم فى سورية وفلسطين ؟ كان ملوك النبط ذوى أطماع عريضة وكان قواد الرومان ومجلس شيوخ روما يبغون السيطرة على الأرض ، وكان لا بد أن يقع صراع رهيب بين ذوى الأطماع التى لا تحد ، والتى أخذت تتزايد على مدى الأيام .

١٨

كان إيطالس ملك الصقليين قد احتل أُنتريا وهى مكان الإصبع الكبرى فى الحذاء الإيطالى ، ومعنى أنتريا أرض النبيذ لكثرة ما كان فيها من كروم ، فلما أصبح إيطالس ملك أنتريا بدل أهل البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أنتوريين بل تسموا إيطاليين ، وكما أن الرومان أطلقوا على الهلينيين جميعا اسم الأغارقة وهو اسم جماعة قليلة هاجرت من شمال أتيكا إلى نابولى ، فكذلك توسع الإغريق فى معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر البو إلى أقصى طرفها الجنوبى .

وقد ظلت روما جمهورية الكلمة العليا فيها لمجلس شيوخها حتى عاد بمبيوس من الشرق يحمل الغنائم ويسوق الأسرى، وجاء يوليوس قيصر من أسبانيا مزهوا بنصره يطمع فى يكون قنصلا على روما ، بل حاكما مستبدا تتقلص أمامه سلطة شيوخ روما ، فتكونت الحكومة الثلاثية من قيصر وكراسس وبمبيوس .

ولد قيصر فى بيت متواضع فى حى سابورة وكان الحى من أحياء روما القديمة تكثر فيه الحوانيت والحانات والمواخير ، فلما شب عن الطوق أظهر استعدادا عظيما للخطابة وبدأ فى شبابه يكتب ويؤلف ، وكان على الرغم من نشأته البسيطة يزهو بأصله ويرجع نسبه إلى فينوس الزهرة ربة الحسن والجمال . فهو من نسل الآلهة .

وعين ياورا حربيا فى آسية فلما عاد إلى رومة تزوج كوسوتيا استجابة

لرعبة أبيه ، وقد طلقها بعد أن توفى والده بزمن يسير وتزوج كورنليا ابنة سنا الذى تولى قيادة الثورة بعد ماريوس .

وتولى صلا زمام السلطة فى روما فأمر قيصر أن يطلق كورنليا ، فلما أبى أن يطيع هذا الأمر صادر أملاكه التى ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنليا وسجل اسمه فى المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة ، ولكنه رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهى فيها فعاد وغادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسره القراصنة فى الطريق واقتادوه إلى كمين لهم فى قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون تالنتا ، فلما سمع ذلك لامهم على أنهم لم يقدروه حق قدره وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تالنتا وأرسل خدمه ليأتوه بالمال . وأخذ فى تلك الأوقات يسلى نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على آسريه ، فلما أظهروا عدم إعجابهم بقصائده سماهم برابرة همجا وأنذرهم بأنه سيشنقهم فى أول فرصة تتاح له .

وعاد خدمه بالفداء وما كان مبلغا يستهان به ، وما كاد يتنسم نسيم الحرية حتى أعد السفن والملاحين وراح يطارد القراصنة حتى قبض عليهم واستعاد منهم الفداء ثم قطع رقابهم قبل أن يصلبهم .

وعاد إلى رومة ووزع جهوده بين السياسة والحب ، وكان وسيم الوجه وإن كان سقوط شعر رأسه فى تلك السن المبكرة أخذ يشغل باله ، وماتت كورنليا زوجه فتزوج بمبيا حفيدة صلا ، وقد كان ذلك الزواج سياسيا محضا لذلك لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة ، وما كان ذلك أمرا مستهجنا فى ذلك الوقت .

كان ازدياد الثراء فى رومة من أكبر عوامل فساد الأخلاق وانفصام رابطة

الزواج المقدس ، وازدهرت الدعارة وكثر عدد الباحثات عن الذهب لما تدفق الذهب والفضة من ممتلكات رومة فى آسية وأوروبا . وربا عدد المواخير والحانات التى تؤوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلحون فى الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير ، وصار الزنى أمرا مألوفا لم يعد يثير انتباه الناس إلا إذا استخدم لأغراض سياسية !

و لم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل ، و لم يكن اللوم فى ذلك واقعا على النساء فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعا للمال وللسياسة .

أراد صلا أيام كان صاحب السلطة فى روما أن يضم بومبيوس إلى جانبه ، فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ربيبته وكانت وقتئذ متزوجة وحاملا . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت فى أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بمبى .

وأرسل قيصر إلى أسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التى سيرت لتأديب القبائل الوطنية وعاد منها وهو يحمل من الغنائم ما يملأ خزائن الدولة بالمال . وكان بمبى قد عاد قبله من الشرق يحمل ثروة عظيمة من الضرائب والخراج والبضائع التى غنمها فى حروبه فاستطاع أن يعمر خزائن الدولة وأن يضمن لها إيرادا سنويا قدره ثلاثمائة وخمسون مليون سترس ، وأن يوزع على جنوده ثلاثمائة وأربعة وثمانين مليونا ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيصبح أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومة .

وطلب بمبى من مجلس الشيوخ توزيع الأرض على جنوده فأبى المجلس ذلك ، فرأى قيصر أن ينتهز هذه الفرصة السانحة فألف من نفسه ومن بمبى ومن كراسس الحكومة الثلاثية الأولى وتعهدوا جميعا أن يقاوموا كل تشريع

لا يرضى عنه أى واحد منهم ، واتفق بمبى أن يساعد قيصر فى أن ينتخب قنصلا ، كما تعهد قيصر إذا ما اختير لهذا المنصب أن ينفذ الاقتراحات التى عرضها بمبى ورفضها مجلس الشيوخ .

وزوج قيصر ابنته يوليا إلى بمبى ليضمن بذلك وفاءه له ، وأغضبت هذه الحال كاتو زعيم المحافظين فقال : « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلا لإدارة شئون الزواج » .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين ، ولما سمع كاتو زعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين نسى مبادئه ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل .

ولم يتحقق الغرض النبيل الذى كان يقصده كاتو فقد اختار العامة قيصر واختار الأشراف آخر ، وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه حتى عرض على مجلس الشيوخ المطالب التى تقدم بها بمبى ، وهى توزيع الأرض على عشرين ألفا من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمبى والتصديق على الاتفاقات التى عقدها بمبى فى بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التى تعهد الملتزمون بجمعها من ولايات آسية بمقدار الثلث .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل عرضها على الجمعية مباشرة ، فوافقت الجمعية عليها ، وقد تجاهل قيصر المجلس فى نفس العام فعرض على الجمعية مباشرة مشروعه الثانى الخاص بتوزيع الأراضى التى تملكها الدولة فى كمبانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ، فوافقت عليه الجمعية ، وكان ذلك بداية اهتزاز الجمهورية الرومانية وظهور عصر الحاكم المستبد فى الدولة التى يقضى دستورها بأن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله من غير محاكمة ، وكل من يحاول أن يتولى

منصبا من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام .

وقبل أن تنتهى فترة هذه القنصلية التاريخية أفلح قيصر فى أن يعين واليا على بلاد الغالة الجنوبية وغالة ناربونة فى الخمس السنين التى تلى سنة توليه القنصلية . ولكى يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة عمل على أن ينتخب اثنان من أنصاره قنصلين لروما . وقد طلق زوجته الثالثة بمبيا بسبب ارتيابه فى استقامتها وتزوج كلبيرنيا ابنة أحد الصديقين اللذين رشحهما للقنصلية .

و لم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التى أصدرها إلغاء تاما ، و لم يكتم كاتو زعيم المحافظين رأيه فى تلك « القوانين اليوليوسية » وطالب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية ، وتردد مجلس الشيوخ فى الاستجابة لهذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية .

وتوغل قيصر فى بلاد الغاليين وتواترت أنباء ما كان يلاقيه فيها من الأخطار الكثيرة ، فأخذ الأمل يداعب المحافظين وقال شيشرون خطيب روما ومن كان لسان الحكومة الثلاثية قبل ذلك الوقت بقليل : « من لم يمت بالسيف مات بغيره » . وتلون شيشرون بلون الزمان فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

كانت القبائل الألمانية تتحرك فى جميع الأصقاع الممتدة من نهر الراين إلى المحيط الأطلنطى وكان قيصر يحتال لإنقاذ روما ، بينما كانت روما نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وانتصر قيصر على الألمان وحرر غالة من أعدائها واعتقد أن تحريرها هذا لا يفترق فى شىء عن فتحها ، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان روما ، وحجته فى ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة

لحمايتها من الألمان ، ودعا بمبى وكراسس أن يقابلاه ليضعوا معا خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم أمام الحركة الرجعية التى يقوم بها المحافظون .

واختير بمبى وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغاليين أن السلام أحلى من الحرية .

وراح قيصر يحارب الألمان ويزحف بجيوشه حتى يغزو بريطانيا ويقضى على الفتن فى غالة ويحمى روما من أعدائها ، حتى إن شيشرون بعد أن تقلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية أخذ يتغنى بمدح قيصر : « ليست معاقل الألب المنيعة ولا مياه الرين الفياضة الصاخبة هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات العاليين والقبائل الألمانية الهمجية ، بل الذى صدها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأنهار جفت ، لا ستطعنا أن نحتفظ ببلادنا حصينة منيعة بفضل ما ناله قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة، ألا ما أعظم فضائله علينا! » .

انحطت السياسة الرومانية فى خلال السنين الخمس الثانية من ولاية قيصر على غالة ، فقد راح القنصلان بمبى وكراسس يسيران فى حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين وإرهاب المحلفين والالتجاء إلى القتل فى بعض الأحيان .

وانقضت مدة ولايتهما فجند كراسس جيشا كبيرا وأبحر به إلى سورية ، ثم عبر نهر الفرات والتقى بالفرس ، فدارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الفرس وقتل ولده فى المعركة .

وبينما كان كراسس يرتد بقواته بنظام ، دعاه قائد الفرس إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن قائد الجيوش الفارسية غدر به وقتله وأرسل رأسه إلى البلاط الفارسى ، وأصبح بذلك قيصر وبمبى فى الميدان وحدهما .

كان كل منهما يطمع فى أن يكون سيد روما ، وقد حدث أن انفصمت العروة الوثقى بينهما لما ماتت يوليا ابنة قيصر وزوجة بمبى فى أثناء الوضع ، وقد حاول قيصر أن يستميل بمبى إليه فعرض عليه أن يزوجه أكتافيا حفيدة أخيه وأقرب قريباته فى ذلك الوقت ، وطلب أن يتزوج هو ابنة بمبى ولكن بمبى رفض كلا العرضين .

وعقد بمبى حلفا صريحا مع المحافظين و لم يبق أمامه من عقبة للاستيلاء على السلطة إلا مطامع قيصر وجيشه الجرار . ولما كان يعرف أن قيادة قيصر للجيش ستنتهى قريبا فقد أصدر مراسيم تقضى بمد أجل قيادته هو إلى ما بعد انتهاء قيادة حليف الأمس وغريم اليوم ، ليخلو له وجه الجيش .

وقامت اضطرابات فى روما وراح الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم فى الجمعية ، واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات فى أيطاليا فهرعت إلى روما وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، حتى إن من ليس حق الاقتراع كان يقترع . وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة .

وقامت عصابات بقتل كلوديس وكان من أعظم الخبراء الممتازين فى المهزلة البرلمانية ، وكان ينظم عصابات من أحط الطبقات ليصل بها إلى أغراضه السياسية ، فرفعه صعاليك المدينة إلى مرتبة الشهداء واحتفلوا بجنازته احتفالا عظيما وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ وحرقوا البناء فوقها .

وجاء بمبى وفرق الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس بناء على نصيحة كاتو أن يعينه « قنصلا عاما بلا زميل » ، وقد قال له كاتوا إن هذه العبارة أخف على السمع من لفظ «دكتاتور » .

واستسلمت عناصر الثروة والنظام جميعا فى عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمبى ، أما الطبقات الفقيرة فظلت تتلهف على عودة قيصر .

لم يختلف قيصر مع بمبى فى أن الجمهورية قد ماتت وأنها أصبحت اسما على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة ، ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية ، ولكنه كان يريد أن يضع الأمور فى أيد قيادية تعمل لتقدمها ورقيها .

كان قيصر فى الرابعة والخمسين أوهنته حروبه الطويلة فى غالة ، ولم يكن يحب أن يتورط فى محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التى تحاك له والفخاخ التى تنصب لاقتناصه ، وكان يؤلمه أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هى الجزاء الذى يجزى به من أنجى إيطاليا من الدمار والخراب .

وطلب بعض أنصار بمبى من مجلس الشيوخ عزل قيصر قبل أن تنتهى مدة قيادته للجيش الرومانى فى غالة . ومعنى ذلك أن يحاكم أو يبقى خارج البلاد ، وأبى المجلس ذلك ، ولم يدخر قيصر جهدا فى إزالة أسباب الخلاف بينه وبين بمبى دون جدوى ، فطلب قيصر على لسان مؤيديه فى مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذى كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن روما ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده .

وعرض قيصر على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمبى منصبيهما ، وبدا هذا العرض معقولا فى نظر الشعب حتى إنه كلل جبين رسوله بالأزهار . ووافق المجلس على هذا الرأى إلا أن بمبى أبى أن يخضع لهذا القرار ، وأعلن أن قيصر عدو الشعب إذا لم يتخل عن القيادة .

وانقسم المجلس على نفسه : كان مارك أنطونيو صديق قيصر يؤيد قيصر

فى مطالبه وكان كاتو يعارض تلك المطالب ، وانتهى الأمر بأن نجح كاتو فى أن يجعل المجلس يوافق على دكتاتورية بمبى وحكمة العسكرى .

ونشبت الحرب الأهلية بين بمبى وقيصر ، واضطر بمبى إلى الفرار من روما ودخلها قيصر ، وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها وراح يقتفى أثر بمبى فى أسبانيا ، وبعث بالحبوب إلى الخائفين من الجوع فى روما ، فلم يمانع مجلس الشيوخ فى أن يعينه دكتاتورا على إيطاليا ، وصار يوليوس قيصر من سيصبح حكام الرومان قياصرة تيمنا باسمه ، الحاكم المطلق وسيد روما .

واستأنف القتال بين بمبى وقيصر على كره من قيصر ، فقد كان يمقت أن يقتل الرومانى رومانيا ، ودارت رحى المعركة الفاصلة فى فرسالس فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق . م وكانت معركة طاحنة ، وكان عدد قليل من أنبل رجال روما يشاهدون المعركة عن كثب ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ، لقد اشتبكت زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها فى صراع عنيف ، فما أحط ما فى الطبيعة البشرية من مشاعر إذا ما أثيرت شهواتها .

وفر بمبى إلى الإسكندرية ، وفر بروتس من الميدان وكان قيصر يحبه حبا جما وإن انضم إلى أعدائه ، وقد بعث بروتس برسالة إلى قيصر ، فاغتبط قيصر أشد الاغتباط لما علم أن بروتس حى يرزق وعفا عنه من فوره .

وقابل بمبى زوجه فى الإسكندرية ، وما كادت قدماه تطآن أرض مصر حتى طعنه خدم بوتيس خصى الشاب بطليموس الثانى عشر طعنة قاتلة ، بينما كانت زوجته تنظر إليه فى هلع وهى على ظهر السفينة .

وقتل بمبى فى أرض مصر ، وكان على عرشها بطليموس الثانى عشر وأخته كليوباطرة ، وكانت كليوباطرة شقراء ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها

الرشيق المعتدل وخفة روحها وتنوع ثقافتها وحسن صوتها ومقامها الملكى جعلتها فتنة تسلب الألباب .

كانت من أصل يونانى مقدونى ، فكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، وقد جمعت بين فتنة العقل المتوقد وفتنة الغانية المتحللة من كل قيد ، وكانت تجيد تدبير الشئون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شراك الحب .

ونجح بوتيس خصى أخيها ووزيره أن ينفيها عن البلاد ، وبلغ ذلك قيصر ماستاء ، فذهب إلى الإسكندرية وأرسل إليها سرا أن توافيه ، فأخفت نفسها فى فراش حمله تابعها أبولو دورس إلى مسكن قيصر بالإسكندرية .

ودهل القائد الرومانى حين رآها وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها وهو الذى لم يدع انتصاراته فى ميدان القتال تربى على انتصاراته فى ميادين الحب ، ونجح فى أن يوفق بينها وبين أخيها وأجلسهما على عرش مصر كما كانا .

وعرف قيصر أن بوثينيس والقائد المصرى أخلاس كانا يأتمران به ليقتلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التى جاءت معه إلى مصر ، فدبر فى الخفاء اغتيال بوثينيس وفر أخلاس واتصل بالجيش المصرى وحرصه على الثورة ، وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، وراح أخلاس يحرض ضباط الحامية الرومانية التى وضعها مجلس الشيوخ فى تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر فى وجه هذا الدخيل الخائن الذى سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالمة ، وأن يعمل على أن يولد له من صلبه من يرث هذا العرش فى المستقبل .

وعمل قيصر فى هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحال القصر الملكى والملهى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله ،

ثم أرسل يطلب المدد من آسية الصغرى وسورية ورودس ، ولما أدرك أن أسطوله الضعيف الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع فى يد أعدائه أمر به فأحرق ، والتهمت النار جزءا من مكتبة الإسكندرية .

وانطلق رسل قيصر إلى البلاد القريبة لنجدته ، واعتذر أغلب الحكام بأن الرجال القادرين على حمل السلاح قد بيعوا فى سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة ، وقوبل رسول قيصر فى البتراء بجفاوة بالغة .

كان ملك النبط مالك الأول بن عبادة الأول ، فما إن طلب منه رسول قيصر النجدة حتى سير الأساطيل إلى الإسكندرية ، وانطلق البحارة العرب لإنقاذ حليفهم يوليوس قيصر من المأزق الحرج الذى وضع نفسه فيه .

ورأى قيصر أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل الذى يمكن أن يصل إليه عن طريقه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليائس واستولى عليها ، ثم جلا عنها ثم عاد فاستولى عليها .

وفى إحدى هذه المعارك صوب إليه المصريون عاصفة من السهام ، ونجحوا فى أن يقذفوا به وبأربعمائة من رجاله إلى البحر بعيدا عن الحاجز الذى يصل الجزيرة بأرض المدينة ، وظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار حالفهم النصر فخرج من القصر وانضم إليهم ، ولكن كليوباطرة لم تتحل عنه أبدا ، وراح قيصر يسبح لينجو من الموت وقد استطاع أن يصل إلى الشاطئ .

وجاء الأسطول النبطى وانضم إليه قيصر ومن بقى على قيد الحياة من جنوده ، ودارت الدائرة على المصريين وحامية مجلس الشيوخ الرومانى وانهزموا فى معركة النيل ، وكافأ كليوباطرة على إخلاصها له بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكا معها على مصر ، فجعلها بذلك حاكمة

البلاد الحقيقية .

وعاد الأسطول السطى إلى بلاده وقد توطدت الصداقة بين النبط والرومان . وقد كانت كليوباطرة تمقت الأنباط إذ كانت تطمع أن تكون ملكة العربية ، إلا أن الأنباط لم يتيحوا لها تحقيق ذلك الحلم فراحت تنتظر الأيام لتثأر منهم بعد أن عجزت عن تحقيق حلمها .

١٩

وقعت العداوة بين قيصر وبمبى ، فأطلق قيصر أرستوبولوس ملك اليهود من محبسه فى روما وأطلق معه قائدين فى اثنى عشر ألف مقاتل وسرحهم إلى سورية وإسرائيل ليردوا الناس عن طاعة بمبى .

وكتب بمبى إلى أنتيباطر ببيت المقدس أن يكفيه أمر أرستوبولوس، فبعث قوما من اليهود لقوه فى سورية ودسوا له سما فى بعض شرابه كان فيه حتفه .

وقتل بمبى فى مصر وأصبح الأمر فى يد قيصر وحده ، فخف إليه أنطيغونس بن أرستوبلوس وأنتيباطر وهركانوس ، فشكا أنطيغونس بأن هركانوس وأنتيباطر قد قتلا أباه حين بعثه أهل روما لحرب بمبى ، فقال أنتيباطر مدافعا عن نفسه :

— إنما فعلت ذلك لخدمة من ملك علينا من الرومان ، وإنما كنت ناصحا لقائدهم بمبى بالأمس وأنا اليوم أيها الملك لك أنصح وأحب .

فحسن موقع كلامه من قيصر وقدمه على عساكره لحرب الفرس ، فلما عاد هركانوس وأنتيباطر من حرب الفرس أعاد قيصر هركانوس إلى ملك بيت المقدس وأنتيباطر مدير المملكة فى ظل الاحتلال الرومانى وكان هركانوس ضعيفا عن لقاء الحروب فتغلب عليه أنتيباطر وعين ابنه هيرود عاملا على الخليل ، وكان قد بلغ الحلم .

واحتازوا الملك من أطرافه ، وامتلأ أهل الدولة منهم حسدا وكثرت السعاية فيهم ، فدب الشقاق بين هركانوس وأنتيباطر .

وراح قيصر يفكر فى أن يبعث حملة عظيمة لإخضاع الفرس ، وأن يزحف حول البحر الأسود وأن يرتاد نهر الدانوب ويفتح ألمانيا ، ثم يعود إلى روما ليهنأ العالم بالسلم بعد ذلك .

وتسربت هذه الأحلام إلى روما فرحب بها العامة وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموا فيها رائحة الحرب ، وفزعوا من المطالب التى ستنهال عليهم ؛ أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر ، لذلك عقدوا النية على قتله .

وروعهم وجود كليوباطرة وابنها قيصرون فى روما ، وراجت الإشاعات فى روما أن قيصر يريد أن ينصب نفسه ملكا وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق .

وأقبل كيوس كاسيوس وكان قائدا من قواد بمبى على بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وقد اشتهر بروتس بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكا بالفضيلة ، وكانت أمه أختا غير شقيقة لكاتو عدو قيصر اللدود ، وكانت زوجته ابنة كاتو ، وكان الناس يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق أمه فى الوقت الذى ولد فيه ، وكان قيصر يعتقد أن بروتس ولده بل وكان بروتس نفسه يعتقد هذا الاعتقاد ، فكان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة فى أفواه الرومان .

وذهب قيصر إلى المجلس وما كاد يدخل حتى هجم عليه « دعاة الحرية » وطعنه بروتس ، فقال له :

ـــ وأنت أيضا يا ولدى .

ثم استسلم للطعنات وسقط عند قدمى تمثال بمبى الذى أبى قيصر إلا أن يقام فى أروع ميدان .

وشب القتال بين كاسيوس وبروتس وجنود المحافظين ، وبين مارك أنطونيو صديق قيصر وأكتافيوس متبنى قيصر والجنود الثائرين لمقتل قائدهم ، وفر بروتس وكاسيوس والجيوش الجمهورية إلى الولايات الشرقية للإمبراطورية ، وطلبا منها ضرائب عشر سنين مقدما ، وحصلا بالفعل على تلك الضرائب . ولما عارض أهل رودس هذه المطالب هاجم كاسيوس ثغرهم العظيم وأمر الأهلين جميعهم بتسليم ثروتهم وقتل كل من تردد منهم ، وحمل معه أموالا طائلة لا تعد . وفى فينيقية أنزل جنوده فى بيوت طرسوس ولم يبارحوها حتى أدت إليه ما فرض عليهم من مال . ولم يستطع السكان أداء هذا المال حتى باعوا بالمزاد جميع أراضى البلدية وصهروا جميع آنية الهيكل وحليها وباعوا الأحرار عبيدا ، فباعوا البنين والبنات ، ثم النساء والشيوخ ، وباعوا آخر الأمر الشباب ، وقد انتحر الكثيرون من الأهلين حين علموا أنهم بيعوا بيع العبيد .

وانطلق كاسيوس إلى القدس وطالب اليهود بسبعين بدرة من الذهب ، فجمع له أنتيباطر وبنوه ما طلب ، ثم عاد كاسيوس إلى مقدونية بعد أن ترك قائدا رومانيا فى القدس .

وجاء أعداء أنتيباطر إلى ذلك القائد وراحوا يزينون له قتل ذلك الثعلب ، فأذن لهم :

وجاء الخبر إلى ابنه هيرود فى الخليل فثار ورأى أن يثأر لأبيه من قاتليه ، بل من هركانوس نفسه . وراح يفكر فاهتدى إلى أن أمه من النبط وأنه إذا استعان بمالك ملك النبط مسيعينه ، فقد كانت صلات أنتيباطر بالنبط طيبة على الدوام .

وانطلق هيرود يريد البتراء ليلتمس العون والمساعدة والمال على سبيل الهبة

أو الدين ، وبينا هو فى الطريق وصلت إليه رسل الملك تخبره أن الملك لن يستطيع مقابلته .

وكان ذلك بناء على رجاء تقدم به الفرس إلى مالث الأول ، فكتمها هيرود فى نفسه ثم جمع من استطاع جمعهم وذهب إلى القدس مجمعا قتل هركانوس ، فكفه أخوه فزائيل عن ذلك .

وجاء كاسيوس من مقدونية إلى صور ، ففزع إليه هركانوس وهيرود وبعض أنصارهما وشكوا إليه ما فعله قائده من تواطئه مع أعداء أنتيباطر من تواطئه مع اليهود ودس السم له ، فأذن لهم فى قتله فقتلوه .

وانتصر أكتافيوس وأنطونيو على كاسيوس ، وأصبح أكتافيوس أوغسطس قيصر . فأرسل إليه هركانوس ملك اليهود بهدية وفيها تاج من الذهب مرصع بالجواهر ، وسأل تجديد العهد لهم . وأن يطلق السبى الذى سبى منهم أيام كاسيوس وأن يرد اليهود إلى بلاد اليونان وأثينة ، فأجابه إلى ذلك .

صارت إسرائيل ولاية رومانية بينما ظلت مملكة السط تنعم باستقلالها ، وقد أرسلت كليوباطرة إلى مالك ملك السط أن يؤدى لها الجزية فأبى ، وأرسل إليه الرومان أن يؤدى لهم الجزية فكان جوابه الرفض . وكرهت كليوباطرة مالكا كما كرهت هرثمة من قبله ، فقد كانا صخرة صلدة فى سبيل تحقيق أمنيتها أن تكون ملكة مصر والعرب ، وراح الرومان يتحينون الفرصة لإذلال العرب وتمريغ أنوفهم الشامخة فى التراب .

وانطلق أنطونيو إلى الشرق وكان قد استسلم للشهوات الجسية استسلاما أفقده احترام رعاياه ، إذ أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات والمهرجين ، واتخذ له زوجات ومحظيات .

ووصل إلى طرسوس فأرسل إلى كليوباطرة يدعوها للمثول بين يديه لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود . وجاءت كليوباطرة ، فبينما كان أنطونيو جالسا على عرش فى السوق العامة ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به ، ثم يقضى لها أو عليها ، إذا بها جاءت فى نهر سدنس فى قارب ذى أشرعة أرجوانية وسكان مذهب ومجاديف من فضة ، تضرب الماء على أنغام الناى والمزمار والقيثار ، وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب ، وقد ارتدين زى حور البحار وربات الجمال . أما هى فقد تزينت بزى فينوس ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب .

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على الشاطئ زمرا ، وتركوا أنطونيو وحده جالسا على عرشه . ودعته كليوباطرة إلى العشاء معها فى قاربها فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة ، فأولمت لهم وليمة فاخرة وقدمت لهم أشهى الطعام والشراب ، وأغدقت القواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات .

وبدأ حديثه معها بلومها على ما فعلت . واختتمه بأن أهدى إليها فينيقية وسوريا الوسطى وقبرص وأجزاء من بلاد قليقية وبلاد العرب واليهود .

وخف هركانوس إلى أنطونيو يقدم له ولاءه وولاء اليهود ، وجاء جماعة من اليهود يشكون هيرود وأخاه فرائيل وتظلموا منهما ، ولكن هركانوس انبرى للدفاع عنهما فأمر أنطونيو بالقبض على الشاكين .

واحتضنت كليوباطرة هيرود وراحت تربص له محاربة مالك ملك النبط ، وقد كانت تريد بذلك أن توهن هيرود ومث النبط لتتمكن من إسرائيل وأرض النبط وتصبح سيدة العربية .

وعاد هركانوس إلى القدس ، ورجع هيرود وأخوه كما كانا : هيرود حاكم الجليل وفزائيل ناظر القدس، وفى خلال زيارة أكابر اليهود لأنطونيو لحق أنطيغوس وجماعة من اليهود بالفرس ، وما لبثوا أن عادوا بجيوش فارسية وهاجموا القدس وأسروا هركانوس ملك اليهود وكاهنهم وفزائيل ، ثم قفلوا عائدين إلى فارس . وفى الطريق مات فزائيل ، ولما وصل قائد الفرس بأسيره إلى البلاط الفارسى أمر ملك الفرس بإطلاق سراح هركانوس .

وانطلق هيرود إلى مصر يريد أنطونيو ، فلما بلغها كان أنطونيو قد عاد إلى روما فأكرمته كليوباطرة لا حبا فيه فقد كانت تمقته من كل قلبها ، بل طمعا فى أن يشن الحرب على العرب الذين نالوا من كبريائها وأبوا أن يحملوا الجزية لها .

وأركبته كليوباطرة السفن إلى روما ، فهرع إلى أنطونيو يخبره خبر الفرس وما حاق بالقدس ، فدخل به أنطونيو على أوغسطس قيصر ولم يخرج من عنده إلا وقد ألبسه أغسطس قيصر التاج وأركبه فى روما فى زى الملك ، وراح هاتف يهتف بين يديه بأن أوغسطس قد ملكه على اليهود .

وخرج أنطونيو لقتال الفرس وخرج هيرود معه ، حتى إذا ما بلغت جيوش الرومان أنطاكية فارقها هيرود وركب البحر إلى القدس ، وكان أول ما فعله أن بعث يستدعى هركانوس من فارس ليعيده كهنوتا على اليهود كما كان ، فصدق هركانوس ذلك وقفل عائدا إلى القدس وكان قد بلغ الثمانين من عمره ، فقابله هيرود بالترحيب وراح يخاطبه بأبى فى الجمع والخلوة .

وكانت ابنة أخى هركانوس تحت هيرود وقد علمت بما يبيته له هيرود من غدر ، فأرسلت إلى هركانوس رسالة تقول له فيها : الحق بملك العرب ليكون فى جوارك .

وكتب هركانوس رسالة إلى مالك يلتمس منه أن يبعث إليه من رجالاته من يخرج به إلى البتراء ، وأعطى الرسالة لمن يحملها إلى ملك السلط ، ومن سوء حظه كان حامل الرسالة ممن يبغضون هركانوس لأنه قتل أخاه وسلب ماله ، فأخذ الكتاب ووضعه في يد هيرود ، فلما قرأه رده إليه وقال :

ـــ أبلغه إلى ملك العرب وارجع إلى بالجواب .

وانطلق الرسول إلى البتراء وعاد برد الرسالة ووضعها فى يد هيرود ، فلما قرأها غضب ، فقد قال ملك العرب لهركانوس إنه أسعفه وبعث الرجال وحدد المكان وطلب منه أن يلقاهم به وأن يأتى إليه .

فبعث هيرود جنوده إلى ذلك المكان وقبض على رجال السلط وجيء بهم إليه ، ثم أحضر حكام البلاد اليهود والسبعين شيخا وأحضر هركانوس وقرأ عليه الكتاب بخطه فلم يحر جوابا وقامت عليه الحجة ، فقتله هيرود لوقته وأصبح ملك اليهود غير منازع .

وأعاد هيرود بناء هيكل سليمان وشيد مسرحا وحلقة للألعاب الرياضية فى المدينة المقدسة ، فثار المتدينون على ذلك ثورة عارمة واعتبروه خروجا على الدين ، ولم يأبه هيرود بتلك الثورة بل راح يدعو قومه إلى أن يتعلموا من الحضارة الهينية كل ما يثبت أن تحصيله أمر ضرورى لليهود .

وراحت كليوباطرة تثير حفيظة هيرود على العرب ، وما كان هيرود فى حاجة لمن يؤجج نار عداوته ، إنه لا ينسى أن ملك العرب قد رده ردا غير كريم يوم ذهب إلى البتراء يطلب عونا للثأر من قتلة أبيه ، وهو لا ينسى مكاتبة هركانوس له وإسراعه فى الوقوف إلى جوار هركانوس ، فسار بجيوشه لقتال العرب ، وعند اللد نشبت معركة سقطت فيها ضحايا كثيرة من الجانبين ، ثم وقعت سلسلة حروب كلفت اليهود والعرب خسائر فادحة ، وبدا أن

الصحوة التى سرت فى أرض اليهود فى أيام هيرود هى صحوة الموت .

وعاد أنطونيو من حرب فارس وتزوج كليوباطرة ، وثبتها هى وقيصرون حاكمين معا على مصر وقبرص ، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوباطرة ، وراحت كليوباطرة تشجعه على أن يغامر آخر مغامرة فى سبيل أن يصبح سيد روما وحده ، وراحت تساعده على حشد جيش وأسطول وتقسم أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها ستولى ذات يوم الحكم من الكابيتول .

والتقى أكتافيوس وأنطونيو فى معركة بحرية فاصلة عند أكتيوم ، فلما رأى أنطونيو أن الدائرة قد دارت عليه أخذ كليوباطرة وعاد إلى الإسكندرية ، وأرسل رسله إلى أوكتافيوس يلتمس الصلح ، إلا أن أوكتافيوس أعرض عنه وانطلق ليقضى عليه .

وانتحر أنطونيو وانتحرت كليوباطرة ، وجلس أغسطس قيصر الرجل العليل على عرش البطالمة ، وغلب وريث قيصر وريثة الإسكندر ، وانتصر الغرب على الشرق ودب الذعر فى قلب هيرود ، فقد انضم إلى أنطونيو فى حربه لأغسطس قيصر ، ترى ماذا سيفعل به من فاز فى صراع الجبابرة ؟

٢٠

بعث هيرود بزوجه وابنه إلى حصن الإسكندرونة وانطلق إلى روما ليقابل أوغسطس قيصر ويواجه مصيره ، فإن قتله قيصر لانضمامه إلى أنطونيو كان أهله فى أمان ، وإن عفا عنه عاد إلى ملكه وأعاد إليه أهله .

ودخل هيرود على أوغسطس قيصر فرأى الغضب فى وجهه ، وإن هى إلا خطات حتى كان أوغسطس يرغى ويزبد ويغمه وهو يدور حوله ، ثم أزاح التاج عن رأسه وهم بأن يصدر عليه حكما بعقابه فتلطف هيرود فى الاعتذار ، ثم قال فى خضوع :

— إن موالاتى لأنطونيو يا مولاى إنما كانت لما أولانى أنطونيو من الجميل فى السعاية عند مولاى ، وهى أعظم أياديه عندى ، و لم تكن موالاتى له فى عداوتك وحربك ، ولو كان ذلك وأهلكت نفسى دونه كنت غير ملوم فإن الوفاء شأن الكرام ، فإن أزلت عنى التاج فما أزلت عقلى ولا نظرى ، وإن أبقيتنى فأنا محل الصنيعة والشكر .

وعاد هيرود إلى بيت المقدس ليعيش عيشة الرومان وقد اقتفى كثير من اليهود أثره ، بينما بقى بعض المحافظين متمسكين بأهداب الدين . وقد كانت الناصرة تتحدث عن الأنبياء والأيام الطيبة الخالية ، فقد كانت أسراتها تنحدر من أصلاب الأنبياء وكانت كل أسرة تحترف حرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء . فقد احترف فرع داود التجارة ، واحترف فرع هارون تجارة الأخشاب يجلبونها من التلال ، واحترفت الفروع الأخرى

صناعة النعال أو تجفيف التين .

وكان عمران من فرع داود وكان يعمل بالتجارة ، ولكن آماله تعلقت بخدمة الهيكل العظيم بأورشليم ، وشجعه على ذلك أن زكريا زوج إليصابات أخت زوجته حنّة هناك فى معبد الرب يقوم بخدمته ويكرس حياته للعبادة والاستغفار .

وذات يوم خرج عمران وحنة قاصدين بيت المقدس ليهبا نفسيهما لله ، حتى إذا ما أشرفا على السامرة أخذا يتقدمان فى حذر ، فالسامريون يبغضون اليهود فهم يعتقدون أنهم ، أى السامريين ، أبناء إسرائيل الحقيقيــون ، ولا يعترفون إلا بكتب موسى الخمسة دون باقى التوراة ، ويحتفظون بنسخة من هذه الكتب دونت على جلد الماعز ، ويقولون : إن هارون كتبها بخط يده .

وعكف عمران وحَنّة على العبادة فى هيكل سليمان ، وحملت حنة فهزها الفرح لأن أعظم ما تفعله فتاة فى إسرائيل أن تنجب لزوجها أولادا ، وشغلت بما فى بطنها فراحت تفكر فيه وتتمنى أن يكون كجده داود .

ومرض عمران وراح زكريا وزوجه إليصابات يعودانه ، واشتدت عليه وطأة المرض فشغلت به حنة عما فى بطنها ولم ينفعه حب زوجه فذهب إلى ربه ، وحزنت حنة أن انقطع بموت عمران شرف خدمة المعبد ، فشخصت ببصرها إلى السماء وقالت :

— رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى ، إنك أنت السميع العليم .

ورجعت إلى الناصرة وعادت إلى بيتها تنتظر تمام شهورها ، ثم جاءها المخاض ووضعت ما فى بطنها فإذا به فتاة ، فنظرت إلى السماء وقالت :

— رب إنى وضعتها أنثى .

والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وفكرت فى اسم لها وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية ، فلماذا لا تسمى ابنتها باسمها تيمنا ؟ فشخصت إلى السماء ثانية وقالت :

— وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

وكان مالك ملك السط على صلة طيبة بالرومان ، فلما مات مالك وتولى من بعده عبادة الثانى ظلت الصلات الطيبة بين الجانبين . وقد كان عبادة ملكا مسالما ذا شخصية متهافتة ، بينما كان وزيره صالح شابا قويا آماله عريضة لا تحد .

كان صالح قادرا وكفئا على الرغم من صغر سنه ، وكان هو المتصرف فى أمور الدولة والمدبر لشئون المملكة ورجل الدولة الحقيقى ، وكان صديقا لهيرود يزوره وينزل عليه وكاد أن يتزوج أخته لولا اختلاف الدينين ، ورفض صالح الدخول فى الديانة اليهودية ليتم ذلك الزواج .

وجعل أغسطس قيصر مصر تابعة لحكم قيصرة روما ، وعين أوليوس عالوس حاكما عليها وأمره بأن يصلح الطرق ويطهر القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وأن يطهر ذلك البحر من القراصنة الذين كانوا يهددون الأساطيل المصرية . .

وجاء إلى أغسطس قيصر من يغريه بغزو أرض العرب للاستيلاء على ثروتها العظيمة التى تكدست لديها من الاتجار بالمر واللبان والبخور ، وللقضاء على القراصنة الذين كانوا يحتمون بسواحل الحجاز واليمن .

وبعث أغسطس قيصر إلى أوليوس عالوس الوالى الرومانى على مصر أن سر إلى بلاد العرب للبحث عن شعوبها ، وعن حدود بلاد الحبشة والأرض

المقابلة لبلاد العرب والأقسام المجاورة لها يعصلها عنها مضيق ضيق ، لعقد معاهدات معها أو احتلالها !

كانت الأساطير التى تروى عن بلاد العرب وعن غناها تسيل لعاب الرومان ، إنها تقايض التوابل والبخور بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وهى غنية حتى إنها فى غنى عن أن تستورد أشياء من خارج حدودها ، فأراد أغسطس أن يكون له حلفاء أغنياء أو أعداء أغنياء فى قبضة يده وتحت سلطانه .

كان الإسكندر يحلم بتحقيق مثل هذا المشروع الخطير ولكنه مات قبل أن يحققه ، وحتى لو أطال الله فى عمره فما كان تحقيقه ميسورا . كان أغسطس قيصر يعرف هذه الحقيقة ويرى أنه أسعد حالا من الإسكندر ، لأن النبط وهم أقوى شعوب العرب حلفاؤه ، ولأن ملكهم عبادة الثانى وعده خيرا وتعهد بتقديم الرجال والمؤن وأن يضع وزيره صالحا الخطير تحت تصرف قواده ليكون لهم مستشارا ودليلا .

وخرج أوليوس غالوس من مصر على رأس الحملة الرومانية وكان قوام الحملة عشرة آلاف جندى جمعوا من مصر من المصريين والرومان وحلفائهم ، وألف نبطى ، وخمسمائة يهودى بعث بهم هيرود إلى القائد الرومانى الذى ما كان يعرف عن البلاد التى خرج لفتحها إلا أنها بلاد غنية !

أراد أوليوس غالوس أن يقود حملته برا ولكن حليفه صالح ومستشاره الذى يعرف دروب الصحراء أقنعه بعدم وجود عدد كاف من الجمال لحمل الجيوش والمؤن ، وعدم وجود طرق برية تيسر زحف الجيش ، ونصحه بأن يحمل قواته فى البحر إلى ميناء النبط على ساحل البحر الأحمر ميناء « لويكة كومة » .

واستمع أوليوس غالوس إلى نصيحة مستشاره وحمل قواته على السفن الرومانية والمصرية ، وانطلقت الأساطيل قاصدة ساحل الحجاز ، وإذا بقرصان البحر من العرب وايمن يهاجم تلك الأساطيل ويتلف بعض السفن ويحطم أو يعرق سفنا بكل رجالها وما تحمل من عتاد ومؤن . وبعد خمسة عشر يوما من المخاطر والأهوال وصلت السفن إلى ميناء البط العظيم .

كان الرومان قد هيمنوا على هذا الميناء ووضعوا فيه حامية رومانية لحماية السفن من قراصنة البحر ولحماية الطرق البرية من قطاع السمس والتجار ، وكانوا يجبون المكوس على البضائع التي ترد إلى الميناء وكان مقدارها ٢٥٪ من ثمن تلك السلع

ونزلت القوات الرومانية والمصرية إلى البر ، وبعد أن استراحت طويلا من أهوال البحر وانضم إليها رجال هيرود اليهود ورجال السط انطلقت الحملة لتتوغل في قلب الجزيرة العربية، وقد كانت كلمة صالح وزير عبادة الثاني هي الكلمة المسموعة في الجيش كله .

ودخل أوليوس غالوس أرض قبيلة الحارث بن كعب وكان شيخها من ذوي قرابة عبادة ملك النبط ، فاستقبلت القبيلة الرومان استقبالا حسنا فظن الرحال أن الأمر نزهة في الصحراء ، وإن هي إلا أيام حتى تخر بلاد العرب ساجدة للنسر الروماني .

واستأنفت الحملة زحفها في أرض وعرة قليلة الزرع والماء ، وبدأ الجنود يحسون التعب والعطش ، وكانوا كلما توغلوا في الصحراء يقاسون لدع الشمس ونقص المؤن وشدة العطش ، وراح القواد يتطلعون إلى صالح فيؤكد لهم أن هذه طبيعة الصحراء .

وانقضت ثلاثون يوما ولا شيء إلا بحر الرمال وقرص الشمس في السماء

نهارا ، والقمر والسموم ليلا ، والريح الصرصر العاتية التى تكاد ترهق الأرواح فى كل وقت وحين ، كانوا يتوغلون فى قلب نجد قاصدين اليمن وسط هذه المخاطر القاتلة .

وتصرمت الأيام وبعد خمسين يوما من التعب والعطش والجوع والمرض وصلوا إلى نجران ، وكانت منطقة خصبة ، وقاتل الرومان أهل المدينة قتال المستميتين فقد كانوا يتشوقون إلى ماء المدينة وأن يتفيئوا ظلال الأشجار ، وسقطت نجران وفر ملكها ودخل الرومان المدينة يلتقطون أنفاسهم وينعمون ببعض الراحة بعد طول ما تحملوا من مشاق .

وراحت نظرات الريبة توجه إلى صالح فقد بذرت بذور الشك فى نواياه ، إنه يبغى تضليل الحملة بل هلاك الجيش فى البيداء ، وكان صالح ثابت الجنان يؤكد لأوليوس غالوس أن ما قاساه رجال الحملة إن هو إلا طبيعة الزحف فى الصحراء .

واستأنفت الحملة زحفها إلى المجهول ، وبعد مسيرة ستة أيام دارت معركة بين الزاحفين والعرب عند نهر غيل الخارد ، ولما كانت أسلحة الرومان متفوقة فقد خسر المدافعون عشرة آلاف رجل ، ورأوا أن خير ما يفعلونه ألا يستأنفوا هجومهم وأن يدعوا القادمين من روما ومصر وأورشليم للطبيعة القاسية تثأر منهم لتجاسرهم على هتك حرمتها .

ومكثوا فى الجوف يستريحون ، ولكن أنى هى الراحة وقد دب اليأس فى نفوسهم وتسربت الأسقام إلى أبدانهم وباتوا يتلفتون مذعورين ؟ وبعد أيام استأنفوا سيرهم فراحوا يتوغلون فى اليمن وأمسوا على بعد يومين من أرض التوابل ، ولكن خارت قواهم وأصبح غاية آمالهم أن يعودوا سالمين إلى مصر .

انقضت ستة أشهر منذ خرج الجيش من « لويكة كومة » إلى آخر موضع بلغه الرومان فى الجنوب ، كانت كلها عطشا ونصبا وعذابا وأسقاما ، تضعضعت فيها روح الرجال وتحركت فيها أحقادهم على صالح دليلهم ومستشارهم ، ولكن لم يستطيعوا أن يبدوا له العداوة فقد كانوا يرجون أن يقفل بهم عائدين إلى بر السلامة .

لم يعثر الجيش الرومانى على ذهب ولا فضة وتقوضت الأحلام ، وسار بهم صالح فى طريق العودة وقد بلغ نجران فى تسعة أيام . ودارت هناك معركة بين العرب والرومان ، معركة كان الرومان كارهين لها فقد تيقنوا أن حملتهم باءت بالإخفاق وأنهم يحاربون لإنقاذ جلودهم ، وانتهز أوليوس غالوس أول فرصة ليستأنف عودته.

وبعد مسيرة أحد عشر يوما بلغوا «العيون السبع». ومن ذلك الموقع انطلقوا إلى خولان ومنه إلى تبالة، ومن تبالة دخلوا ينبع وقد أنهكهم المرض والتعب.

وانقلب الشك إلى يقين لما عاد بهم صالح إلى ينبع فى مدة أقصر كثيرا من تلك المدة التى قطعوها فى ذهابهم ، فاتهموا صالحا بالخيانة وسوء المشورة ، وبتعمده تضليل الحملة واستخدامها فى ضرب المدن التى يريد ضربها وإضعاف القبائل التى يخشى بأسها وتوهين قوى الرومان ، ليصبح سيد الموقف فى بلاد العرب .

وأمضى الرومان الذين عادوا من المغامرة الصيف والشتاء فى ميناء ينبع يعالجون من الأمراض التى فتكت بهم ، فقد ابتلوا بنقص فى الطعام والشراب وضربات الشمس الحامية ، ثم ركبوا السفن التى جاءت تحملهم بعد إخفاق الحملة وانطلقوا إلى قفط ومنها إلى الإسكندرية وقد وضعوا وزر ما حاق بهم على صالح وزير عبادة الثانى ملك النبط .

٢١

تقبل الله مريم بقبول حسن و أنبتها نباتا حسنا ، وكبرت مريم فصار على أمها أن تفي بنذرها ، فانطلقت إلى أورشليم لتسلمها إلى العباد المقيمين فى المعبد، فتنازع العباد فى أيهم يكفلها ، وأراد زكريا أن يستبد بها دونهم بالعصابات خالتها فأبوا وقالوا :

ــ نقترع فمن خرجت قرعته كان له حق كفالتها .

وجاء كل منهم بقلم معروف به وحملوا الأقلام ووضعوها فى موضع أمروا غلاما لم يبلغ الحنث أن يخرج قلما منها ، فأخرج واحدا فكان قلم زكريا ، فقال الرجال :

ــ لا نقترع مرة أخرى ، نلقى أقلامنا فى النهر .

وذهبوا إلى النهر وألقوا أقلامهم ، فسارت جميع الأقلام مع التيار إلا قلم زكريا فقد جرى خلاف جريه فى الماء ، فكفلها زكريا ، وراحت مريم تقضى نهارها فى العبادة والاستغفار وتقضى ليلها فى مناجاة ربها . وفى ذات ليلة بينما كانت غارقة فى ابتهالاتها أحست كأن شخصا فى محرابها فتلفتت فلم تجد أحــدا ، فـــمشى الخوف فى أوصالها ومس أذنيها حفيــف صوت فقالت :

ــ من هناك ؟

وإذا بصوت عذب يقول :

ــ أنا رسول ربك إليك يا مريم ، إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على

نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين .

ودخل عليها زكريا المحراب وكان قد نال منه الكبر ، فوجد عندها فاكهة في غير أوانها فتعجب وقال لها :

— يا مريم أنى لك هذا ؟

— هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وعاد زكريا إلى محرابه ، إنه قارب الثمانين و لم يرزق ولدا . وحز في نفسه أن يبقى فردا وتمنى أن يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له أن يطمع في ذلك وإليصابات عاقر ، ولكن ما رآه في محراب مريم أحيا الأمل في نفسه فراح يدعو الله :

— رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا و لم أكن بدعائك رب شقيا ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا .

فرأى ملكا كريما يقول :

— يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا .

قال زكريا :

— رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا .

قال الملك :

— كذلك قال ربك : هو علي هين ، وقد خلقتك من قبل و لم تك شيئا .

— رب اجعل لي آية .

— آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

وخرج زكريا إلى قومه ورمز إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى .

وقنت مريم لربها وسجدت وركعت ، وبينما هى فى محرابها هبت نسائم رقيقة وعبق الجو بروائح زكية وغرق المكان فى نور سماوى ، وإذا بالملائكة أمامها .

قالت الملائكة :

ـــ يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين .

ـــ رب أنّى يكون لى ولد و لم يمسسني بشر ؟ إنبنا قد قام.

ـــ كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

وانتبذت مريم من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسل الله إليها رسوله فتمثل لها بشرا سويا . قالت :

ـــ إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .

قال :

ـــ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .

قالت :

ـــ أنى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر و لم أك بغيا ؟

قال :

ـــ كذلك قال ربك هو علىّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا .

ونفخ الله فيها من روحه ، ثم عادت إلى محرابها تفكر فغشيها هم وقلق ، فهل يصدقها الناس إذا قالت لهم إنها حملت بالمسيح المنتظر ؟

فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت :

— يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا .

فأتت به قومها تحمله قالوا :

— يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا .

فأشارت إليه قالوا :

— كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

قال :

— إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

وشغل الناس عن مريم وابنها بالثورة التى اندلعت فى أرجاء فلسطين ، فقد مات هيرود الكبير ذلك الطاغية الذى رفع النسر الرومانى فوق هيكل سليمان ، وأمرت روما بإحصاء اليهود ورأى اليهود أن ذلك الإحصاء إن هو إلا مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا ، وتقييدهم عبيدا لقيصر تفرض عليهم عبادته وافتتاح الصلوات باسمه .

ضاق اليهود بالضرائب جميعا فقد كانوا يؤدون ضريبة للهيكل وضريبة للدولة ، وضاقوا بقسوة سيطرة الرومان ، فلما دعا يهودا الجليلى إلى حرب روما حف إليه الثوار وانطلقوا إلى أورشليم واحتلوها ، وحوصر الفيلق الرومانى الذى يحميها ودمر قصر هيرود وأشعل فيه النار .

وغضب أغسطس فى روما فأمر حاكم سورية أن يؤدب العصاة ، فخرجت الجنود العربية والفرسان الرومان ودخلوا فلسطين يقتلون الرجال ويتركون المدن طعمة للنيران ، ففر منهم الثوار إلى التلال فمن لم يمت بالسيف مات بالعطش والجوع .

وسيطر الرومان على أورشليم ورفع الحصار عن حاميتها ، ونزل الكرب بالمدن اليهودية فاجتمع الفلسطينيون ومشايخ اليهود وبعثوا سفراء إلى أغسطس يلتمسون منه أن ينصب عليهم ملكا يعيد الهدوء والسلام .

كانت العداوة قد شبت بين هيرود الكبير وبين صالح ، ولقد ذهب صالح إلى روما وقابل أغسطس قيصر وحاول أن يقضى على هيرود دون جدوى ، فقد كان هيرود عبدا مخلصا لروما عذى أبناءه بحبها ، فلما جاء وفد اليهود إلى روما يلتمس صيانة الأرواح ، قسم فلسطين إلى ولايات ونصب أبناء هيرود الخمسة حكاما على تلك الولايات ، فكان أنتيباس هيرود الثانى على الجليل ، وكان إخوته على الولايات الأخرى ، أما أورشليم ، القلب المقدس ، فقد جعلها أغسطس ولاية رومانية يحكمها حاكم رومانى يتلقى الأوامر من قصر قيصر.

ومرت الأيام وشب يحيى[1] فى أورشليم ونما عيسى فى الجليل ، ونشأ يحيى منذورا للبتولة وكان عليما بالكتب الدينية يسمعها من أبويه ويتلوها فى خلواته . وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، وكان يعيش بالقرب من نهر الأردن ليتطهر على الدوام فقد كان من المتطهرين ، وكان يرتدى ثوبا خشنا من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل .

---

(١) يحيى هو يوحنا المعمدان .

وأوحى إليه وهى صبى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، فكان لا يتقى حرجا فى كلامه عن ذى خطيئة أو دنس ، لا يخشى فى الله لومة لائم . فلما رأى قصور حكام الأقاليم مراتع للهو ، وأن أنتيباس هيرود غارق فى الدنس تساق إلى قصوره أجمل الفتيات راقصات عاريات ، وكئوس الخمر تدور على الأصفياء ، وأن الفساد دب فى مجلس السهدرين مجلس رجال الدين ، راح يشن أعنف حملة على دولة الأغنياء ورجال الدين ، وسمع الناس به فذهبوا إلى نهر الأردن وألقوا إليه سمعهم قال :

— إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات ، أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . وأولاهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا ، فإن مَثل ذلك مَثل من اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا .

وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام فإن مَثل ذلك كمَثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره ، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون

من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

وراح يحيى يقول للوفود التى توافدت عليه :

— توبوا فقد اقترب ملكوت السماء .

وذاع فى البلاد أن نبيا خشنا قام فى البرية يدعو إلى الله ويبشر باقتراب ملكوت السماء . ولما كان اليهود يترقبون عودة إيليا ليخلصهم من الفساد قالوا إن إيليا قد قام .

وخرج الرجال والنساء والأطفال من كل فج مهطعين إلى الأردن ، وأقبل الفريسيون فى كبريائهم الغرور يملؤهم فهم يعتقدون أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لا يغادرون نضد التوراة يقرءون فيها ويقرءون ثم يعودون فيقرءون ، لا شغل لهم إلا قراءة التوراة حتى حفظوا النصوص وتزمتوا فى تطبيقها ، أما الروح فكانت شيئا لا يؤبه له .

نظروا إلى ذلك الرجل الناحل العارى إلا من مدرعة من شعر ، وأعاروه سمعهم وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء ، ثم دنوا منه وقالوا له :

— من أنت حتى نخبر من أرسلونا . آلمسيح أنت ؟

— لا .

— آلنبى أنت ؟

لا . أنا صوت صارخ فى البرية ، قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبى .

فنظروا إليه فى زراية وقالوا :

— فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبى ؟

كانوا ينتظرون مجىء المسيح وقيام إيليا ومبعث النبى الأمى « الذين آتيناهم

الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

قال يحيى لمن كانوا يحسبون غرورا أنهم الناس ومن عداهم أمم ، وأن الجنة لهم دون الناس جميعا لأنهم أبناء إبراهيم :

— يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا ، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم ، والآن وضعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تثمر ثمارا جيدا تقطع وتلقى فى النار .

٢٢

الناصرة غارقة فى الصمت تطوف بها الأحلام ، راح الناس فى نوم عميق وهجعت نجوم السماء وكانت ليلة لم يبزغ فيها نجم ، وفى ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلى لله ، فابنها خرج إلى يحيى بن زكريا الذى بعثه الله بشيرا بملكوت السماء ، وتقضت أيام وليالى وأسابيع ولم يرجع عيسى إليها ، كان اليقين يملؤها أن أوان بعث ابنها قد آن ، ولكن تلك الغيبة أقلقتها ، إنها لم تفارقه مد وضعته ، وإنها لتذكر مرارة الأيام الثلاثة التى فقدته فيها وهو جالس فى الهيكل بين العلماء وإنها لترجو أوبته ليعود إليها الاطمئنان .

كانت العيون غافلة إلا عينى مريم فى بيتها الراقد فى تواضع عند أقدام التلال ، وعينى عيسى وهو فوق الجبل قد تعلقتا بالرجاء .

وتوافدت إلى رأس عيسى الأفكار ، إلى أين يذهب بعد أن بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ؟ أيذهب إلى الناصرة تلك القرية المعمورة فى الجليل وينطلق يدعو الناس إلى عبادة الله ؟ أيقوم بين الناس داعيا إلى الهدى وما قام بينهم واعظا قبل الآن ؟ ونبتت فى جوفه رهبة ولكن ما كان له بعد أن أيده الله بروح القدس أن يخاف .

وقفزت إلى رأسه صورة يحيى وهو فى مدرعة الشعر ناحلا من التقشف والوجد ، يعظ قومه لا يهاب أحدا ولا يخشى بطشا ، ينزل القوارع بالفريسيين ويهاجم دولة المال ، فأمدته تلك المشاهد بقوة وعزم ، فاتضح الطريق أمام عينيه . سيجوب المدن اليهودية داعيا إلى الرشاد موطدا النفس على

احتمال الأذى والعذاب ، فما أحلى الاصطهاد فى سبيل الله .

وسار فى ذلك الفضاء العريض يحس كأنما ملىء علما وحكمة ، فالصحراء والحرارة والسماء تمده بألوان جديدة من التفكير . وذلك الانطلاق فى الفلوات لم يعد عزلة وانقطاعا بل صار مؤانسة ، فما كان فى تلك المفاوز وحده بل كان فيها مع الله . .

وفى الطريق لاحت له أرباض مدينة فيمم شطرها ودخلها ليدعو أهلها إلى الصلاح ، وألفى الناس فى السوق غادين رائحين فاعتلى مكانا عاليا وراح يقول :

— يا بنى إسرائيل ، يا بنى إسرائيل .

فاجتمع الناس إليه يصغون فقال :

— يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار .

فارتفعت أصوات تسأله :

— من أنت ؟

— إنى رسول الله إليكم .

— وما أدرانا أنك رسول ؟

— جئتكم بآية من ربكم .

— وما هى ؟

— أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله .

وأخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير ، ثم نفخ فى الطين فدبت الروح فيه ، وطار فى الجو وعيون الناس معلقة به . وعقد الدهش

ألسنتهم ولاحت الحيرة في وجوههم وظلوا في ذهول حتى سرى همس :

— هذا سحر .

وأفاقوا من دهشتهم فقالوا في توكيد :

— إن هذا إلا سحر مبين .

وانفضوا من حوله وتركوه وحده ، وابتعد عنهم رويدا رويدا وهو حزين ، إنه يدعوهم إلى النجاة فيعرضون عنه ولو أنه دعاهم إلى الضلال لأقبلوا إليه يتسابقون .

وأطرق يفكر فيما كان ؛ إنه دعا الناس فجاءوا يصغون إليه وتركوه يبلغ رسالات ربه ، فإذا كانوا لم يؤمنوا بما دعا إليه ولم يصدقوه فسيأتي يوم يسارعون إليه وقلوبهم عامرة باليقين ، فرأى أن يعتصم بالصبر فالصبر من عزم الأمور .

وغابت الشمس وراحت تختفي وراء تلال الناصرة ، فبدت أشجار التين والزيتون نابتة في الشفق كأنما لصقت على لوحة في لون العقيق ، فخفق قلبه وأغذ السير فقد أحس شوقا إلى أمه في أن يفضي إليها باصطفاء الله إياه وبعثه رسولا إلى بني إسرائيل .

وانساب في طرقات الناصرة وقد سيطر السكون ونشر الليل ألويته ، ودلف إلى فلما رأته مريم هرعت إليه تضمه إلى صدرها في حنان ، وجلسا في جوف الليل يتناجيان وقال لها فيما قال :

— وفيما أنا في صلاتي وابتهالي فوق الجبل سقط من السماء نور باهر ، وإذا بجبريل الأمين يخبرني أن الله بعثني رسولا إلى بني إسرائيل .

وغادر الناصرة وسار صوب الجليل ، واخترق الوادي الزاهر ومس أذنيه خرير الماء كتسبيح الملائكة ، ومس الجمال المكان بيده الساحرة فبدت

الحقول زاهية ناضرة ، وقامت أشجار سامقة شامخة ، وامتدت الكروم رائعة تسر العيون ، وغردت الطيور وبدت البحيرة على هيئة قلب ممرد من قوارير زرقاء صافية .

ولاحت على شاطئ البحيرة الغربى الجبال الخضر ، وامتدت على الشاطئ الشرقى الصحراء القاحلة الماحلة ، ومد بصره أمامه فرأى الجبال العالية تتوجها الثلوج الناصعة ، وسقطت أشعة الشمس عليها فبدت كمرمر مصفى .

وشيدت على الشاطئ الغربى مدن وقرى . مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو أسماك ، فهى محاط للقوافل الذاهبة إلى الأردن ومصر وسورية ، وكانت فى هذه المنطقة طبرية العاصمة التى شيدها أنتيباس وسماها بذلك الاسم متملقا الإمبراطور الرومانى طيباروس ، فلا غرو والتملق ديدنه أن يطلق على المدينة التى يبنيها اسم العاهل الذى يستمد منه السلطان ، فقد سمى من قبل مدينته قيصرية إرضاء لإمبراطوره السابق أغسطس قيصر .

ووقف على الشاطئ البحيرة ينظر ، وهب النسيم يعابث الماء فطفا الزبد على سطح البحيرة كالحبب ، وأقبلت مراكب الصيادين تتهادى ووضحت أصوات المجاديف ، وراحت الشمس تبعث إلى الأرض آخر أنفاسها وتصبغ الشفق بالذهب إيذانا بانتهاء يوم العمل .

وازدحم الشاطئ بالناس فقام عيسى يعظهم ويدعوهم إلى الله ، وإن دعوته تمتاز بالحرارة والإيمان ، كان فى نبراته قوة وفى صوته صدق وكلماته تتدفق من القلب لتصب فى القلب ، فأحسوا نحوه انجذابا وإعجابا ، ولكن ذلك الإعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لأول وهلة .

وبين هؤلاء الجموع وقف صيادان يصغيان ، كان للكلام وقع السحر فى

أنفسهما ، خيل إليهما أنه يدعوهما وحدهما ، فتفتحت له قلوبهما وتعلقت به أبصارهما وأريق فى جوفهما نور ، فقد أوحى الله إليهما أن آمنا بى وبرسولى فآمنا به وصدقاه .

وانفض الناس من حوله وسار ، وسار فى أثره أندراوس ويوحنا ، وسمع وقع أقدامهما فالتفت إليهما وقال فى رقة :

— ماذا تطلبان ؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد ، ولكن أرتج عليهما فقالا :

— أين تسكن ؟

لم يكن له دار ، جاء يدعو إلى الله وينام فى الفضاء فى حراسة الله فقال لهما :

— تعاليا وانظرا .

وجلسا يصغيان إليه وهو يدعوهما إلى الله فأحسا سعادة ، فكل كلمة ينطقها تمس شغاف الفؤاد ، وظلوا فى مناجاة حتى تصرم الليل فانصرف أندراوس ويوحنا بعد أن شهدا أن عيسى رسول الله .

وذهب أندراوس ينقب عن أخيه سمعان ليبشره بظهور نبى بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ، وترقب يوحنا عودة أخيه يعقوب ليخبره أن عيسى هو الأمل المرتقب الذى ينتظره اليهود .

وأقبل سمعان وقد شرح الله قلبه للإيمان ، فما تحدث إليه عيسى حتى آمن بالله وبرسوله .

ووفد نثنائيل إلى الجليل وكان رجلا صالحا ، فذهب إلى شجرة التين وراح يصلى وعيسى يرصده من بعيد . قرأ « الكريشما » وهى خدمة الصلاة اليومية فى خشوع وابتهل إلى الله من قلبه ، فشعر بروحه تتفتح وبالدنيا حوله

تزهو كأنما رد إليها شبابها وسرى فيها روح مقدس .

وذهب عيسى إلى البحيرة وصادف شابا صيادا فوقف يحادثه قليلا ، ثم قال له فى رقة :

— اتبعنى .

فترك فيلبس شباكه ومركبه وتبع عيسى كظله ، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله إليه الإيمان به والتصديق برسالته .

« واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتبعوه وراح يصلى لله ويناجيه فتشف روحه ويتمكن من قلبه إيمان عميق ، وانطلق فيلبس يبحث عن صديقه نثنائيل فلما قابله قال له فى حماسة :

— إن الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه .

— عمن تتحدث ؟

— عن النبى الجديد .

— أين وجدته ؟

— هنا فى الجليل .

— ومن هو ؟

— عيسى بن مريم من الناصرة .

فقال نثنائيل فى استخفاف :

— من أين ؟

— من الناصرة .

فقال نثنائيل وعلى فمه بسمة هازئة :

— أيخرج من الناصرة شىء صالح ؟!

كانت الناصرة حقيرة فى الجليل أهلها فقراء فى العلم والمال ، لا يخرج منها

إلا نجارون وقرويون بسطاء يتعلمون ولا يعدمون ، فمن أين جاء هذا الناصرى بمواعظه التى يتحدث عنها فيلبس ؟

أصغى شائيل إلى فيلبس فى عجب فكل ما يقوله عجيب ، حتى فيلبس لاح فى عينى صديقه عجيبا ، لم يعرفه متدفقا فى حديثه كما هو شأنه اليوم ، ما كانت له حرارة الكلمات التى تخرج فى قوة من بين شفتيه وما قال له : تعال وانظر حتى ألفى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ .

وجاءا إلى عيسى فرنا إلى شائيل وقد أشرق وجهه بالنور وقال :

ــ ها هو ذا إسرائيلى لا غش فيه .

فعجب تنائيل وقال له :

ــ من أين تعرفنى ؟

ــ رأيتك وأنت تحت التينة قبل أن يدعوك فيلبس .

وأصغى شائيل إليه منشرح الصدر ، فأحس كأنما بلسم مس روحه وكأن صوتا آتيا من السماء يدعوه إلى الإيمان والتصديق ، فقال فى انفعال :

ــ أشهد أنك رسول الله .

وهجر الصيادون شباكهم ووهبوا أنفسهم لله ، وذهبوا مع عيسى ليعاونوه فى أداء رسالته ، ويلقوا شباك الإيمان على قلوب من أراد الله لهم الهدى والرشاد « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » .

٢٣

انطلق هيرود أنتيباس إلى عاصمته الجديدة طبرية ، فهو حاكم الجليل وقد كان أمله أن يرفع عاصمته ليجعلها قطعة من روما ، فجعل فيها الملاعب وأحواض السباحة والمسارح والملاهي وبث فيها الحدائق ، وراح يشاهد مصارعة الرجال للأسود ، فهو يقتفي آثار أبيه هيرود الكبير في التقرب من روما وفي خضوعه لنزواته وشهواته . ولما كان معجبا بأبيه فقد راح يستمد منه وحيه ويحاكيه .

وكان يظهر لليهود أنه من حماة الشريعة المخلصين ، فإذا ما جاءت الأيام المقدسة ذهب خاشعا إلى الهيكل بأورشليم يقدم أنفس الضحايا والقرابين ، فإذا ما ضاق بالتظاهر بالتقوى والدين ترك قصره وذهب إلى قلعة ماكيروس القائمة على تل عال يطل على صحراء التراء عاصمة النبط المنيعة ، وهناك يتحرر من قيوده ويعيش لشهواته ونزواته وهو آمن أن يطلع عليه أحد من اليهود ، فهذه القلعة قائمة في أرض سيدون وكانت مدينة عامرة دمرها الله بخطيئة أهلها ، وما كان اليهود يدخلون أرضا حلت عليها لعنة السماء .

كان يتظاهر لليهود بتقواه وإن كان في قرارة نفسه يشتهي أن يكون في هيئة روماني أصيل ، يتكلم اليونانية واللاتينية ويرتدي ثياب الأسياد ويقوم مثلهم بالحفلات ويتخذ لنفسه بلاطا من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولكن سحنته وعينيه السوداوين اللتين ورثهما عن أمه النبطية تفضحه وتصرخ له أنه رجل شرقي نابت في لفحة الصحراء .

وتأهب للخروج إلى روما لمقابلة طيباروس إمبراطور الرومان يقدم له فروض الولاء ، وقبل أن يخرج جاء إليه رسل السنهدرين الذين بعثهم إلى الأردن ليروا ذلك الصوت المنبعث فى البرية يبشر الناس بقرب ملكوت السماء وقالوا له :

— إن ذلك الرجل يفتن الناس ودعواه تهدد الأمن العام ، فهو يبشرهم بنبى جديد يستل الملوك من عروشهم ويحضهم على الثورة على المال والسلطان .

وفكر هيرود أنتيباس فى ذلك الثائر الجديد فهاجت وساوسه وخشى إن سافر وهو طليق أن يقلب القوم عليه ، فإذا عاد وجده قد أفسد الناس ، فأمر جنوده أن يقبضوا عليه وأن يسجنوه فى قلعة ماكيروس .

وانطلق جنود هيرود أنتيباس إلى الأردن وألقوا القبض على يحيى الذى يبشر بملكوت الله ، وانفض الناس من حوله ليجتمعوا فى جبال السامرة معلنين سخطهم على ما حاق بنبيهم الذى أحبوه وآمنوا به ووجدوا فيه المبشر بالخلاص .

لم تكن السامرة تحت حكم أنتيباس بل كانت تحت حكم بيلاطس ، وكان بين أنتيباس وبيلاطس جفوة ، كان كل منهما ينتظر أن يبدأ أخوه بزيارته بعد أن عين حاكما على ولايته فكل منهما يحسب نفسه أعظم شأنا من أخيه ، ولم تقع الزيارة المرتقبة فتغيرت النفوس وحل الجفاء .

بعث بيلاطس جنوده إلى الثائرين اللائذين بالجبال وقتل بعضهم وفرق شملهم ، ولكنه كان يخشى أن يعود الناس للثورة فأرسل إلى أنتيباس ليرى رأيه فى ذلك الرجل الذى سجنه والذى تعلقت به قلوب المؤمنين المتعصبين .

وشغل أنتيباس هيرود بذلك السجين الذى لا يملك من دنياه إلا مدرعة من

وبر الحمل ومنطقة من جلد وبيانا يزلزل به عروش الطغاة ، فلو أطلق سراحه لجمع قلوب المتعصبين حوله وهدد ملكه بالزوال ، وبدا أبقاه فى سجنه أوغر صدور الناس ، فرأى ألا يشتط وأن يدع للصدور الثائرة بالحماسة منفذا ، فصرح بأن يزور يحيى حواريوه وأن يبعث إلى الشعب من سجنه بما يشاء .

وأقبل يوم السفر إلى روما فجاءت زوجته ابنة هرثمة الرابع ملك النبط تودعه فودعها فى فتور ، ثم انطلق للقاء سيده تداعبه آمال عراض . كان عبادة الثانى قد هلك وولى أمر النبط من بعده هرثمة الرابع ، وقد تزوج أنتيباس هيرود ابنته ليقوى مركزه بهذه المصاهرة .

ونزل هيرود الصغير على الإمبراطور طيباروس ضيفا عزيزا ، وفكر وهو فى روما أن يزور أخاه فيلبس الذى حرمه هيرود الكبير من الميراث فعاش فى روما عيشة الرومان . دخل هيرود الصغير على أخيه فيلبس فأعجبته هيروديا زوج أخيه ، كانت رائعة الحسن أندى من الندى وأنضر من أزهار الربيع ، وكانت هيروديا مغامرة تهفو إلى أن يزين تاج الملك جبينها ، فراحت تلاقى هيرود فى غفلة من العيون ، وملك حبه لها حواسه فرين لها فى نجوى الهرب معه فقالت :

— وزجتك ؟

— أطلقها .

ما أيسرها من كلمة فى بيت هيرود ، فهيرود الكبير طلق وتزوج مرات ومرات حتى إن رجال الدين ضاقوا بذلك ورفعوا إليه أنهم يخشون ثورة الناس ، وكان هيرود أنتيباس سر أبيه لا يجد فى طلاق زوجه أى إثم ما دام ذلك الطلاق يمكنه من إرضاء نزواته وإطفاء شهواته .

وفى غفلة من فيلبس الأخ المخدوع والمضيف الكريم فر هيرود وهيروديا

وابنتها سالومى الصغيرة الجميلة ونزلت هيروديا القصر الرائع فى طبرية . ولم تحتمل الزوجة العربية ابنة هرتمة الرابع ملك النبط العار الذى لحق بها من جراء فعلة هيرود الطائشة ، فالتمست من زوجها الاعتكاف فى قلعة ماكيروس حتى تهدأ غيرتها ، فسمح لها ليحلو له وجه هيروديا الساحرة .

امتلأت ابنة هرتمة الرابع حقدا ، فما بلغت قلعة ماكيروس وأشرفت على البتراء عاصمة ملك أبيها حتى فاض غضبها وتلوت من الطعنة المسمومة التى سددها لكبريائها ، ورأت أن لن تطفئ تلك الوقدة التى أججها فى أحشائها قبل أن تشعل ملكه نارا ، ففرت إلى البتراء لتضرم نار العداوة فى قلب أبيها هرتمة الذى ثار للإهانة التى ألحقها أنتيباس بابنته التى يحبها ، ستكلف هذه الإهانة اليهود غاليا .

وتزوج أنتيباس هيرود من هيروديا زوج أخيه فيليبس ، وفيليبس حى فى روما لم يطلق زوجه ، وغضب الشعب لذلك الزواج ولكن غضبه لم يبلغ القصر الصاخب بالوفود الرومانية والعلماء والفلاسفة والممثلين والراقصين والوافدين من روما ليزينوا بلاط هيروديا .

وضاق هيرود الصغير بالحفلات والرسميات ، وأحس رغبة فى أن يتحرر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدنية ، فالوحش القابع فى أغواره يلح عليه أن يبدو فى صورته الحقيقية ، فدعا هيروديا إلى قصره بقلعة ماكيروس بعيدا عن أعين الفريسيين المترمتين ، وإن كان يتظاهر أمام شعبه أنه من شيعتهم وأنه مثلهم متمسك بحرفية الشريعة الموسوية .!.

وبلغا القلعة وأطلت هيروديا منها ، إنها شاهقة تطل على الصحراء المترامية ، كانت كحارس ساهر على حدود الحبل الفاصلة بين هيرود الصغير وصهره هرتمة الرابع ملك النبط وقد وقعت العداوة بينهما ، فما ينبغى لذلك

الحارس أن ينام .

وراحت هيروديا تحوس خلال القلعة فصك أذنيها صوت يحيى : « توبوا فقد اقترب ملكوت السماء » ، فعادت إلى هيرود والتمست منه أن تصغى إلى ذلك الرجل الذى أغلقت دونه الأبواب .

وتمدد هيرود فى فراشه الوثير ووقفت هيروديا خلف الستارة وجاء الحراس بيحيى ، فلم تبهره الطنافس الرائعة ولا الستائر الفاخرة ولا الحرير الذى يغوص فيه الملك ، وقال فى قوة :

ـــ اهجر هذه المرأة .

ـــ لماذا ؟

ـــ إنها لا تحل لك .

ولم يجد هيرود ما يقوله فأشار للجنود أن يأخذوه وأطرق مهموما ، وخرجت هيروديا من وراء الستائر وذهبت إليه يتطاير شرر الغضب من عينيها وهتفت :

ـــ كيف سمحت له أن ينطق بما نطق به ؟ مرهم أن يقتلوه .

ولكن هيرود الصغير لم يفعل شيئا . كان فى أعماقه يهابه ويخاف أن يمد إليه يد السوء ، إذا قتله ثار الناس عليه وحلت عليه لعنة السماء .

وعاد يحيى إلى سجنه وبذرت بذور الحقد والكراهية والمقت فى صدر هيروديا . ومرت الأيام ورأى أنتيباس هيرود أن يحتفل بعيد ميلاده فى قلعة ماكيروس محاكيا ساداته من الأباطرة الرومانيين ، فدب النشاط فى القلعة ووفد أصدقاؤه من الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين الرسميين الذين كانوا ضالعين معه فى خداع الشعب والظهور أمامه بالتقى والصلاح .

كانت تلك القلعة مسارح للهو والعبث والانطلاق ، يختلس فيها هيرود اللذة بعيداً عن رقابة شعبه الذى لا حديث له إلا الحرام والحلال . وكانت سجناً رهيباً للثوار الخارجين على السلطان وللأنبياء ، كانت كامرأة ذات وجه بسام وقلب مظلم رهيب لا يشرق فيه بصيص من نور الرحمة ، ولا تعرف الشفقة إليه سبيلا .

وذهب هيرود وهيروديا وبطانتهما إلى القلعة يستقبلون الزوار . وأتى المساء وأضيئت المشاعل فى القاعة العليا المقامة على أعمدة من رخام . وبدت فى الشرفة الصحراء المترامية فى سكونها والسماء المزينة بمصابيحها والبحر الميت يعكس أضواء النجوم المتلألئة ، ومدت الموائد وتكدست فوقها صحاف الفضة وأوانى الذهب مثبت بالمآكل والفواكه والشراب .

ووفد المدعوون : الرومان والأمراء وأعيان الجليل ورجال الدين السائرون فى ركاب السلطان ، وتحلقوا حول الموائد وامتلأت البطون ولعبت الخمر بالرءوس وجاءت الراقصات يرقصن وهن شبه عاريات رقصات خليعة ماجنة .

وكانت هيروديا إلى جوار هيرود تعابث ابنتها سالومى وكانت رائعة الحسن كزنبقة بتت فى الصحراء . ونظر هيرود إليها وقفزت إلى رأسه فكرة : لماذا لا ترقص سالومى فى عيد ميلاده وقد ذاعت شهرتها كراقصة مبدعة حتى قرعت أبواب القياصرة فى روما ؟

فمال هيرود على سالومى وقال :

— ارقصى لى يا سالومى .

— لا أشعر برغبة فى الرقص .

— إذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين .

— حقا ؟

— أقسم لك يا سالومى ما سألتنى شيئا إلا أعطيتك .

وقامت سالومى ورقصت فى خفة الطيف وتثنت كأفعى وهيروديا ترقبها وقد نبتت فى رأسها أفكار شريرة ، وحبست الأنفاس فسالومى ترقص فى حرارة كأنما تتدفق فى عروقها النيران تميل فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت إلى هيرود وحنت رأسها أمامه فقال لها فى انشراح :

— انهضى لأمنحك ما تطلبين .

ونهضت والتفتت إلى أمها فهمست أمها فى أذنها : « أطلبى رأس يحيى » . فذهبت إلى هيرود فقال لها :

— هيه ، ماذا تطلبين ؟

— هدية فى طست من فضة .

— هدية فى طست من فضة ؟ وما هذه ؟

— رأس يحيى .

فاربد وجه هيرود وطارت الخمر من رأسه فصحا من سكره وقال فى فزع :

— لا .. لا .. غير هذا يا سالومى .

— أريد رأس يحيى .

— لا .. لا .. إنه رجل صالح ، غير هذا يا سالومى .. اسألى نصف مملكتى ..

فقالت هيروديا فى إصرار :

— لقد أقسمت .

وأيدها أصدقاؤها الرومان والرهبان الوالغون فى الإثم والعدوان .

ــ أقسمت قسما عظيما فبر بقسمك .

وثارت فيه بربريته فلم يشأ أن يحنث أمام مدعويه فى قسمه ولو كان الحنث أشرف من سفك دم برىء ، فقال فى صوت خافت :

ــ أعطوها ما طلبت .

وهبط الجنود إلى القلعة ، وساد القاعة صمت ووجوم ، وانقشعت النشوة وحل قلق ورهبة ، وإذا بالجنود يعودون يحملون طستا من فضة فوقه رأس يحيى ، وتناولت سالومى الطست وعيون الفزع ترمقها ، وذهبت إلى أمها تقدم لها رأس من سبها ومرغها فى العار .

ذبح يحيى ، ذبح من قال عيسى عنه لم تلد النساء مثله ، ذبح وما اقترف إثما ولا خطيئة ، ذبح طاهر الذيل العفيف ، ولو كانت دعوى الفداء حقا وأن الله يريد فداء عن خطيئة آدم الموروثة ، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء لكان ذلك الدم الطاهر الذى أهدر بلا جريرة أزكى دم يقدم للفداء ، وخير كفارة عن خطيئة آدم . ولكن ما كان الله ليأخذ الأبناء بجريرة الآباء ، فقد قرر فى التوراة أن النفس التى تخطئ تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون . وقرر أن الآباء لا يقتلون عن الأبناء ولا يقتل الأبناء عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل .

إن الله عادل. من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى. وقد كتب الله على نفسه الرحمة، فإذا كان آدم أخطأ فقد نال جزاء خطيئته، طرد من الجنة وهبط إلى دنيا الشقاء وراح يستغفر الله ويذرف دموع الندم، ولما كان الله يغفر الذنوب جميعا فقد عفا عن زلة عبده. «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»..

٣٤

راح الفريسيون المتزمتون ينطلقون فى طرقات أورشليم يتجسسون على الناس ليتحققوا أن كل شىء نظيف وطاهر كما تقضى الشريعة الموسوية ، ومع ذلك لم تزكم أنوفهم رائحة روث الثيران والغنم التى تكدست فى هيكل سليمان ، فتجار الثيران والأنعام من الأغنياء وما كانت أخطاء الأغنياء تثير ثائرة الفريسيين ، حتى هليل وشماى وكبار رجال الدين لم يجدوا فى قذارة الهيكل ما يخدش قدسيته وجلاله !

وفى طرقات أورشليم تدفق الحجاج : المصريون فى ثيابهم الفرعونية والسوريون فى أرديتهم الوطنية والأغنياء فى ثيابهم العالية والفقراء فى أسمالهم البالية ، والجنود الرومان فى عدو ورواح يطرون إلى البحر المتلاطم من الأجناس المتباينة جاءوا يقدمون خشوعهم ليهوه إله إسرائيل .

ووفد حجاج الجليل : النساء محجبات على ظهور الحمير والبغال ، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون جماعات ، والصبيان يلعبون فى مرح ، وبين تلك النسوة كانت مريم . إنها فى كل فصح تذهب إلى الهيكل المقدس ، الإيمان العميق يسكن قلبها . أما فى هذا الفصح فقد دخلت المدينة المقدسة وقلبها فى جوفها يخفق كجناح حمامة ، الرهبة تكتنفها والقلق يسرى فيها ، فقد كانت تعلم أن ابنها قادم إلى أورشليم ليعرض نفسه على الناس ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه .

ودلف عيسى إلى الهيكل فإذا بالتجار يحتلون رواق الأمم ، وإذا الثيران

والغنم تملأ المكان ، فراح يطرد الثيران والغنم ثم ذهب إلى تجار الحمام وقال لهم بصوت آمر :

— ارفعوا هذا من هنا .

فأذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا فقد كانوا فى أعماقهم يشعرون أنهم مخطئون فما كان الحرم مكان بيع وشراء . وذهب إلى موائد الصيارفة وقلبها ولم يحتج الصيارفة على ذلك الذى لم يدروا بأى سلطان يطردهم فقد كانوا مشغولين بجمع أموالهم .

ودخل عيسى إلى الهيكل يصلى واندفع الناس خلفه ، فلما أتم صلاته دنا منه رجل وقال له :

— إن الشعب يحب أن يسمعك .

وراح عيسى يعظ الناس ، واشتد على الشعب لأنهم نسوا أوامر الله ، وعنف الكهنة لجشعهم ، ووبخ الكتبة الذين تركوا التعاليم الصحيحة وراحوا يعلمون الناس تعاليم باطلة زائفة .

وأثرت موعظته فى الناس فجرت دموعهم على خدودهم وانهمرت دموع مريم ، واستشعر الشعب رهبة وأحسوا الله فى أنفسهم فقد كانت موعظته قوية تمس أوتار القلوب ، أما الفريسيون والكتبة والكهنة فامتلأوا غيظا وتحركت بغضاؤهم فقد نال منهم على ملأ من الحجاج ، بيد أنهم كتموا ما فى قلوبهم خشية من ثورة الناس إذا مسوه بسوء . وكان أعضاء السنهدرين حاضرين يسمعون فحقدوا عليه إلا نيقوديموس فقد كان لكلامه وقع جميل فى نفسه .

كان نيقوديموس غنيا حكيما وثالث عضو فى السنهدريس ، المجمع المقدس ، فقد أثرت فيه دعوة عيسى فأحس رغبة فى أن يصغى إليه ، ولما كان

عالما جليلا خشى أن يجلس إلى جليلى فقير أمام الناس يتلقى منه علما وحكمة .

وتريث حتى إذا أقبل الليل خرج متسترا بالظلام ، وجاء إلى عيسى فألفاه يبشر بملكوت الله كما كان يحيى يبشر به ويقول : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وما قام ثالث رجل فى السهدرين من عنده إلا وقد شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن عيسى عبده ورسوله .

ورأى عيسى أن يغادر أورشليم معقل الكتبة والفريسيين المرائين وأن يذهب إلى الجليل يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء ، فإذا كثر تابعوه ومؤيدوه جاء إليهم عزيز الجانب يناوئهم فى معقلهم تظاهره قوة تعاونه على إظهار الحق المبين .

وهبط من التلال العالية التى شيدت فوقها أورشليم يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيلبس وصديقه برتولوماوس الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، وانطلقوا مع الطريق حتى خرجوا من اليهودية ووقفوا على حدود السامرة ، وأراد الحواريون أن يدوروا حولها فما كان اليهود يدخلونها فهم يحتقرون السامريين ويضعونهم فى مصاف الوثنيين لأنهم يعتنقون مذهب عاريزيم ، ذلك المذهب الذى لا يعترف إلا بالإصحاحات الخمسة التى نزلت على موسى ، أما ما بعد موسى من مزامير وأناشيد وقصص إستر ومردخاى فلا يعترفون به ، فالتوراة نزلت على موسى وكل ما بعد موسى إن هو إلا تاريخ بنى إسرائيل واليهود .

كان اليهود يبغضونهم من سويداء قلوبهم ويجدون وزرا فى محادثتهم ، حتى إذا سقط ظل سامرى على واحد منهم أوجب ذلك التطهر من الرجس الذى حل به وقالوا : « إن قطعة الخبز التى تأكلها من سامرى هى قطعة من لحم

الخنزير » .

ولم يلتفت عيسى لتلك الأوهام فقد كان يدعو إلى الإسلام الذى دعا إليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وداود وسليمان ، ذلك الدين الذى لا يفرق بين بنى إسرائيل وسائر الأمم ، ولا بين اليهود والسامريين ، فقد كان عيسى يعلم أن الناس جميعا لآدم وآدم من تراب ، فراح يخترق السامرة والحواريون معه حتى إذا ما بلغ شكيم (نابلس) راح يبحث عن مكان يستريح فيه ، فألفى بئر يعقوب تظللها أشجار التين فانطلق إليها بينما ذهب الحواريون إلى المدينة يشترون طعاما .

ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة وقد شيد على الجبل لينافس أورشليم . ففى ذلك المكان سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لله رب العالمين ، وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها فقال لها :

— اسقنى .

عجبت السامرية لذلك الطلب وترجمت عن عجبها بقولها :

— كيف تطلب منى أن أسقيك وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية ؟

فقال لها فى هدوء :

— لو كنت تعلمين عطية الله ومن هذا الذى يقول لك اسقنى ، لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيا .

فنظرت المرأة إلى البئر وقالت فى استخفاف :

— يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة ، فمن أين لك الماء الحى ؟ لعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر وشرب منها هو وبنوه ومواشيه ؟

فأراد عيسى أن يرفعها من الماديات إلى المعنويات فقال لها :

— كل من يشرب من هذا الماء يعطش ، ولكن من يشرب من الماء الذى

أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد .

ودار حوار بين عيسى والمرأة ، حوار ألقى ضوءا على جوانب حياتها فقالت له :

— أنت نبى .

ووقعت عيناها على الهيكل الذى أقامه السامريون فى شكيم فقالت :

— آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه .

— يا امرأة صدقينى ، إنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون لله ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون أما نحن فسجد لما نعلم .

وسواء صدقته أم لم تصدقه فقد صدقه الزمان ، وجاء الدين الذى جعل الأرض كلها مسجدا ، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .

فقالت المرأة وقد تأثرت بما قال :

— أعلم أن المسيح يأتى فإذا جاء أخبرنا بكل شىء .

— أنا هو الذى أكلمك .

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة ، ذلك المعلم الكبير المربى الصادق يخالف ما يقول به الربيون ، فقد كان محرما أن يتكلم الربى علانية مع امرأة حتى ولو كانت زوجته . ولاح الدهش فى وجوههم فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب ، بل يتحدث مع سامرية فاجرة .

وذهبوا إليه وقد كتموا دهشتهم ، وفرت المرأة مخلفة جرتها وانطلقت إلى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذلك النبى الذى كشف لها عن أسرارها . ووضع التلاميذ الطعام أمامه وقالوا له :

— كل .

ــ أنا لى طعام لستم تعرفونه .

فالتفت الحواريون بعضهم إلى البعض وقالوا :

ــ لعل أحداً أتاه بشىء يأكله .

فقال لهم عيسى مؤكداً رسالته :

ــ طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله .

وجاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدفقون ، وغص بهم المكان فراح يبشرهم باقتراب ملكوت السماوات ، فتفتحت قلوبهم له ودعوه أن ينزل عندهم يومين . فقام عيسى ودهب يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيليبس وبرثولوماوس الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، ليمضوا يومين فى ضيافة السامريين أعداء اليهود ، غير آبهين لذلك المثل الذى يقول : « إن قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى هى قطعة من لحم الخنزير » .

٢٥

انطلق عيسى وحواريوه إلى كفر ناحوم وهى مدينة لصيد الأسماك ومرفأ لتصدير فائض الجليل من القمح والزيت والصوف والفواكه ، فكان محصلو الضرائب يمارسون أعمالهم ، يزنون كل ما يخرج إلى المراكب ويقدرون عليه الرسوم ، وما كانوا تابعين لسلطة واحدة بل كانوا فريقين : فريقا يجبى الضرائب للرومان وفريقا يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أبهته ونزواته وشهواته .

وراح عيسى يقول :

ـــ يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

واجتمع الناس يصيخون أسماعهم لذلك النبى الذى يعظهم ويقول لهم :

ـــ توبوا لأنه اقترب ملكوت السماوات .

وتعطل العمل فى المرفأ ولكن سرعان ما جاء أصحاب الأعمال وصاحوا بالصيادين والحمالين :

ـــ إن الوعظ ليس فى المرفأ بل هناك فى المجمع .

انصرف الناس إلى أعمالهم إلا اثنين أحدهما كاتب يعرف التوراة ويعلم الناس فى المجامع ، والآخر محصل ضرائب باع نفسه للرومان ، وتقدم الكاتب إلى عيسى عارضا نفسه :

ـــ أتبعك أينما تمضى .

وفى نظرة أحاط عيسى بذلك الكاتب الذى فيه غرور الكتبة فلم يفرح به ولم يقبله تمميذا من تلاميذه ، بل قال له :

— للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، أما ابن الإنسان فلا يدرى أين يضع رأسه .

إنه فى كفر ناحوم يمضى ليله فى بيت سمعان ، ولكنه ما كان يمكث فى مكان واحد طويلا ، إنه فى رحلة دائمة : يوم فى أورشليم ويوم فى كفر ناحوم ويوم فى الناصرة ويوم فى غيرها من المدن والقرى اليهودية ، ينام حيث ينام ، وما كان ذلك الكاتب بقادر على أن يعيش هذه الحياة أو يحتمل ذلك التقشف الذى لا يحتمله إلا رجل عميق الإيمان .

وانصرف الكاتب ونظر عيسى فوجد متى يتطلع إليه وفى عينيه صفاء نفسه . وفى لحظة فحص عن المعدن النفيس ، فذلك الرجل الذى فى ثياب عشار انشرح صدره للإيمان ، أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى فأشار له وقال :

— اتبعنى .

وخرج عيسى وتلاميذه إلى المدن المنتشرة حول كفر ناحوم يبشر الناس ويقول لهم :

— توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء .

وصعد عيسى الجبل وألقى موعظة الجبل :

— طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش للبر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين

من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات .

ودار حوار طويل بينه وبين الكتبة والفريسيين ، ثم هبط من الجبل وانطلق وحده بعيدا عن ضوضاء الناس يستريح ، وما لبث أن جاء إليه حواريوه يصلون لله :

أبانا الذى فى السماوات ،
ليتقدس اسمك ،
ليأت ملكوتك ،
لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ،
خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم ؛
اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا ،
ولا تدخلنا فى تجربة ،
ولكن نجنا من الشرير ،
لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد ،
آمين .

ولم يدع مع الله إلها آخر فى صلاته فقد كان يدعو إلى الإسلام دعوة الرسل من قبله ، ولما كان بشيرا باقتراب ملكوت الله فقد راح يردد فى صلاته « فليأت ملكوتك » وراح أتباعه يرددونها مع الأيام .

« فليأت ملكوتك » ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنوات وأجيالا . « فليأت ملكوتك » هى الإنجيل الذى جاء به إلى الأتباع والأنصار ، هى البشارة بالسعادة الحقيقية ، ترى متى يأتى ذلك الملكوت ؟

كان الحواريون لا يدرون متى يأتى ذلك الملكوت ، كان بعضهم يظن أنه سيأتى الساعة وأنه حاضر على الأبواب . وأن من الأحياء السامعين من

لا يذوق الموت حتى يرى ابن الإنسان آتيا فى ملكوته . وكان آخرون يرون أن المدى بعيد وأن الصابرين إلى المنتهى يمحون وينادى ببشارة الملكوت هذه فى أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم .

إن قول عيسى يرن فى آذانهم : « أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية[١] ، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره » .

الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية ، وقد رفض بنو إسرائيل أن يعترفوا بأن إسماعيل وإسحاق سواء ، قالوا لتحقير إسماعيل إنه ابن الجارية وادعوا أن سارة قالت : ابن الجارية لا يرث مع ابنى . ولم يكن ذلك فى شرع السماء ، لذلك سينزع ملكوت الله من بنى إسرائيل ويعطيه لحفيد ذلك الذى رفضه بنو إسرائيل ، لحفيد إسماعيل صادق الوعد الأمين .

وملكوت السماء لن يكون شهادة لبنى إسرائيل ، إنه شهادة للأمم ، فالله سيبعث فى الأميين رسولا ، يعطيه ملكوت السماوات .

وراح عيسى يضرب الأمثال للناس ولحوارييه قال :

— خرج الزارع يزرع زرعه ، وفيما هو يزرع سقط بعض البذور فأكله

---

(١) قال محمد ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيانا ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وضعت ها هنا لبنة فيتم البناء ؟. قال ﷺ : فأنا اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء » .

رواه أبو هريرة وأبو سعيد وجابر بألفاظ مختلفة . راجع كتاب الفضائل جـ ٤ صحيح مسلم . طبعة الحلبى .

طيور السماء ، وسقط بعضها على الصخر ، فلما نبتت جفت لأنها لم تسق بالماء ، وسقطت بذور وسط الشوك فنبت معها الشوك وخنقها ، وسقطت بذور فى الأرض الصالحة فلما نبتت أخرجت مائة ضعف .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ من له أذنان ليسمع فليسمع .

واستمر عيسى يضرب الأمثال للناس وحواريوه ينظرون إليه فاغرى الأفواه لا يفهمون كل ما يقول ، كانوا صيادى أسماك أغفالا لم يتعلموا علما إلا فى مدرسته ، لذلك كانوا إذا خلوا به سألوه عن تأويل أمثاله ، فلما تفرقت الجموع وبقى عيسى وحواريوه وحدهم قالوا له :

ــ ماذا تقصد بمثل الزرع والزارع ؟

ــ لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله[1] .

فأصاخوا سمعهم فسيفضى إليهم بأسرار ملكوت الله ذلك الملكوت الذى بشر به يحيى من قبل وجعله عيسى ابتهالا فى الصلاة ، قال :

ــ الزرع هو كلام الله ، والذين على الطريق هم الذين يسمعون ، ثم يأتى أبليس وينزع الكلمة من قلوبهم ، والذين على الصخر هم الذين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح . وهو ليس لهم أصل فيؤمنون إلى حين وفى وقت التجربة يرتدون . والساقطون بين الشوك هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولا يثمرون ، أما البذور التى سقطت فى الأرض الطيبة فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها فى قلب مؤمن حتى تثمر بالصبر .

هذا هو سر ملكوت الله الذى بشر به يحيى ويُبشر به ويدعو الله فى

(١) لوقا (٨ : ١٥ ــ ٦٥) .

صلاته أن يرسله للناس ، ذلك الملكوت الذى شريعته البيضاء « كلام الله » .

وعرفوا أسرار الملكوت ، إنه سينزع من بنى إسرائيل ويعطى لأمة تعمل ثماره وهو لناس كافة ، فهو شهادة لجميع الأمم . ولن يأتى ذلك الملكوت إلا إذا نزل إلى الأرض كلام الله وسارت شريعته ونبتت تعاليمه فى الأرض الطيبة ، ولن ينال ذلك إلا بالصبر والصبر الطويل .

إنه السراج المنير الذى قال لهم عنه : ليس لأحد يوقد سراجا ويغطيه أو يضعه تحت السرير ، بل يضعه على منارة ليهتدى الداخلون بالنور .

إن بذرة ملكوت الله ستبذر فى أرض طيبة ، فى أمة مؤمنة صالحة . « كنتم خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

٢٦

راح عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ويقول لحوارييه :

— إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة . وفيما أنتم ذاهبون عظوا قائلين : إنه قد اقترب ملكوت السماوات .

كان يبشرهم بهدف رسالته فهو رسول إلى بنى إسرائيل ومبشرا باقتراب ملكوت الله . واختتم وصيته لهم قائلا :

— من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ، من يقبل نبيا باسم نبى فأجر نبى يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار فأجر بار يأخذ .

وكانت أورشليم غارقة فى المنازعات الدينية فكانت المناظرات لا تنقطع بين أتباع هليل وأتباع شماى ، وكانت العداوة ناشبة بين الصدوقيين الشعبيين وبين الفريسيين الطائفين ، وكان بنو إسرائيل يرسفون فى أغلال هؤلاء الكهنة راضين فقد ثبتوا فى أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس .

راحوا يشغلون الناس بالمحظورات والمحرمات ويقسمونها إلى أقسام ودرجات ، شماى فى تزمته يمنع فى يوم السبت عيادة المريض ، بل يحرم فيه الدفاع عن النفس وقتال الأعداء وإن جاءوا للبلاد محتلين ، والشيوخ يحرمون حمل شىء فيه وإن كان إبرة أو كان قطعة من قماش ريست ثوب امرأة و لم تثبت فيه ، حتى الأسنان الصناعية كانت حملا لا ينبغى حمله فى السبت المقدس .

أظهروا التقشف رياء للناس وتظاهروا بالتقوى وحماية الشريعة ، حتى إن فريق « الجباه الدامية » من الفريسيين ينطلقون في الطرقات مغمضي العيون لكيلا تقع عيونهم على النساء فيتخبطون في سيرهم ويرتطمون بالجدران فتسيل دماؤهم على جباههم إرضاء للناموس !

وراح عيسى يحارب ذلك الرياء فساء رجال الدين أن يقوم ذلك النبي الجديد بفتح أعين بني إسرائيل فيزعزع سلطانهم ويقوض صرحهم الذي أقاموه على الخداع ، ويفضح تعاليمهم ويسد منافذ الخير في وجوههم . فلو قر في أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون ذبيحة ودون وساطة الكهان لبارت تجارتهم وذابت قدسيتهم وجف نهر الأموال المتدفق عليهم ، لذلك بعثوا إليه فريسيين متعصبين يتجسسون عليه حتى إذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه واستراحوا من خطره الذي أرقهم وأطار النوم من أعينهم .

وأرسل أعضاء السنهدرين جواسيس يتربصون به ، وبعث إليه هيرود أنتيباس يدعوه أن يأتيه إلى قصره لا ليستمع إلى تعاليمه فما كان مهتما إلى تلك التعاليم ، ولكن لأن شبح يحيى الذي يطارده في اليقظة وفي المنام أفزعه وجعله يعتقد أنه قام من الأموات يثأر لدمه، فأراد أن يرى ذلك النبي ليستريح من هواجسه التي تضنيه ، ولكن عيسى لم يستجب لدعوته .

وانطلق عيسى يوم السبت إلى المجمع وكان الصدوقيون والفريسيون في الصفوف الأولى ، وما تقدم عيسى خطوات حتى أسرع إليه بناء به حادث وتوسل إليه أن يشفيه ، فقال له :

— اذهب وقم في وسط المجمع .

فذهب الرجل والفريسيون والكهنة يرمقون عيسى في اهتمام يترقبون أن يشفى الرجل فيكون ذلك حجة على تدنيس السبت ، فالتفت عيسى إلى

الفريسيين الشامخين غرورا وقال لهم :

— أيحل فى السبت فعل الخير أم فعل الشر ؟ تخليص نفس أم قتلها؟

لم ينبسوا بكلمة بل ظلوا ينظرون ، فما جاءوا ليناقشوه ويناظروه بل جاءوا يترقبون خطأه ليقبضوا عليه ويحملوه إلى السنهدرين ، فرماهم بنظرة حادة وقال لهم :

— إذا كان لأحدكم خروف وسقط فى حفرة فى يوم السبت هل ينتشله ؟

أغرقوا فى الصمت وبقيت أعينهم مثبتة به ، وكظم غيظه وقال :

— إنقاذ إنسان أفضل من إنقاذ خروف ؛ إذا يحل فعل الخير فى السبوت .

قال للبناء فى رفق :

— مد يديك .

فمد الرجل يده فإذا اليد اليابسة تتحرك وعادت سيرتها الأولى ، واتفق أعداؤه على قتله وهموا به فألفوه اختفى عن أعينهم .

وقال حواريوه : إنك لأنت المسيح ، فقال لهم : لا تذكروا ذلك لأحد حتى لا يزيد فى عداوة السنهدرين والصدوقيين والفريسيين . وجاء العيد وانطلق الناس إلى أورشليم وهم يرجون أن يلقوا ذلك النبى ، ومرت أيام العيد دون أن يظهر ففرح أعداؤه ، ولكن سرعان ما انقلب سرورهم غما لما رأوه فى رواق من أروقة الهيكل يقول :

— تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى . من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه أما الذى يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق .

أعطاكم موسى الختان ، والختان ليس من موسى بل من الآباء ، فى السبت تختنون الأولاد فإذا كان الإنسان يقبل الختان فى السبت لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لأنى شفيت إنسانا فى السبت ؟ لا تحكموا بالظواهر

احكموا حكما عادلا .

لم آت من نفسي بل أرسلني الحق الذى لا تعرفونه .

وثار رجال الدين وثار اليهود فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معرفة بالله ، وها هو ذاك القادم من الناصرة يتهمهم بأنهم لا يعرفونه ، يتهمهم بالكفر به ونكرانه .

وهجموا عليه ليمسكوه ولكنه اختفى دون أن يروه . فقد كان قادرا على الإفلات من أيدى الأعداء ، فظهر على وجوههم ذهول فقالوا :

— هذا سحر مبين .

واستمر يقرع رجال الدين ويسخر منهم ، حتى إذا ما هموا بالقبض عليه كان يجتاز فى وسطهم ويمضى دون أن يروه فكانوا يقولون :

— إنه ساحر !

وذهب إلى بيت إليعازر ، إلى بيت من أحياه بأمر الله بعد أن مات ، واتكأ ليستريح . ورأته مريم المجدلية فأحضرت قارورة ناردين خالص وأكبت على رجليه وراحت تدهن قدميه بالطيب فعبق البيت بالروائح الزكية النفاذة.

والتفت الحواريون إلى المجدلية وفى عيونهم شيء من الإنكار فما كان لامرأة أن تلمس رجلا غريبا ، ورأى يهوذا الأسخريوطى وكان خازن الجماعة أن فى إهراق ذلك الطيب النادر تبذيرا فقال :

— لو بعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمائة دينار أنفقناها على الفقراء .

ولمح عيسى ما فى وجه المجدلية من انفعال فقال :

— دعوها ، لماذا تتبعونها ؟ لقد أحسنت إلىّ ، الفقراء معكم فى كل حين أما أنا فلست معكم فى كل حين .

واستولى الغضب على يهوذا واستبد به ودارت فى رأسه أفكار قاتمة

شريرة . وفى طرقات أورشليم انطلق رجل طويل القامة ناحل الجسم أسود العينين تغطى وجهه لحية سوداء صغيرة . من يراه يحسبه عيسى ولكنه لم يكن عيسى بل كان يهوذا الأسخريوطى ، وكان فى طريقه إلى بيت قيافا رئيس الكهنة .

واستأذن فى الدخول فأذنوا له فإذا به فى قاعة واسعة ، وجاء رؤساء الكهنة وتحلقوا حول مائدة طويلة ، وراح يهوذا يتحدث وهم يصغون إليه فى دهش لا يدرون أيصدقون ما يسمعون أم يتلقونه فى حذر ؟ جاء يهوذا الأسخريوطى الحوارى الصديق يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذى آمن به وأحبه .

* * *

وقامت مشادات بين عيسى وبين الصدوقيين والفريسيين فى الهيكل حول البعث ، وكان الصدوقيون كافرين باليوم الآخر بينما كان الفريسيون يؤمنون به ، فلما قال عيسى بالبعث فرح قوم وغضب قوم آخرون ، ودنا فريسى منه وسأله :

ــ ما أعظم وصية فى الناموس ؟

ــ إن أولى الوصايا هى الرب إلٰهنا رب واحد . وحب الرب إلٰهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى . والوصية الثانية هى حب قريبك كنفسك . ليس هناك وصية أخرى أعظم من هاتين .

ــ نطقت صدقا لأن الله واحد لا آخر سواه ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس وكل القدرة ، ومحبة غيرنا كما نحب نفوسنا هى أفضل من كل الذبائح والقرابين .

فنظر عيسى للفريسى فى عطف وقال له :

ــ لست بعيدا عن ملكوت الله .

وانطلق عيسى ومن حوله حواريوه وقد أطبق الصمت عليهم . كان عيسى حزينا لتلك العداوة وذلك العداء البادى من الفريسيين . حاربوه فى اليهودية وحاربوه فى الجليل حتى من مدينة كفر ناحوم أخرجوه . كانوا يتظاهرون أنهم على استعداد ليصدقوه لو أتاهم بآية من الله لتطمئن قلوبهم ، ولكنهم ما كانوا يصدقونه ولو انفتحت فى السماء أبواب وهبطت عليهم منها الملائكة المكرمون ، فقد كان كل ما يرمون إليه أن يشككوا الناس فيه .

وسار حواريوه ترن فى آذانهم كلماته فيأخذون فى التفكير ، فما حدث اليوم فى الهيكل هو فراق ما بينه وبينهم ، لن يكون هناك مجال للتوفيق ، كان تقريعه للفريسيين قاسيا ، ولولا جموع الحجاج لهجموا عليه وقتلوه . راح يصرخ فيهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون » . « ويل لكم أيها القادة العميان » هتك رياءهم أمام الناس وتركهم فى الهيكل عظاما نخرة .

وخرجوا مطرقين ، والتفت أحد تلاميذه إلى الهيكل والشمس ترسل إليه أشعتها فتنعكس ذهبا وهاجا . كان منظرا يملأ النفس روعة فأراد أن يسرى عن نبيه فقال له :

ــ انظر ، يا لهذه الحجارة وهذه الأبنية !

فقال له عيسى وقد اكفهر وجهه :

ــ أترى هذه الأبنية العظيمة . ستنقض ولن يبقى حجر على حجر .

وعض يهوذا على نواجذه ، فما بال كلمات عيسى تقطر فى هذه الأيام مرارة ؟ أجاء إلى بنى إسرائيل بالأمل أم جاءهم بالنقمة والعذاب ؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصب عليه لعنته ؟ إذا كان الفريسيون والكتبة رفضوه

فقد ثار فى وجوههم وألقمهم أكثر من حجر ؟ وسقط يهوذا فريسة للشك والحيرة والقلق . وراحوا يرقون جبل الزيتون وعلى سفحه جلسوا : عيسى فى إطراقه الحزين وحواريوه يجرون وراء أفكارهم وهم يلهثون .

إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

واستقر عيسى فى بيت مريم وركن إلى الهدوء و لم يخرج إلى الهيكل يدعو الناس إلى ربه ، فتضايق يهوذا وتمنى لو يخرج عيسى إلى قومه وأن يأتى بآية كتلك الآيات التى أتى بها فى الجليل بمحو طبقات الشك التى تراكمت فى جوفه حتى كادت تخنق ما فى فؤاده من إيمان وتصديق .

وقفزت إلى رأس يهوذا فكرة ، إذا كان عيسى قد ركن إلى الدعة أو إذا كان قد استسلم لليأس فسيضطره إلى العمل ، سيحرض أعداءه عليه ، سيرشدهم إلى مقره حتى يعود إلى الكفاح ، فالاحتكاك بالأعداء كفيل بإذكاء روح المقاومة فيه .

سيرشدهم إليه ليخرجه من عزلته ، فقد ينتصر عليهم فى العيد وتؤمن به الوفود فيكون ذلك قبس النور الذى يبدد الليل السرمد ، ويمهد الطريق إلى ملك المسيح الدائم ما دامت الأرض والسماء .

. لو آمن الناس به فى العيد لانقشعت عن عينى يهوذا الغشاوة وتبخر الشك والقلق الحائر الحوال فى نفسه ، فذلك الإيمان يحيى الأمل فى إمكان تأسيس مملكة المسيح التى جاءت بها البشارات .

وقام فى نفسه اعتراض : إنه يسلم سيده إلى اعدائه إذا أرشدهم إليه وما كان يجب أن يمسوه بسوء ، إنه شك فيه وانتابه القلق ولكن ذلك ما كان يدفعه

إلى تسليمه .

وكاد يعدل عن تلك الفكرة ولكن ذهنه أمده بما يؤيده فيما ذهب إليه .
إنه لو أرشدهم إلى عيسى لحدد شباب الدعوة فلا خوف عليه منهم ، فباطالما
حاولوا أن يمسكوه ولكنه كان يجتاز في وسطهم كالطيف فلن يستطيعوا أن
يمسوه بسوء .

كان يهوذا يتخبط لا يدرى حقيقة عواطفه . كان يشك فيقلق ويثور
وكانت تهب عليه نسائم من الإيمان فيثور على ثورته ، فكان قلقا مضطربا كل
ما يبغيه أن يعيد إلى نفسه الطمأنينة والهدوء .

وانسل يهوذا إلى حيث كان الكتبة والفريسيون مجتمعين وقعد بينهم يصغى
إلى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجاج إلى
دورهم ثم ينقضون عليه ويقتلوه ، ولكنه قال لهم : إن خير ما يعملونه أن
يقبضوا عليه قبل العيد في مكان خلاء بعيدا عن محبيه . وأعجبتهم الفكرة
فوافقوا عليها ، وخرج يهوذا وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكة المسيح
الدائمة ، بداية النور الذى يفضح ظلام قلبه .

٢٧

غابت الشمس وراء جبل الزيتون وخرج عيسى وحواريوه إلى المدينة المقدسة ، كانت شوارعها غاصة بجنود الرومان ووفود الحجاج من مصر وسورية وفلسطين فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه أحد ، كانوا يهرعون إليه إذا قام فى الهيكل يدعوهم إلى الله أما إذا سار بينهم فما كانوا يميزونه من آلاف الجليليين الغادين الرائحين فى المدينة .

ودلفوا إلى مكان الاجتماع فإذا موائد الفصح مدت ، وإذا الأرائك صفت ، فذهبوا يتكئون فحاول كل من حوارييه أن يجلس إلى جوار المسيح ، وارتفعت بينهم المشاورات كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من زميله ، فزاد ذلك الشقاق فى حزنه فحواريوه لم يفهموه و لم تؤثر فيهم تعاليمه .

جاءته يوما سالومى أم يعقوب ويوحنا تلتمس منه أن يسمح لابنيها أن يجلسا معه فى ملكوته ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، كانت تحسب أن ملكوته عالم كائن فوق السحاب فأرادت لابنيها السلطان . وما جاءت من تلقاء نفسها بل دفعها إلى ذلك أحب حوارييه إليه . وها هم أولاء فى ساعاته الأخيرة يتنافسون كأنما يتنازعون ميراث ملك أو سلطان .

وراح عيسى يوصيهم :

ــ الحق الحق أقول لكم : إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله .

الحق الحق أقول لكم : الذى يقبل من أرسلى يقبلنى ، والذى يقبلنى يقبل

الذى أرسلنى .

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

ــ أنتم الذين ثبتم معى فى تجاربى ستكونون معى فى ملكوت الله ، تأكلون وتشربون على مائدتى وتجلسون على كرسى تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر .

اطمأن يهودا إلى أفكاره التى احتلت رأسه فها هو ذا المسيح يضمن له الجنة ويعده بكرسى يدين سبطا من أسباط بنى إسرائيل ، فلو كانت تلك الأفكار فاجرة شريرة لحرمه من ملكوت الله ، فقوى ذلك القول عزمه فاستأذن من المسيح فى أن يذهب لقضاء حاجته ، فقال له عيسى :

ــ ما أنت فاعله افعله سريعا .

فخرج يهودا وانطلق إلى الهيكل ليخبر أعداء المسيح عن مكانه ليخرجه من عزلته ، ليفث فيه روح المقاومة والجلاد ، ليجدد شباب الدعوة . انطلق وهو يحس فى أعماقه أن المسيح يبارك خطواته .

وراح المسيح يحاور تلاميذه قال :

ــ لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا به، فى بيت الله منازل كثيرة، قلت لكم إنى ذاهب لأعد لكم مكانا فإذا مضيت وأعددت لكم مكانا آتى وآخذكم إلى، فحيث أكون تكونون وحيث أذهب تعلمون الطريق.

فقال له توما :

ــ يا سيد لا نعلم أين تذهب ، فكيف نعرف الطريق ؟

ــ أنا هو الطريق والحق والحياة لا يأتى أحد إلى الله إلا بى ، لو كنتم عرفتمونى لعرفتم الله أيضا .

قال له فيلبس :

ــ يا سيد أرنا الله وكفانا.

ــ الذى رآنى فقد رأى الله ، والكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ولكن يوحيه الله إلى .

إنى أذهب إلى الله ، فإن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الله فيعطيكم (فراقليط)[1] آخر يمكث معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم .

الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل لله الذى أرسلنى ، بهذا كلمتكم وأنا معكم ، وأما (الفراقليط) الروح القدس الذى سيرسله فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلت لكم .

قلت لكم أنا ذاهب ثم أعود إليكم ، فلو كنتم تحبوننى كنتم تفرحون لأنى ذاهب إلى الله ، والله أعظم منى .

فقال له سمعان بطرس :

ــ يا معلم إنى مستعد أن أمضى معك إلى الموت .

فنظر عيسى إليه فى إشفاق وقال له :

ــ أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

وحدث هرج فى المكان ، حتى فى لحظاته الأخيرة يختلفون فقال لهم :

ــ قوموا ننطلق من ههنا .

---

(١) فراقليط : لفظة يونانية ترجمتها جمعية التوراة الأمريكية (بالمعزى) وترجمها الكتاب المسلمون (بأحمد) انظر التذييل .

وخرجوا إلى المدينة التى كانت تحتفل بالعيد ، وراح المسيح ينظر إلى الجموع فتمثل فى لحظة كل دعوته ، وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .

لم يشهد قومه له و لم يعترفوا بدعوته ، فالتفت عيسى إلى حوارييه وقال :

ـــ ومتى جاء (الفراقليط) الذى سيرسله الله روح الحق الذى من عند الله ينبثق ، فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء .

وبلغوا جبل الزيتون فقال عيسى :

ـــ هو ذا تأتى ساعة وقد أتت ، الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركوننى وحدى وأنا لست وحدى لأن الله معى ، قد كلمتكم بهذا ليكون سلام ، سيكون لكم ضيق فى العالم ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

ورفع عيسى عينيه إلى السماء وقال :

ـــ يا رب قد أتت الساعة ، كتبت على أن أشرب هذه الكأس فلتكن مشيئتك .

يا رب هذه هى الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك وعيسى المسيح الذى أرسلته .

الآن علموا أن كل ما أعطيتنى هو من عندك . لأن الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم ، وهم قبلوا وعلموا يقينا أنى خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت الذى أرسلتنى . يا رب لم يعرفك العالم أما أنا فقد عرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتنى .

ولف الحزن جبل الزيتون فقام عيسى وسار نحو وادى قدرون وسار تلاميذه مطرقين صامتين .

ودخلوا ضيعة وذهب عيسى يصلى لربه ، وسرعان ما نام حواريوه فراح عيسى يبتهل إلى الله فى صلاته :

— إلٰهى كتبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

واستمر فى دعائه ، ثم جاء حوارييه فوجدهم نياما فأيقظهم فقالوا له :

— والله ما ندرى ما لنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرا وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه .

فقال فى أسى :

— يذهب الراعى وتتفرق الغنم .

وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعاءه حتى ثقلت جفونهم فناموا .

وظل فى خشوعه فأرهفت حواسه ومس أذنيه صوت خافت أخذ يتضح ، إنه وقع أقدام تقترب ، فقام ينظر فإذا أضواء مصابيح ومشاعل ، غمر المكان الضوء فهب الحواريون من نومهم مرعوبين .

وتقدم الجنود الرومانيون يحملون سيوفهم وحولهم حشد من عبد رؤساء الكهنة والفريسيين ، فتقدم المسيح منهم وقال لهم :

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصرى .

و لم يكونوا يعرفونه ، أرسلوا ليقبضوا على رجل لم يروه قبل ليلتهم فقال لهم عيسى :

— إنى أنا هو .

فحمق قلب يهوذا فى جوفه ، ترى أيقبضون عليه ويقضى ملك المسيح ويظل هو فى شكه وقلقه ، أم يمر من بينهم دون أن يلقوا عليه الأيادى ويخرج من استسلامه ويأسه ويستأنف جهاده وكفاحه ، وفى ذلك تجديد شباب الدعوة التى لم تتفتح براعيمها ؟!

رجع الجنود إلى الوراء وسقطوا على الأرض ، فانشرح صدر يهوذا فهو يحس فى تلك اللحظة ذلك الظلام الذى تجمع فى صدره يقشع ، وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها .

ونظر عيسى إلى الجنود وهم ينهضون وقال لهم فى تحد :

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصرى .

— قلت لكم إنى أنا هو ، فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون .

وشهر بطرس سيفا وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه ، ونظر عيسى فوجد أنصاره أهون من أن يحموه فقال لبطرس :

— اجعل سيفك فى غمدك .

فوضع بطرس سيفه فى قرابه ، واتسعت عيون الحواريين رعبا فقال لهم عيسى :

— اذهبوا .

فانطلقوا فرارا لا يلوون على شيء وتركوا رسولهم الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور يحيط به جنود رومانيون غلاظ مدججون بالسلاح ، وبقى يهوذا يترقب خافق القلب مرعوبا ، فلو أن الرومانيين ألقوا القبض على عيسى لقتل يهوذا الشك والقلق .

وتقدم عيسى خطوات فرجع الجنود إلى الخلف وسقطوا على الأرض ، وانطلق عيسى بينهم دون أن يروه وذهب ليختفى ويتحقق قوله لتلاميذه : « بعد قليل لا تبصروننى ثم بعد قليل أيضا تروننى » .

وأحس يهوذا نورا ينسكب فى جوفه وهزته موجة من الفرح ، فقد عاد إلى الحوارى الذى أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى إيمانه الكامل ، وغسلت

روحه وتمحصت من شوائب الشك كما يتخلص الثوب من أدرانه إذا غسل بالماء .

وقام الجنود الرومانيون الغلاظ حانقين ونظروا فلم يجدوا إلا يهوذا واقفا فى الظلام وحده ، فهجموا عليه وأمسكوه يحسبونه عيسى . وأراد يهوذا أن يقاوم وأن يصرخ بهم أنهم أخطئوه ولكنهم انهالوا عليه بالسباب وأوسعوه ضربا ، ثم شدوا وثاقه فتيقن أن الله أنزل به البلاء ليجازيه على شكه الذى نبت فى حوبه بعد أن أوحى إليه الإيمان ، فلزم الصمت وعزم على ألا ينبس بكلمة ، وأن يتحمل التجربة القاسية ليتطهر ويستحق أن يجلس مع المسيح فى مملكة الله ويدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر كما قال له المسيح .

إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

٢٨

دخل الجنود وهم يقودون يهوذا إلى الهيكل وساروا إلى بيت رئيس الكهنة ، وسمحت لهم المرأة الواقفة عند الباب بالدخول . وأقبل بطرس الذى كان على البعد يقتفى آثارهم وأراد أن يدخل فرمته المرأة بنظرة فاحصة ثم قالت :

ــ ألست أنت أيضا من تلاميذ هذا الإنسان؟

فاضطرب بطرس وقال :

ــ لا . لست من تلاميذه .

وساق الجنود الرومانيون يهوذا إلى غرفة واسعة تضيئها المشاعل وقد جلس فى نصف دائرة فريسيون وكتبة . ورأس الاجتماع شيخ كبير أبيض الشعر هو حنان صهر رئيس الكهنة قيافا ، وساد الاجتماع قلق ؛ كانوا يخشون فى أعماقهم أن ينزل عليهم غضب من السماء وإن أخفوا ذلك وإن تظاهروا بالعبوس والتقطيب .

أرادوا أن ينتهوا من محاكمته سريعا وأن يصدروا حكمهم بموته ثم يفروا من ذلك القلق السارى فى المكان ، فقال له حنان :

ــ من هم تلاميذك ، وما هى تعاليمك ؟

فصمت يهوذا و لم يحر جوابا ، فصاح به حنان :

ــ تكلم .

ولكن يهوذا لم يحرك ساكنا ، فتقدم أحد الخدم ولطم يهوذا لطمة قوية

وقال له :

ــ جاوب رئيس الكهنة .

وبقى يهوذا ساكتا لا ينبس بكلمة ، وراح حنان يلقى عليه أسئلته ويهوذا غارق فى الصمت .

ودخل بطرس إلى الردهة الطويلة ، كانت الليلة شديدة البرودة فأوقد الجنود الرومانيون نارا يصطلونها فاقترب بطرس من النار ووقف ينعم بالدفء ، إذ وقف هناك فى القاعة القريبة من يحسبه سيده يحاكم أمام أعدائه ويحاسب حسابا عسيرا .

ورنا أحد الجنود إلى بطرس مليا ، إنه هو ذلك التلميذ الذى رفع سيفه وقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة ، فاقترب منه وقال له :

ــ ألست أنت أيضا من تلاميذه ؟

فاضطرب بطرس وقال :

ــ لا . لست من تلاميذه .

واقترب منه خادم من خدام رئيس الكهنة وقال له :

ــ ألم أرك معه فى البستان ؟

ــ لا . إنى لا أعرفه .

وانتهز بطرس فرصة تشاغلهم عنه بالنار التى كانوا يذكونها فانسل هاربا مغادرا الهيكل لينجو بنفسه .

ولم يتكلم يهوذا فضاق به حنان ذرعا وأمر أن يقودوه إلى قيافا رئيس الكهنوت ليرى رأيه فيه ، فانطلقوا به فى جوف الليل حتى إذا وقف أمام قيافا ظل فى صمته العميق .

كان قيافا رئيس كهنوت اليهود يرى أنه خير للأمة أن يموت واحد من أن

تقوم بسببه حرب أهلية بين بنى إسرائيل ، فكانت غايته أن يقتله ويستريح .
فراح يسأله وهو مطرق مستمسك بالصمت ، فأحس ضيقا وأراد أن ينتهى منه فأرسل يستدعى — وهو رئيس الكهنوت — شهود زور يشهدون عليه فلم يجد ، وأخيرا أقبل شاهدان وقالا :

— هذا قال إنى أقدر أن أنقض هيكل الله ، وفى ثلاثة أيام أبنيه .

فقال له قيافا :

— أما تجيب بشىء ؟ ما رأيك فيما يشهد به هذان عليك ؟

كان عيسى يقول إنه عبد الله ورسوله وقد كان ذلك القول مألوفا بين اليهود . فلو أنه قال إنه الله أو إنه ابن الله لكان من الميسور إدانته وقتله ، أما أنه رسول الله فما كان ذلك شيئا غريبا بين بنى إسرائيل .

ولو كان المقبوض عليه عيسى لقال إنه قال ما يتهمانه به ، فما كان لنبى أن يكفر بأقواله ، ولكن يهوذا لم يشأ أن يكذب فى لحظاته الأخيرة ، فظل ساكتا لا ينطق بكلمة ، فنفد صبر رئيس الكهنة فقال له :

— أستحلفك بالله أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟

— أنت تقول ذلك ، من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة وآتيا على سحاب السماء .

فقال رئيس الكهنة :

— لقد كفر فما حاجتنا إلى شهود ، ها قد سمعتم كفره .

والتفت إلى الفريسيين والكتبة وقال لهم :

— ماذا ترون فيه ؟

— إنه مستوجب الموت .

حكموا على يهوذا بالقتل وهم يحسبون أنه المسيح .

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . وابتسموا فى راحة ولكن : « الساكن فى السماء يضحك ، الرب يستهزئ بهم » .

وانقضى الليل وصاح الديك فتذكر بطرس قول عيسى له : إنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك ، فهام على وجهه يبكى وينتحب حتى كادت كبده تتصدع من البكاء .

وخرج يهوذا إلى الردهة بعد أن قرر المجتمعون استحقاقه للقتل ، فقام إليه الخدم والجنود يصفقون فى وجهه ويلطمونه ويصفعونه ويركلونه ويسددون اللكمات إلى وجهه ويضحكون مستهزئين ، ويهودا يتحمل إهانتهم فى صبر عجيب .

وساقوه إلى غرفة يحبسونه حتى طلوع النهار ، وأرادوا أن يقطعوا الوقت فحجبوا عينيه وتقدم إليه واحد منهم ولطمه وقالوا له هازئين .

— تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

وانعقد السنهدرين من الفريسيين الذين هتك المسيح رياءهم ، ومن الصدوقيين المتعجرفين الكافرين بيوم الدين ، ورأس الاجتماع قيافا رئيس الكهنة المتظاهر بالتقوى الضالع مع الهيروديين فى الفسق والفساد .

وجيء بيهوذا ومثل أمام أعضاء السنهدرين وقد غير الاضطهاد هيئته ، وقال له قيافا :

— إن كنت المسيح فقل لنا .

ماذا يقول يهوذا ؟ إذا قال لهم إنه المسيح كذب ، وإن قال لهم إنه يهوذا لم يصدقوه .

فقال لهم فى سخرية :

— إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبونى ولا تطلقونى .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله .

فصاح قيافا :

ـــ ما حاجتنا إلى شهود . سمعنا اعترافه .

وقام رؤساء السنهدرين وانطلقوا إلى قصر بيلاطس وكان قريبا من الهيكل ، ويهوذا مشدود وثاقه وحوله الجنود الرومانيون ، ودلفوا إلى القصر العظيم واستأذن قيافا رئيس الكهنوت فى الدخول إلى الحاكم الرومانى ، فلما أذن له قال :

ـــ جئنا بعيسى ذلك الذى أضل كل إسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة من الجليل حتى أورشليم ، و لم يكتف بدعواه بل راح يفسد الأمة ويحرض الناس على الامتناع عن دفع الجزية لقيصر ، زاعما أنه المسيح ملك اليهود .

كان بيلاطس يحب عيسى فقد سمع بآياته وتعاليمه ، فمال إليه قلبه وإن كتم ذلك عمن حوله . فطلب أن يحضروه ، فلما دخل يهوذا انفرد به وقال له :

ـــ سلمك الكهنة وشيوخ الشعب إلى يدى فقل الحق لأقيم العدل ، لأنى قادر على أن أطلقك وقادر على الأمر بقتلك .

فقال يهوذا :

ـــ إذا أمرت بقتلى ترتكب ظلما كبيرا لأنك تقتل بريئا .

واستمر بيلاطس يحاور يهوذا وهو يحسبه عيسى ، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وقال :

ـــ أية شكاية تقدمونها على هذا الإنسان ؟

ـــ لو لم يكن خطيرا ما دفعنا به إليك .

وراحوا يكيلون له التهم ويهوذا صامت لا ينبس بكلمة ، حتى تعجب

بيلاطس فقد كانت اتهاماتهم تقطر عداوة وإن كانت بعيدة عن الحق ، فلم يجد فيها بيلاطس الوالى الرومانى ما يستوجب القتل .

وفطن رجال السهدرين ورؤساء الكهنة إن بيلاطس يفكر فى إطلاقه فقالوا له .

— إذا تركت هذا الجليلى فلست محبا لقيصر . كل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر .

فلما سمع بيلاطس لفظة الجليلى قفزت إلى رأسه فكرة ليخرج من ذلك الحرج :

— هل الرجل جليلى ؟

— نعم .

— أرسلوه إلى هيرود فهو من رعاياه ليرى فيه رأيه .

وخرج الكهنة وشيوخ إسرائيل ويهودا والجنود الرومانيون وانطلقوا إلى هيرود ، فقد كان فى أورشليم فى العيد .

ودخل قيافا ورؤساء الشعب على هيرود وقالوا :

— جاء من الجليل من يزعم أنه نبى وراح يفسد الناس ويغريهم بعدم دفع الضرائب إلى قيصر ، وقد حاكمه السنهدرين وأصدر حكمه بقتله ، ولما كان من رعاياكم فقد أرسلنا الوالى إليكم .

وجىء بيهودا مشدودا وثاقه فرماه هيرود بنظرة سريعة فاحصة . كان يخشى أن يكون يحيى قد قام من الأموات ، ولما لم تكن فى وجهه صرامة يحيى ، فملامحه لا توحى بما كانت توحى به ملامح النبى الخشن من رهبة ، فقد سكنت الطمأنينة قلبه .

وأصغى هيرود إلى الفريسيين والصدوقيين الذين كانت الاتهامات تتدفق

من أفواههم تقطر عداوة ومقتا ، حتى إذا ما انتهوا من مفترياتهم التفت هيرود إلى يهوذا وقال له :

ـــ ما تقول أنت ؟

و لم يحر جوابا فقال له هيرود :

ـــ زعمت أنك رسول الله ، فإن أردت أن يصدقوك فأت بآية إنا منتظرون .

و لم يفتح يهوذا فمه ، وانقشعت مخاوف هيرود فعاد إلى طبعه الماجن وراح يسخر من يهوذا ، وبعث إلى رجال قصره ليشاركوه فى الزراية بالرجل والتهكم عليه فقد وجدوا فيه مادة لعبثهم البغيض . وأخيرا أمر أعضاء السنهدرين أن يعودوا إلى بيلاطس وكتب له :

ـــ أقم العدل فى بيت إسرائيل .

وعاد رجال السنهدرين إلى بيلاطس برسالة هيرود ، فالتفت بيلاطس إلى يهوذا فألفاه مكدودا فراح يحاوره ، ثم التفت إلى رجال السنهدرين وقال :

ـــ قدمتم إلىّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وهأنذا قد فحصت عنه قدامكم و لم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشكون به عليه، ولا هيرود أيضا لأنى أرسلتكم إليه، إنه لم يفعل ما يستحق عليه القتل فدعوه لى أؤدبه وأطلق سراحه.

فارتفعت أصوات الفريسيين والصدوقيين :

ـــ اقتله . اقتله .

وراح قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يغذون ثورة الشعب ، فراحت الحناجر تهتف بالوالى الرومانى :

ـــ نريد قتله .. نريد قتله .

ـــ لم يفعل ما يستوجب القتل .

ــ اقتله . اقتله .

وصمت بيلاطس قليلا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التى حركها أعضاء السنهدرين ، واستحاب لها خدام الهيكل والجماهير التى تنتقل إليها عدوى الثورة أو عدوى الرضا دون أن تدرى لماذا ترضى ولماذا تثور . بيد أن الثورة لم تخمد ، ارتفعت الأصوات تطلب صلبه .

وأخذ عسكر بيلاطس يهودا ليعذبوه ويجلدوه قبل أن يصلبوه، فانهالت عليه الضربات وهو يئن كوحش جريح ، ثم ضفر الشعب الثائر إكليلا من الشوك وتوجوه به وهم يسخرون من ملك اليهود .

وسار ركب الموت فى طريقه إلى جلجثا ، كان قائد رومانى يعتلى صهوة حصان أبيض ، وثلاثة رجال يحملون صلبانهم ، وحفنة من الرجال الرومانيين حولهم ، وجمع من الناس ينطلقون فى أثرهم ليشاهدوا الصلب تزجية للوقت فى العيد . كانوا ثلاثة يئنون تحت ثقل الصليب ، يهودا ولصين حكم عليهما بالصلب معه ، وكان يهوذا أكثرهم ضعفا ، كان مجهدا محطما مزقته السياط والمحاكمات .

وبلغوا المكان وثبتت الصلبان فى الأرض ، وجىء بالرجال الثلاثة وخلعوا عنهم ثيابهم ، ثم رفع الرجال وفى وسط أكفهم دقت مسامير لتثبتهم فى خشب الصلبان .

وراح الوقت يمر وئيدا ويهودا على الصليب يئن من العذاب ، وبدأ همس الرجال الذين لم يؤمنوا بعيسى فراحوا يقولون :

ــ خلص آخرين وعجز عن أن يخلص نفسه .

ــ إن كان هو المسيح ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب لنرى ونؤمن

وضع يهوذا من آلامه ، وتذكر أن الله يعذبه للشك الذى خالط إيمانه ، فحقد على نفسه وصرخ :

— إيلى إيلى لم شبقتنى ؟! (إلٰهى إلٰهى لم تركتنى ؟!) .

ساءه أن يتركه الله يتردى فى الشك حينا . كانت تجربة قاسية دفع ثمنها غاليا صابرا .

وصرخ يهوذا صرخة أعقبها صمت مطبق فقد أسلم الروح ، ومات الموتة الأولى ولم يذق بعدها الموت ، فقد خلص من أدران الشك ليحيا مع المسيح إلى الأبد .

واستحق يهوذا أن يكون مع المسيح وحوارييه يدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر ، كان من المتقين الذين أرسلهم عيسى إلى بنى إسرائيل يبشرون باسمه ويدعون الناس إلى ملكوت الله ، وكان من الذين أوحى الله إليهم أن آمنوا بى وبرسولى وكان من المبشرين بالجنة . مسه طائف من الشيطان فلما تذكر إذا هو مبصر فقدم نفسه راضيا عن سيده ليتطهر فتاب الله عليه ، فقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم .

وبقى المصلوب فى الظلام بين حفنة من النساء الباكيات النائحات ، وأما حواريو المسيح فقد ولوا الأدبار مفزوعين ولو أنهم فهموه لما شكوا فيه ولتيقنوا أنه لم يصلب بل صلب غيره ، فقد قال لهم : « كلكم تشكون فى الليلة » ولو أصاخوا السمع لرن فى آذانهم قوله مؤكدا نصره على أعدائه من سنهدريين وصدوقيين وفريسيين :

— إنى قد غلبت العالم .

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما.

٢٩

كانت أسواق مملكة النبط عاصة بالبضائع الواردة من أثينا وروما وبابل ودمشق، وراح الناس يستخدمون عملة جديدة عليها صورة هرثمة الرابع محب شعبه وزوجته الثانية شقيلة، بعد أن كانت العملة القديمة عليها صورته وصورة زوجته الأولى حلد، أم زوجة أنتيباس هيرود التى ثارت لكرامتها عندما عاد زوجها أنتيباس هيرود من روما بعد أن أغرى زوجة أخيه هيروديا بأن تفر معه.

وكانت معابد الآلهة ذى الشرى ومنوتن واللات وهبل وقيس غاصة بالناس، وإن كانت قلوبهم خاوية من الإيمان بعد أن امتلأت خزائنهم بالذهب والفضة، وراحوا يحاكون الرومان فى الأبهة والعظمة فبنوا الملاهى ونحتوا فى الصخر مسرحا عظيما لنحو أربعة آلاف متفرج، وقوس نصر.

وأطلقوا على رب الأرباب «الله» بعد أن كان يعرف منذ أيام إبراهيم الخليل بالإيل، وقد نسب إليه إسماعيل وإسرائيل وصارت من الأسماء المعروفة فى أرض النبط سعد الله وتيم الله.

ولما بعدت الشقة بينهم وبين عدنان بن أدد ذلك الزعيم الجليل الذى وقف فى حصوراء فى وجه بختنصر، ونجح فى أن يصد هجومه وأن يمحو عن جبين العرب جميعا معرة خضوعهم لبختنصر، فقد ارتفع شأنه حتى كاد يقترب من الأرباب، فسمى النبط أبناءهم بعبد عدنان.

وكان صدر هرثمة الرابع ملك النبط يضيق بالحنق على أنتيباس هيرود، مذ ذلك اليوم الذى عادت إليه فيه ابنته غاضبة من زوجها الفاسق الذى جاء بزوجة أخيه إلى فراشها.

كانت قوارع يحيى التى يوجهها إلى أنتيباس هيرود تجد أطيب الأثر فى

نفس هرثمة ، وكان هرثمة يمنى النفس بثوره الجليليين على ملكهم الذى خرق الناموس وتزوج زوجة أخيه فيلبس وفيلبس حى لم يطلق زوجه، ولكن اليهود استكانوا للمهانة و لم يقد الفريسيون المراءون والصدوقيون المتطعون ثورة على من داس مقدساتهم بالأقدام .

وفقد هرثمة الأمل فى ثورة الشعب اليهودى على أنتيباس هيرود الفاسق ، لما قدم هيرود رأس يحيى البار إلى سالومى ابنة هيروديا فى طست من الفضة مكافأة لها على استجابتها لرجائه ورقصها فى حفل عيد ميلاده ، و لم تشتعل الثورة لدم النبى الطاهر الذى سفح على مذبح الشهوات .

ووجد هرثمة أنه لا بد أن يثأر لكرامة ابنته بنفسه ، وأن لا أمل يرجى من ثورة اليهود على ملك الجليل بعد أن ظلم هيرود المسيح وبعث إلى الحاكم الرومانى يطلب قتله ، وقد تهلل الشعب اليهودى بالفرح لذلك الظلم المبين ، فانتهز فرصة خلاف على الحدود بينه وبين أنتيباس هيرود زوج ابنته الذى أهدر كرامتها ، وأعلن عليه الحرب وجيش الجيوش لقتال اليهود .

والتقى النبط باليهود فى جلعاد ، ودارت معركة انتصر فيها هرثمة على هيرود انتصارا كبيرا ،وتشتتت الجيوش اليهودية وخشى هيرود أن يقتفى هرثمة أثره ويضربه الضربة القاضية ففزع هيرود إلى سيده وحاميه قيصر روما .

لم يحب أغسطس قيصر من زوجته الأولى ، فلما تزوج ليفيا كان يأمل أن تلد له ولدا يتنشئه ويعلمه أساليب الحكم ، ولكن ذلك الزواج كان عقيما كسابقه وإن كانت ليفيا قد أنجبت لزوجها الأول طيباروس ودروسس .

وكان أغسطس قيصر يحب دروسس بينما كان يحترم طيباروس ولا يحبه .

ومات دروسس وهو فى شرخ الشباب فحزن أغسطس قيصر عليه ، وزاد فى حزنه أن طيباروس كان صلفا معتدا بنفسه ينزع إلى الكآبة والانطواء . ولما كان لا بد أن يربط بينه وبين من سيعتلى عرش روما من بعده فقد زوجه ابنته يوليا .

وكانت يوليا تمقت ذلك الزواج فأخذت تنتقل من عشيق إلى عشيق ، وانزوى طيباروس بينما كان أغسطس قيصر يعانى فى شيخوخته من عبث ابنته وتفكك أسرته ، مما اضطره إلى أن ينفى ابنته من البلاد .

* * *

وانتهت مأساة حياته بكلمات طالما انتهت بها الملهاة الرومانية :

ـــ الآن وقد أتقنت تمثيل دورى فصفقوا ، وأخرجونى من المسرح بتصفيقكم .

ثم عانق زوجته وقال :

ـــ تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليفيا .

ومات أغسطس قيصر وتولى طيباروس رياسة الدولة الرومانية وقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره وكره المجتمع ، لم يعد يرى فى السلطان سعادة ، فعرض على مجلس الشيوخ أن يعيد الجمهورية ، ولكن أعضاء مجلس الشيوخ ما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة وهو يقول :

ـــ إنها استرقاق مبهظ مذل .

وتولى طيباروس الحكم وهو يبغض الملكية لذلك سمى نفسه « زعيم الشيوخ » ، وكان يمقت الملق فلما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى شهرا باسمه كما فعل مع يوليوس قيصر وأغسطس قيصر ، رفض ذلك وقال فى سخرية :

— وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصرا ؟

فلما فزع هيرود إلى سيده وزعيمه طيباروس والتمس منه أن ينجده من عدوه هرثمة الرابع ، نسى كل حكمته وبعث إلى عامله على سورية فيثلوس أن يسير على الفور بجيشه لمحاربة هرثمة ، والقبض عليه حيا أو ميتا وإرساله مكبلا بالسلاسل إلى روما أو إرسال رأسه إليه إن قتل .

وبلغ هرثمة أوامر طيباروس فغضب على الرومان وتأهب لقتال فيثلوس وهيرود ؛ الرومان واليهود الذين استكانوا لهم ، وكانت غضبته عارمة فأعد جيشا لم يخرج مثله من البتراء صخرة العرب .

وأعد فيثلوس العدة للقتال ، وخرجت جيوش الرومان من سورية لتأديب النبط على حربهم لحلفاء روما ، وبينما كان فيثلوس فى الطريق جاءت الأنباء بوفاة طيباروس ، فرأى فيثلوس أن يقفل راجعا بجيوشه دون أن يقاتل العرب .

ولم تطفئ وفاة طيباروس الثورة المتأججة فى صدر هرثمة بل شجعته على أن يسير إلى دمشق ، لتحريرها من الرومان ونزع النسر الرومانى من فوق دور الحكومة وأماكن العبادة .

وسارت الجيوش العربية إلى دمشق ، ودار القتال حولها بين فرسان العرب وفرسان الرومان واستبسل النبط فى القتال وكانت أسلحتهم كأسلحة الرومان ، ولكن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان بالنصر فما لبثوا أن ظهروا على أعدائهم ، واضطر الرومان إلى التقهقر وإغلاق أبواب دمشق فى وجه العرب الثائرين .

وطال الحصار وألقيت السهام والحجارة من فوق الأسوار ، وجاء النبط بالسلالم الخشبية الطويلة وبعد تضحيات جسيمة تمكنوا من أن يثبتوا السلالم على أسوار دمشق وصعد فيها الجنود العرب كالجرذان ، ودارت رحى معركة حامية فوق الأسوار انتصر فيها أحفاد نابت بن إسماعيل ، وسرعان ما فتحت أبواب دمشق للعرب الذين تدفقوا منها تطل من أسيافهم المنون .

وتقهقر الرومان مذعورين ثم داروا على أعقابهم مدبرين ، واستتب الأمر لحرثمة الرابع ملك النبط . وعادت دمشق مرة أخرى فى حوزة ملوك البتراء .

وساء موقف هيرود ، إنه إستنجد بالرومان فكان وبالا عليهم ، ففقدوا دمشق بسببه وأصبح عدوه اللدود فى موقف يمكنه من أن يبطش به دون أن يخشى قياصرة روما . ترى أيعاود هيرود الالتجاء إلى روما بعد أن أصبح كاليجولا سيد الرومان ؟

كان طيباروس قد بعث قبل موته بصنم من ذهب على صورته ليسجد له اليهود ، فلما حمل بيلاطس الصنم إلى القدس ليوضع فى الهيكل ثار اليهود فى القدس وفى الجليل ، واضطر هيرود أنتيباس أن يعلن غضبه إرضاء للفريسيين والصدوقيين والشعب المتمسك بحرفية الناموس وإن أشرك بالله وعبد معه أرباب الوثنيين .

وبعث الرومان جيوشهم لإخماد تلك الثورة ، فانهزمت جيوش اليهود وقبض القائد الرومانى على أنتيباس هيرود وحمله مقيدا إلى روما ، ثم نفى إلى الأندلس ليموت هناك ، وخمدت تلك الجذوة اليهودية التى أشعلها هيرود الكبير فى ظل الحكم الرومانى ، وانقرضت دولة اليهود .

٣٠

مدينة طرسوس تطل على البحر الأبيض الذى طالما جرت فيه معارك بين الفرس واليونان والرومان وقراصنة البحار ، إنها تقوم على سهل تجرى فيه الأنهار فيهرع الناس إلى حدائقها لينعموا بالراحة والدعة بعد عناء وشقاء الأيام .

جاءت إليها كليوباطرة وقابلت أنطونيو ليعيشا فى قصة غرام ملتهب ، وجاء إليها يوليوس قيصر وأغسطس قيصر من بعده ، وراح يتدفق فيها فلاسفة اليونان والرومان وجنود القيصر ويهود لا هم لهم إلا جمع الذهب وإرساله إلى أورشليم إلى هيكل سليمان ، ووثنيون من أهل البلاد يتحدثون الآرامية ويعملون فى التجارة خضعوا ككل سكان سورية إلى سلطان روما ، تجبى منهم الضرائب لتحمل إلى إيطاليا عن يد وهم صاغرون .

وغص السهل المنبسط بالناس فقد كان اليوم عيد بعل إله المدينة بل رب الأرباب فى سورية كلها ، وراح الناس يشرئبون بأعناقهم يتطلعون إلى حيث يخرج موكب الإلٰه خافقة قلوبهم شاخصة أبصارهم يسرى فى صدورهم خوف من رهبة وطمع فيما عنده من رزق كريم .

وكان بين الجموع شاول اليهودى الصغير ، كان فى الثالثة عشرة من عمره أسود العينين غزير شعر الحاجبين مقوس الأنف مقوس الساقين ضئيل الجسم ، ولم يكن قد عرف بعد ببولس .

وظهر موكب الإله ، كان بعل على عربة قد ركب أسدا وزينت العربة بالزهور ، فارتفعت أصوات الناس بالابتهالات حتى عطت على صلوات الكهنة . وراح شاول يتلفت فى خوف ويقاوم تلك الرغبة الملحة التى تدعوه إلى أن يقف بين الناس يشاهد الموكب ، وسرعان ما رأى بعين خياله أباه الفريسى المتزمت وهو ينهاه عن مشاهدة أعياد الوثنيين ، ويهدده بعذاب يهوه إله اليهود الغيور الذى يأبى أن يعبد فى الأرض غيره ، ففزع وراح يعدو إلى البيت كأنما يجرى فى أثره شيطان .

كان بولس يتحاشى معابد الوثنيين وكان يختفى فى جوف الدار فى أعيادهم حتى لا تقع عيناه على أوثانهم وأصنام آلهتهم ، يصغى إلى نصائح أبيه وتمجيده للآباء ، فقد ماتت أمه وهو لا يزال صغيرا ، وعلى الرغم من حرص بولس على مقاطعة أعياد الوثنيين فقد كان يسمع قصة بعل آناء الليل وأطراف النهار .

كان بعل يسير فى الأرض يدعو الناس إلى التقوى والصلاح قبل أن يبعث الله إبراهيم رسولا ، وقد كان له أعداء ككل مصلح فى الأرض فتربصوا به حتى قبضوا عليه وساقوه أسيرا إلى المحكمة . وبعد أن انتهت محاكمته وحكم عليه بالموت انهال عليه الجنود بالضرب ، ثم قادوه إلى الحبل بعد أن أطلقوا سراح مجرم حوكم معه وأخذوا معه مجرمين ، وما لبث أن تهدمت المدينة يوم نفذ فيه الحكم وأخذت ملابسه ، وقد راحت امرأة تبكى عند قبره وسرعان ما قام من الأموات وارتفع إلى السماء ليصبح إلها يدين البشر .

غرست قصة بعل فى ضمير بولس كما غرست تعاليم أبيه الفريسى الذى كان يرددها على مسامعه صباح مساء : « اليهود هم الناس يا بنى ، أما ما عداهم أنعم ، إنهم شعب الله . أرض فلسطين أرض الله . إنها أول أرض خلقها

ثم خلق سائر الأرض بعدها ، لقد أمطر الله بنفسه أرض فلسطين وبعث المياه إلى ما عداها من الأرضين . إن الذى يسكن فى فلسطين يسكن مع الله أما الذى يسكن خارج فلسطين فيعيش بلا إلٰه » .

وراح أبوه يؤنبه إذا ما كسر السبت بحمل ورقة أو التقاط شىء من الأرض ، فشب بولص وهو يرتجف فرقا من أن يرتكب خطيئة مما نهى عنها الناموس اليهودى ، وكانت نفسه تهفو إلى أورشليم التى يغفر الله فيها الذنوب جميعا .

كان بولس يحترم بروحه قانون الله وكان جسمه يخضع على الرغم منه إلى قانون الخطيئة ، فكان إذا ارتكب أخطاء طفيفة يشعر بالذنب ويتألم ضميره ويؤنبه ، فعاش فى صراع دائم بين رغبات النفس ونواهى الناموس الذى زاد فى صرامته تنطع الفريسيين والصدوقيين والكتبة .

وبلغ السابعة عشرة وتحقق حلمه الذى كان يغذيه أبوه الفريسى الذى تجسدت آماله فى أورشليم وهيكل سليمان المقدس ، فانطلق بولص مع قافلة من القوافل الذاهبة إلى بيت المقدس ليكون مع يهوه ، فى كنفه وحمايته ، فقد لقنه أبوه أن الذى يعيش خارج فلسطين فهو يعيش بلا إلٰه !

كان بولص يعتقد أنه من نسل بنيامين ، وكان الدين يسرى فى وجدانه مسرى الدم ، فهو منذ أن ميز بين ما يسمع كان يلقن التفرقة بين الحلال والحرام فى عرف الفريسيين المتزمتين ، والتفرقة بين اليهود وسائر الأمم ، والامتياز اليهودى على العالمين ، فشب وهو يعبد ذاته كأقرانه من اليهود ، يؤمن بيهوه وإن غرست فى قرارة نفسه أساطير الوثنيين السوريين .

وبلغ أورشليم وهو يحس إحساس الحاج الوافد إليها ليتطهر من ذنوبه

جميعا ، ونظر إليها وهى تتألق على قمة الجبل فغمرت عواطفه نشوة روحية هزت كيانه ، فلم يعد يحس إلا أنه فى مدينة الله وأنه يسرى فى الجنة التى أعدت للمتقين .

والتحق بالهيكل يتلقى العلم على أيدى كهنة اليهود ، ولم تتح له فرصة أن يلقى سمعه إلى المسيح وهو يعظ الناس فى الهيكل ، ولم يصعد إلى الجليل مع المسيح وحوارييه ليصغى إلى خطبة الجبل ، ولم يذهب إلى محكمة بيلاطس ولم تقع عيناه على الصليب والمصلوب ، فما أقل الناس الذين شاهدوا ذلك الحدث الذى تم بليل على مشاعل بعض الجنود .

وراح بولص يصغى إلى الكهنة وهم يقولون : لا حكم إلا لله وأن كل يهودى يخضع لحكم الرومان فهو عدو الله . وما كان الكهنة فى ذلك الوقت يهاجمون النصارى فهم قلة يقولون أن لا إله إلا الله وأن عيسى مسيح الله ورسوله ، فشب بولص وهو يمقت حكم الرومان ويعكف على قراءة التوراة حتى حفظها عن ظهر قلب .

وكان يهود أورشليم ينظرون إلى النصرانية على أنها فرقة من فرق اليهود وما أكثرها فى اليهودية فى ذلك الوقت ، فرقة لا تختلف فى كثير عن « الأسيين » وهى طائفة متشددة فى رعايتها للأحلام الدينية ، طائفة تطهرت من أدران المطامع والشهوات ، المادة عندهم مصدر الشر كله والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ، ويؤمنون بالبعث ورسالة المسيح المخلص ، يعتقدون أن الخلاص بعث روحى يهدى الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح .

فرقة لا تختلف عن المغتسلين أو المسحاء بالزيت أو الساتيين أو الزهاد الذين اعتزلوا العالم وشروره وعكفوا على عبادة الله والأنس به ، فرقة تؤمن أن

عيسى هو المسيح المنتظر بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ليعيدهم إلى الدين القيم ، إلى الشريعة السمحة .

كان بطرس ومتى والحواريون والمؤمنون الأوائل يعرفون « بالمسيحيين » ، وكانوا يدعون بما كان يدعو إليه المسيح ، العدل والرحمة والحق ، ويهاجمون الأغنياء الذين لا ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ويزهقون باطل الوثنية التى انتشرت بين بنى إسرائيل ، ويهاجمون نفاق الكهنة والكتبة ورجال الدين وتقديم القرابين ، فقد كان قول السيد المسيح : « جئت لأمحق القرابين »[1] يرن فى آذانهم ، وقد استقر فى وجدانهم كما استقرت تعاليمه البسيطة التى تدعو إلى عبادة الله وحده .

كان المسيح يدعو إلى أن الله لا ينال لحوم الأضاحى وأن التقوى أفضل من القرابين ، فلم يكن كالكهنة يمجد الأضاحى ، ولم يقل إنه جاء ليضحى بنفسه — وهو الذى جاء يمحق القرابين — ليمحو خطيئة آدم ، فقد كان على علم بأن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه .

كان الكهنة والكتبة والفريسيون والصدوقيون يمقتون المسيح وأتباعه لأنهم كانوا لا يوقرون الهيكل توقير اليهود المترمتين ، فقد كان المسيح والحواريون يهاجمون تقديس اليهود للهيكل وقسمهم بذهبه ، وكان ذلك شائعا بينهم ، وكان المسيح وأتباعه الأوائل يرون أن الأرض كلها معبد الله وأن الله مع الذين فى أورشليم والذين يعيشون خارج أورشليم ، فالله ملك الناس

(١) ذكرت فى إنجيل النصارى المكتوب بالآرامية كما جاء فى كتاب :
The Jew of Tarsus, By Hugh P. Schonfield.

رب العالمين ، وزاد فى حنق الكهنة ورجال الدين أن المسيح تنبأ بزوال الهيكل ، وأن حوارييه صرحوا برغبتهم فى حرق ذلك الهيكل الذى اتخذه رجال الدين وكرا لسلب الناس الأغنياء والفقراء على السواء ، وإجراء مراسيم للعبادة ما أنزل الله بها من سلطان .

ثار الكهنة لوظائفهم الكهنوتية ، وثار اليهود المتعصبون لفكرة أن الأعياد ستبطل فى الهيكل ، وثار الرومان لدعوة الفقراء إلى الثورة على دولة الأغنياء .

وكان اليهود يجتمعون خارج الهيكل فى المجامع وهى دور للعبادة وتلقى العلم ، وكانت المناقشات الدينية تحتدم فى تلك الدور بين سواد الشعب فقد كان اليهود مولعين بالمناظرة ، وقد كانت تقوم فى تلك المجامع مناظرات عاصفة تؤجج الخلافات بين طوائف اليهود من قرائين وربيين وكتبة وآسينيين ، وكان للمسيحيين الأوائل مجامع كتلك التى لليهود يتدارسون فيها أمر دينهم .

وكان بولص يمضى وقته بين العبادة فى الهيكل وإدارة المناقشات فى مجمع من تلك المجامع اليهودية المنتشرة فى أورشليم ، وقد حفظ بولص التوراة وراح يستشهد فى محاوراته بإصحاحاتها استشهاد خبير .

واضطهد بولص المسيحيين الأوائل اضطهادا قاسيا لا رحمة فيه كان سببه تعصبه المقيت ليهوديته ، وأنه كان يحلم بأن يكون هو المسيح الذى يترقبه اليهود ، وكان بولص صاحب شخصيتين : شخصية متزمتة متعصبة للجنس اليهودى ، وشخصية أنانية مزهوة بنفسها تحلم بالقوة والسيطرة الدينية على طوائف اليهود من صدوقيين وفريسيين وكتبة وملل ونحل ذهبت فى كل طريق .

لم يتورع بولص عن قتل بعض المؤمنين المسيحيين وعن الإمعان فى تعذيب آخرين . وقد بلغ به حقده على المسيحية والمسيحيين أن ذهب إلى رئيس الكهنة يلتمس منه أن يبعث معه رسائل إلى دمشق تحرّض على قتل من اعتنق المسيحية ، وقد وعده أن يسوق المسيحيين الذين يلتقى بهم فى الطريق إلى أورشليم زمرا مكبلين فى القيود .

وذهب بولص إلى دمشق وعاد منها إلى أورشليم ومشى إلى الحواريين كالحمل البرىء ، ولكن الحواريين كانوا يهابونه لغلظ قلبه وقسوته على المؤمنين الأوائل ، وكانوا يتحاشون الدنو منه والإصغاء إلى دعواه العريضة .

وذات يوم ألقى برنابا إليه سمعه فراح بولص يقول :

ــ لما اقتربت من دمشق أبرق نور من السماء حولى بغتة فسقطت على الأرض ، وسمعت صوتا يقول بالعبرية : « شاول .. شاول ! لماذا تضطهدنى ؟ » فقلت : « من أنت يا سيد ؟ » فقال : « أنا الرب . أنا يسوع الذى تضطهده » فقلت وأنا أرتعد من الخوف : « يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ » فقال لى الرب : « قم وادخل المدينة فيقال لك ما ينبغى أن تفعل » .

ووقف الرجال المسافرون معى صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحد ، فنهضت عن الأرض وكنت مفتوح العينين لا أبصر أحدا ، فاقتادونى وأدخلونى دمشق ، ومرت ثلاثة أيام لا أبصر فلم آكل و لم أشرب .

وكان فى دمشق تلميذ اسمه حنانيا ، فقال له الرب فى رؤيا : « يا حنانيا ! » فقال : « هأنذا يا رب » . فقال له الرب : « قم واذهب إلى الزقاق الذى يقال له المستقيم ، واطلب فى بيت يهوذا رجلا طرسوسيا اسمه شاول ، لأنه هو ذا يصلى . وقد رأى فى رؤيا رجلا اسمه حنانيا داخلا واضعا

يده عليه لكي يبصر » . فأجاب حنانيا : « يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسيك بأورشليم وههنا ، له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يدعون باسمك ، فقال له الرب اذهب لأن لى إناء مختارا ليحمل اسمى أمام أمم وملوك وبنى إسرائيل ، لأنى سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمى » .

فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع على يديه وقال :

« أيها الأخ شاول قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك فى الطريق الذى جئت فيه لكى تبصر وتمتلئ من الروح القدس » فوقع من عينى شىء كأنه قشور فأبصرت فى الحال .

وفرح برنابا بذلك الذى جاءه تائبا بعد أن كان عدو المسيحيين اللدود ، و لم يحاول أن يتحقق من صدق مزاعمه ، يكفيه أنه جاء يعلن إيمانه وما قال بعد قولا يخالف ما يقول به الحواريون ، فإن كان قد قال : « رأيت الرب » فقد كانت الرب تعنى عندهم المعلم وما كانت تعنى الله الواحد القهار العظيم المتعال ، سبحان الله عما يصفون .

وانطلق برنابا وبولص إلى حيث كان الحواريون ، كان برنابا يحسب أنه يحسن صنعا بجمع بولص ببطرس ومتى ومرقص وفيلبس وسائر الحواريين ، وكان بولص منشرح الصدر فقد كان يطمع فى أن يكون المسيح ، وها هو ذا قد صار رسوله إلى المؤمنين ، وإنها لمنزلة رفيعة تشبع أنانيته وحب السيطرة الذى يملأ جوانحه .

وساح برنابا وبولص فى الأرض يدعوان الناس معا إلى الله وكانا يختلفان فى النشأة والمشرب ، فبرنابا حوارى تلقن الدين من فم المسيح ، بينا لم يشهد

بولص المسيح و لم تنعم أذناه بحكمته و لم يفهم سر دعوته .

كان برنابا مؤمنا صادقا ، وكان بولص قد ملىء غرورا يطمع فى أن يملأ كرسى المسيح وحده وأن يكون الداعية الأول للدين الجديد ، لا حبا فى الدعوة وانتشارها بل حبا فى الاستئثار بالمجد والسلطان .

واختلف برنابا وبولص فقد كان بولص يحفظ التوراة وكان يستشهد بها لتفسير أحداث وقعت للسيد المسيح ، وكانت أكثر استشهاداته بالمزامير ، وما كان برنابا يستريح إلى تفسير بولص فكانت المناظرات تقوم بينهما وكثيرا ما كان برنابا يثور على تطرف بولص فى التفسير والتأويل .

وقال بولص فيما قال : إن المسيح جاء ليصلب ويضحى بنفسه ليمحو خطيئة آدم . وراح يتحدث عن الفداء وعن الخطيئة الموروثة ، وثار برنابا على قول بولص فقد كان برنابا على يقين من أن المسيح لم يصلب وأنه جاء ليمحق الفداء والقرابين ، وأن دعوة بولص إن هى إلا سخرية بالمسيح ، فقد جعل عدو الفداء والقرابين أعظم قربان فى العالم !

وقامت مشادات بينه وبين الحواريين و لم يأبه بأقوال من أوحى الله إليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، واستمر فى دعوته يستمد أقواله من أسطورة بعل التى حفرت فى ضميره ، فقال إن المسيح قام من الأموات كما قام بعل إله الوثنيين قبله ، وأنه فى السماء يدين الناس ويحكم بينهم .

وأقبل الناس عليه يصغون إلى أسطورتهم تروى عليهم بأسلوب جديد ، فقد صار بعل المسيح وصار المجرم الذى أطلق سراحه بعد المحاكمة « باراباس » وصارت المرأة التى شاهدت قيام المسيح من الأموات مريم المجدلية ، لم يجد الناس فيما يقول بولص شيئا غريبا فقد ردت إليهم معتقداتهم

بعد أن كان المسيح وحواريوه يسفهون أحلامهم .

و لم يفهم بولص سماحة الإسلام الذى دعا إليه المسيح ، فقد جاء الرسل جميعا ليقولوا للناس : كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولكن بولص كان يهوديا متعصبا لجسه فكان يقول فى فخر معيرا بنى إسماعيل : لسنا أولاد جارية . و لم يفهم أن من أراد أن يتفاخر فليتفاخر بالتراب ! فكلنا لآدم وآدم من تراب !!

كان هناك احتفال فى السنة الرومانية يحل فيه العبيد مكان ساداتهم لبضع ساعات ينعمون فيها بما ينعم به السادة ، ولكن لم يكن الحال كذلك مع السيد المسيح وبولص ، فإن بولص سلب كرسى المسيح إلى أن يأتى ذلك النبى الأمى الذى سيعيد إلى رسل الله وأنبيائه كرامتهم التى أهدرها من كتبوا الكتاب بأيديهم ، ثم قالوا : هذا من عند الله .

٣١

انتشر الحواريون فى إسرائيل والجليل واليهودية والسامرة يدعون بنى إسرائيل إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام وتقديس الهيكل ، ذلك التقديس الذى جعله غاية العبادات لا مكانا يذكر فيه اسم الله .

وكان اليهود يضيقون بدعوتهم وينكرون أن عيسى ابن مريم هو المسيح ، فقد كانت عقيدتهم فى المسيح أنه سيأتى بمملكة أرضية تعيد مجد بنى إسرائيل ، وقد زاد تلهفهم على تلك المملكة بعد أن دانوا للرومان وأرغموا على أن يدفعوا الجزية لقياصرتهم ، فلما جاء المسيح وقال إن مملكته ليست من هذا العالم أعرض اليهود عن دعوته ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ولم يلقوا السمع إلى حوارييه .

وكان الحواريون يلقون المواعظ فى مجامع اليهود ، وكانت المناظرات تقوم بين المسيحيين الأوائل وبين طوائف صاخبة عاصفة ، بيد أن اليهود لم يجدوا فيما يدعو إليه الحواريون ما يخدش ناموسهم ، فقد كانوا يستشهدون بالتوراة ويقتبسون منها ويقدسون أنبياء بنى إسرائيل ولم يدعوا مع الله إلٰها آخر .

وذات يوم قال بطرس إن الله يقبل الأمم كما يقبل بنى إسرائيل ، وأن لا فضل لإسرائيلى على أممى إلا بالتقوى ، فأغضب ذلك القول اليهود لأنه سلب منهم الامتياز الذى كانوا يعيشون عليه واهمين ، فقد كانوا موقنين أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الذين سيامون فى حضن إبراهيم ، وإذا بشيخ الحواريين

يجعلهم أمام الله كالأمم سواء بسواء .

غضب اليهود من دعوة بطرس الجديدة ولكنهم لم يجدوا فى أقواله ما يجعلهم يقيمون عليه الحد ، فلم يشرك مع الله إلـٰهاً آخر فقد عاشوا مع المسيح وسمعوا أقواله وعرفوا حقيقة رسالته ، إلا بولص فلم ير المسيح و لم يلق إليه سمعه ، وإن كان يحلم بأن يكون هو المسيح الذى ينتظره بنو إسرائيل .

كان بولص يشعر فى قرارة نفسه أنه دون الحواريين منزلة ، فراح يقص فى كل مناسبة قصة ظهور المسيح له وهو فى طريقه إلى دمشق ، ليؤكد لسامعيه أنه رسول المسيح إليهم ، وكان حديث بولص يختلف عن حديث الحواريين ، فقد نهل بولص من التوراة التى كتبت فى المنفى ومن فلسفة اليونان ، بينا نهل الحواريون من النبع الصافى نبع السيد المسيح .

وكان بولص لا يفهم بساطة الدعوة فقد تأثر بفلسفة أرسطوطاليس وتأثر بكل كلمة جاءت فى التوراة ، فكان يمزج بين الفلسفة والدين ، واستقرت فى وجدانه أساطير الأميين فلم يستطع أن يتخلص من قبضتها

سمع بولص أن المسيح أحيا الموتى بإذن الله ، فقال إنه أحيا الموتى بقوة المسيح ، و لم يكتف بذلك بل راح يقول إنه أخرج الشياطين من أجساد الناس ، ويزعم أن المسيح جاء ليصلب ليفدى البشر ويطهرهم من خطيئة أبيهم آدم ، وراح يفلسف الصلب والفداء ويتحدث عن ابن الله الذى سيعود مرة أخرى إلى الأرض ليعيد إليها الإيمان والسلام .

وراح بولص يطوف بسوريا ويزور مدنها وذهب إلى أنطاكية وإلى الجليل وإلى السامرة يدعو إلى الدين الذى ابتدعه خياله . وقد غض اليهود عنه فى أول الأمر وأصغى إليه الرومان . كان اليهود يجدون فيما يقول بولص شركا بالله

بينما لم يدهش الرومان لما يدعو إليه ، فقد كان الرومان يؤلهون أبطالهم وقياصرتهم ، وقد كانوا يسجدون لتماثيل القياصرة وإنهم ليسجدون كل يوم لتمثال كاليجولا قيصرهم المجنون !

آمن الرومان بدعوته وقاومها اليهود ، وبدأ الحديث عن اللاهوت والناسوت ، وراح بولص يتحدث عن الصلب حديث من يؤمن به حتى إنه كان يتألم ألم من وضع على الصليب .

ولما كانت دعوة بولص تخالف كل دعوة جاءت قبله فقد هب اليهود لمقاومتها فى صراوة وعنف ، فائتمروا به ليقتلوه ، فقد خرق ناموسهم وادعى أن المسيح ابن الله ، وأنه قام من الأموات كما قام بعل إلـٰه الوثنيين من الأموات من قبله ، وأنه سيعود وقد أطال الحديث عن الرجعة ، ولكنهم أخفقوا فى التخلص منه ، فجاءوا به إلى الحاكم الرومانى واتهموه بأنه يستحق القتل حسب شريعتهم ؛ لأنه جعل مع الله آلهة أخرى .

وتحدث اليهود وتحدث بولص فلم يجد الحاكم الرومانى فى قوله ما يستحق عليه العقاب ، فإن قال إن المسيح هو الله أو أنه ابن الله فما كان ذلك القول غريبا على مسمع الحاكم الرومانى الذى لقن منذ الصغر أن آلهة الرومان يجتمعون ويتحاورون ويتصارعون ، وما أكثر ما رأى العاهرات المقدسات جالسات على سلالم معبد إلـٰهه أبوللو لأنهن رأين فى أحلامهن أن الإلـٰه يشتهيهن !

وكان الحاكم الرومانى يؤمن بتعدد الآلهة ويؤمن بأن بعض آلهته يشتهون نساء البشر ، فلم يجد فى أقوال بولص مايستحق عليه القتل ، ولكنه رأى ألا يبت فى مسألة تخص شريعتهم فقال لبولص :

— أتقبل حكمهم فيك أم أبعث بك إلى قيصر ؟

فقال بولص فى حماسة :

— ابعثى إلى قيصر .

وبلغ بولص روما بعد رحلة من الأهوال على سفينة من سفن الإسكندرية أظهر فيها بعض معجزاته كما قال ، ووضع فى السجن إلى أن يحين موعد محاكمته ، وفى سجنه راح يبعث برسائله إلى أهل كورنثوس وإلى أهل غلاطية وأهل أفسس وإلى أهل فيلبى وإلى أهل تسالونيك وإلى تيتس القائد الرومانى فى فلسطين .

كانت رسالة المسيح فى الصدور لم يكتب منها حرفا ، ولما كان بولص يعرف قوة الكلمة المكتوبة فقد راح يستعين بالتوراة التى كتبت فى المنفى ليخلق آراء جديدة ليس بينها وبين الدعوات السماوية أية سبب .

قال فى رسالته إلى أهل غلاطية : « اطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة ، إذا أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة » فكان يهوديا فى زهوه يدعو إلى التفرقة بين البشر ، وقد نسى أو تناسى قول السيد المسيح : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم » .

كان همه أن تسود آراؤه وإن تعارضت مع ما جاء به المسيح ، وقد كشف عن خبيئة نفسه لما كتب : « فإنى إذا كنت حرا من الجميع استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين ، فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس ، لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس مع أنى لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شىء لأخلص على كل حال قوما » .

وراح بولس يتفلسف بما لم يتفلسف به المسيح ، فكان يتحدث عن الجسد والنفس ويقول : ويحى أنا الإنسان الشقى ! من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟

واشتدت المناقشات الدينية فى روما بين بولس واليهود والرومان الذين آمنوا بما جاء به بولس والرومان الذين كفروا بما يدعو إليه . وقد راحت الأفكار الدينية تتدفق من أبناء سورية إلى أبناء إيطاليا حتى إن بعض الإيطاليين الذين هالهم تغلغل الحضارة السورية فى حضارة روما قالوا : « إن نهر العاصى أصبح يصب فى نهر التيبر ! » .

جاء المسيح ليقضى على القرابين وعلى تنطع الفريسيين والصدوقيين والكتبة ، وعلى تلك المراسيم التى ما أنزل الله بها من سلطان والتى كان الكهنة يقومون بها فى الهيكل ، ولكن بولس جعل المسيح قربانا وأكثر فى رسائله من التحدث عن الخروف المذبوح وعن القرابين التى تقدم فى المعابد ، وعن كيفية تحول خبز التقدمة إلى لحم المسيح والنبيذ إلى دمه ، وصار المؤمنون بتلك التعاليم يعتقدون فى قرارة نفوسهم أنهم لما يأكلون من القرابين ويشربون إنما يأكلون فى بطونهم لحم المسيح ويشربون دمه !

ومن أين جاءت بولس مثل هذه الأفكار ؟ إنها جاءته من أرض فارس فقد كان المجوس يقولون للمؤمنين الذين يشربون « الهوما » النبيذ المقدس إنهم إنما يشربون دم الإله ؛ واستعار بولس من الوثنيين معتقداتهم ، استعار من السوريين المؤمنين ببعل للصلب والقيام بعد الموت ، وتحول المسيح إلى إله يدين البشر من السماء ، واستعار من المجوس تحول القرابين إلى لحم الإله ودمه ! وقاوم اليهود تلك التعاليم مقاومة لا هوادة فيها ، ولكن بولس وجد

بين الرومان والوثنيين من يلقى إليه سمعه .

كان نيرون هو قيصر روما فى ذلك الوقت وقد أراد معلماه أن يمنعاه من التدخل فى شئون الدولة فتركاه ينهمك فى ملذاته الحسية كما يهوى ، ولم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحيوا حياة التقشف وكبح الشهوات فى الوقت الذى كانت فيه الرذيلة تستهوى الناس جميعا .

وشب نيرون وهو يزدرى جميع أنواع العبادات ، وكان نهما مفرطا فى الطعام غريب الأطوار والشهوات ، فكان يتخفى ويرور المواخير ويطوف الشوارع ويتردد على الحانات بالليل فى صحبة أمثاله من رفاق السوء ، يسطون على الحوانيت ويسيئون إلى النساء ويفسقون بالغلمان ويجردون من يقابلون مما معهم ، وما كانوا يتورعون عن قتلهم .

وعشق نيرون بوبيا وكان لها نصيب موفور من كل شىء إلا الشرف فراحت تغريه على أن يطلق زوجه ويتزوجها ، ولما وقفت أمه فى سبيل تلك الرغبة قتلها ، وشيد نيرون بيته الذهبى وأقام أمامه تمثالا ضخما ارتفاعه مائة وعشرون قدما فى أعلاه رأس شبيه برأسه به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه هو أبوللو نفسه .

كان نيرون فى الخامسة والعشرين إنسانا فاسدا منتفخ البطن رفيع الأطراف ضعيفها ، ضخم الوجه مجعد الجلد أصفر الشعر ملتويه عسلى العينين ، ولكن حكام الأقاليم كانوا يخرون له ساجدين ويزعمون أنه إله يعبد ، وفى ذلك الوقت اقتيد إليه بولص وقد اتهم بأنه يدعو إلى إله آخر غيره .

وألقى بولص فى جب تليان ليموت من الجوع وفتك الحشرات القارصة والقمل فى السراديب المظلمة ، وسط الأقذار التى تكدست أكواما .

وفى ذات يوم أخرج بولص من ذلك الجب ليصلب وذاق مرارة الكأس التى كان يتصورها ويحدث الناس عنها ، وذهب بولص إلى حيث يعلم حقيقة المسيح ، تلك الحقيقة التى قصر تصوره عن أن يدركها ، وقد صدق فيه قول السيد المسيح : « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم فى الداخل ذئاب خاطفة ، من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا ؟ هكذا كل شجرة جيدة تضع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتضع أثمارا ردية ، لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية ، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة ، كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار ، فإذا من ثمارهم تعرفونهم » .

ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات ، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السماوات . كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم : « يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟ فحينئذ أصرح لهم : إنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم » .

٣٢

كانت أرض النبط تنبض بالأحداث ، فقد دبت الحياة فى المنطقة كلها بعد أن جاء المسيح يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة الله وحده ونبذ تلك المراسيم التى تقام فى الهيكل ، وتقويض اعتقادهم القائل بأن من بات فى أورشليم فقد بات مع الله وأن من كان خارج أورشليم فهو بلا إله .

كان المسيح يجوب الجليل والسامرة واليهودية يدعو إلى أن الأرض كلها مسجد لله وأن مثلها مثل الهيكل ، فالله فى كل مكان ، حتى إن الفريسيين والصدوقيين والكتبة اتهموه بأنه يريد أن ينقض الهيكل من أساسه ، وقد زاد حنقهم عليه لما تنبأ بزوال هيكلهم المقدس .

كان ما يحدث فى الجليل يسمع فى أرض النبط فالحدود بينهما مشتركة ، وكان النبط فى تيقظ دائم بعد أن انتزعوا دمشق من الرومان ، كانوا واثقين من أن الرومان لن يسكتوا على ذلك الأمر .

وكان هرثمة الرابع ملك النبط فى قصره فى دمشق يرصد ما يجرى حوله ، وقد وصل إلى سمعه ولا شك دعوة الحواريين الناس إلى عبادة الله وما كان بينهم وبين اليهود من مناظرات عاصفة ومشاحنات دامية ، وما كان بينهم وبين حكام الرومان فى إسرائيل واليهودية .

كان ملك النبط يهتم بالتجارة فكانت رغبته أن يستتب السلام فى دولته لتغدو القوافل وتروح فى أمان ، وكان على علم بأن ازدهار تجارته يوغر

صدور الرومان عليه فهو ينافسهم فيما دفعهم إلى الانتشار فى الأرض ومحاولة إقامة حكومة عالمية ليسيطروا على خيرات العالم ويحملوا الأموال إلى روما ، فكان متأهبا لصد أى هجوم رومانى عليه وما كان ليسمح بأى انشقاق داخل مملكته يتيح للعدو فرصة التدخل فى بلاده .

وجاء بولص إلى دمشق بعد أن زعم أن المسيح ظهر له فى الطريق وعاتبه على اضطهاده أتباعه ثم بعثه رسولا إلى المؤمنين ، وأراد بولص أن يمارس رسالته فى دمشق وأن يدعو إلى ما لم يدع إليه المسيح فراح يجتمع باليهود والنبط وأهل دمشق يدير المناقشات ويبعث الفتن ، فرأى هرثمة أن ما يفعله بولص سيمزق وحدة أمته ويتيح للرومان فرصة التحرش به وببلاده ، فأصدر أوامره بأن يلقى القبض على بولص. وذهب جنود حفيد إسماعيل ليلقوا القبض على يهودى طرسوس حفيد إسحاق ، فأحس بولص الخطر فتدلى من طاقة فى السور فى زنبيل وفر هاربا .

كان بولص يذهب إلى أرض النبط وكان يروح ويجيء فى دمشق يقبض على من آمنوا بالمسيح ويسوقهم زمرا إلى أورشليم ليذوقوا عذاب الهون على أيدى كهنة اليهود ورجال الدين ، فلما هجر قسوته ورأى أن يفسد ما جاء به المسيح بادعاء أن المسيح بعثه رسولا إلى الناس أحس هرثمة خطر دعوته وأنه سيوقظ الفتنة فى أرضه ، فأراد أن يقضى عليه قبل أن يستفحل الأمر ، ولكنه ولى الأدبار ، وقد استراح هرثمة لفراره فقد خرج من بلاده ولن يجرؤ على أن يعود إليها ليوقع الشقاق بين الناس .

ومات هرثمة ودمشق فى أيدى النبط وقوافل التجارة تخرج من البتراء لتنطلق إلى سورية ومصر وبابل وبلاد الفرس ، وتولى الملك بعده ابنه مالك

الثانى وقد ضرب نقودا جديدة لا تقل فى روعتها عن النقود التى ضربها أبوه ، وقد كانت تحمل اسمه واسم أخته شقيلة .

وراحت السون تمر والمنافسة التجارية شديدة بين الرومان والبسط والفرس ، والمنافسة الدينية تحتدم بين اليهود والمسيحيين الأوائل ، وقد كان اليهود يقبضون على زعماء المسيحيين ويشكونهم إلى الحكام الرومان فى إسرائيل أو يبعثون بهم إلى روما ، فما كان الحكام الرومان يجدون فى دعوة المسيحيين ما يستحقون عليه العقاب .

وصار نيرون قيصر الرومان بعد أن دست أمه أجربينا السم لأبيه كلوديوس لما أحست أنه يريد أن يوصى بالملك لابنها ، فشب نيرون وهو يسخر من الديانات ومن كل ما له صلة بالأخلاق ، وقد قال بعد أن أطعمت أمه أباه فطيرا ساما وبعد أن أله مجلس الشيوخ أباه :

— إنى لا أشك فى أن الفطير هو طعام الآلهة ، لأن كلوديوس أصبح بعد أكله إلها يعبد .

كان نيرون يؤمن أن مبدأ القوة حق ، وكان يعيش وفق الطبيعة قد ألقى حبل نفسه على الغارب ، فانكفأت طبائعه إلى طباع الإنسان البدائى ، لم يحاول أن يضبط نفسه أبدا و لم يعرف الشعور بالخطيئة ، فما كان البابلى الذى يمارس الدعارة المقدسة وفلسفة النحوم ، بل كان يمارس الدعارة ولا شىء غيرها .

كانت روما غارقة فى الدنس ، ولكن قوادها خارج إيطاليا كانوا يعملون على توسيع رقعة الإمبراطورية ، وقد كان القائد الرومانى فى سورية يحس خطر النبط ويجد أن وجودهم فى دمشق شوكة فى جنبه ، فجمع الجيوش الرومانية

ليستولى على دمشق ويخضد تلك الشوكة .

ودارت معركة بين الرومان والعرب خارج أسوار دمشق ، وتحركت الفيالق الرومانية بأسلحتها الثقيلة تشق صفوف فرسان النبط ، واشتد القتال واستبسل العرب فى الدفاع وسقط الصناديد صرعى وتكسرت المقاومة أمام الموج الرومانى المتدفق فتقهقر العرب ليتحصنوا فى المدينة .

ووضعت السلالم على أسوار دمشق وصب الزيت المغلى على رءوس الرومان المهاجمين ، وتطايرت السهام ودارت المعارك فوق الأسوار ، وانتهى الأمر بأن فتحت أبواب دمشق وسقطت فى أيدى الرومان وصارت مرة أخرى فى حوزتهم .

كان ذلك فى العام الثانى والستين من مولد السيد المسيح ، وكان نيرون فى ذلك الوقت يعزف على أرغن مائى جديد فى قصره وأكابر الفنانين والشعراء والشيوخ يصعون إليه ويرقبون أن ينتهى من عزفه ليعقد المباراة بينه وبين الفنانين ، ويقارن بين صوره وصورهم ، ويستمع إلى أشعار الشعراء ويقرأ على الجميع شعره .

وحمل بولص إلى روما وذهب إليها بطرس ليدعو الرومان واليهود إلى الدين القويم ، ولما كان نيرون يسخر من كل دين فقد صلب بولص وبطرس ثم ذهب إلى ملهى بمبى العظيم فى روما يغنى ويضرب على العود وينشد قصائد من نظمه ، وقد اغتبط النظارة إذ شاهدوا الإمبراطور يعنى بتسليتهم ويركع على المسرح تحية لتصفيقهم .

وفى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ٦٤ شبت النار فى مضمار السباق ثم انتشرت انتشارا سريعا ، وقد ظلت مشتعلة تسعة أيام حتى التهمت ثلثى

روما ، وقد كان نيرون غائبا عنها فلما وصله النبأ أسرع بالعودة إليها فبلغها بينما كانت قصوره القائمة على تل البلاتين طعمة للنيران ، ولم يحزن لما رأى فقد كان يحلم بأن يعيد بناء روما وأن يخططها تخطيطا علميا على نسق الإسكندرية ، وأن يسميها نيرو بوليس (مدينة نيرون) وقد واتته الفرصة .

هلك آلاف من السكان بين أنقاض المبانى المتهدمة فى الشوارع المزدحمة ، وهام مئات الآلاف على وجوههم فى الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى وقد ذهب الرعب بعقولهم وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذى أمر بإشعال النار فى المدينة ، وبأنه يشر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها ، وبأنه يرقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن نهب طروادة .

واتهم نيرون المسيحيين بأنهم هم الذين أشعلوا النيران فى روما فراح يعذبهم ويزدرى بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب ، وسمر غيرهم فى الصلبان ودفن الكثير منهم أحياء ، ودهنت أجساد البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران لتكون مشاعل فى الليل .

ولم يكن إنجيل المسيح قد كتب بعد ، كان فى صدور المؤمنين ، وقد كان بولص أول من سجل آراءه فى رسائله التى بعث بها من سجنه وقد كانت أغلب آرائه فاسدة لا تتفق مع دعوة المسيح ، فلما انتشر القتل بين المسيحيين رأى بعض الغيورين من المؤمنين أن يسجلوا أقوال السيد المسيح ، فلم يجتمعوا ليجمعوا الإنجيل من الصدور بل راح كل منهم يكتب إنجيلا على هواه ، فكتب من شهد المسيح وألقى إليه سمعه ما وقر فى ذاكرته من أقوال الرسول الكريم ، ومن هؤلاء برنابا ، وكتب من لم يسمع المسيح ولم يره ما تناقله الناس من

سيرته ومن هؤلاء لوقا وقد كان طبيبا أنطاكيا لقن النصرانية على يد بولس .

ولم تبح أغلب الأناجيل التى كتبت فى ذلك الوقت — وقد بلغ عددها خمسة وسبعين إنجيلا أو يزيد — من مراعم بولص ، بل لقد بولص الصلاة واقتبس من الديانات الوثنية ما يشاء ، فلم يكتف بأن أعاد أسطورة بعل وجعل المسيح مكان بعل بل راح يستعير من قدماء المصريين صلواتهم ، كانوا يقولون : « لما كان أزريس يحيا حقا فسوف أحيا . لما كان أزريس لن يموت فلن أموت». فابتدع بولص تلك البدعة فى المسيحية، فراح المسيحيون يقولون فى صلواتهم : « لما كان المسيح يحيا حقا فسوف أحيا ، لما كان المسيح لن يموت فلن أموت » .

وراحت القصص التى كانت تروى فى المعابد القديمة يعاد صياغتها بحيث يصبح المسيح هو بطل تلك القصص التى تفيض بالوثنية ، فصار المسيح مكان أزريس الفراعين وبعل البابليين والسوريين وبروميثيوس اليونانيين وآلهة الوثنيين ، وفسدت المسيحية ولما ينقض على ولادة المسيح قرن واحد وحار الناس بين القائلين بالتوحيد والتثليث . وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰها واحدا لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون .

وقد صدق فيهم قول السيد المسيح : « يقترب إلى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه ، وأما قلبه فمبتعد عنى بعيدا وباطلا يعبدوننى » .

«وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد» .

٣٣

وضع التاج فى البتراء على رأس « رب إيل » ولما كان صغيرا فقد راحت أمه شقيلة تصرف أمور المملكة يعاونها فى ذلك أخوها أنيس ، وقد كان للملك شقيقتان جميلة وهاجر ، فكان البلاط النبطى يدار على هوى نسوة الأسرة الحاكمة ، ولكن قوافل التجارة كانت تنتشر فى الأرض فكانت خيرات الدنيا تجلب إلى العاصمة التى أرادت أن تنافس روما .

كان الرومان قد انتزعوا دمشق من أيدى النبط ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على منافستهم التجارية ، وكان حكام البتراء يحسون خطر إحاطة الرومان بمملكتهم ووقوعهم فى طريق جيوش العدوين اللدودين : الرومان والفرس ، فكانوا متأهبين على الدوام للدفاع عن مملكتهم ، وقد أثر التسليح وربط الجيوش على ميزانية الدولة النبطية .

وقد كانت الحالة الدينية فى مملكة النبط لا تختلف فى كثير ولا قليل عن الحالة الدينية فى إمبراطورية الرومان ، كان رب إيل وأمه شقيلة وأختاه جميلة وهاجر وخاله أنيس ورجال المملكة قصى بن أذينة وهانئ وجولة يقيمون المراسم الدينية فى « ذو الشرى » ، كما كان نيرون ومن جاء بعده يقيمون المراسم الدينية فى الكابيتول ، إلا أن الدين رغم هذه المظاهر قد دب فيه دبيب الفناء ، وقد زعزع إيمان الرومانيين تأليه مجلس الشيوخ للأباطرة وما كان ذلك دليلا على إجلال الطبقات العليا لحكامها على قدر ما كان شاهدا على قلة

إجلالها لآلهتنا .

أخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين ، و لم يجد الشبان الأثرياء الذين ذهبوا ليتزودوا بالدراسات العليا فى أثينة والإسكندرية ورودس ما يزيد إيمانهم بالدين ، وراح الشعراء يسخرون من الآلهة وراح الناس يقولون إن الآلهة من نسج الخيال .

وكانت شواهد القبور تشهد بانغماس الناس فى الشهوات ، فقد كتب على واحد منها : « لم أكن ، لقد كنت ولست بكائن ولا أبالى » وكتب على شاهد آخر : « لم أكن قد وجدت ، لست موجودا ، لست أدرى » ، وكتب على شاهد ثالث : « لم يكن لى إلا ما أكلت وشربت ، لقد تمتعت بحياتى » وكتب على شاهد آخر « لا أومن بشىء وراء القبر » ويؤكد شاهد غيره : « العناصر التى تكونت منها تعود مرة أخرى إلى أصولها ، إن الحياة عارية تعار للإنسان وليس فى مقدوره أن يحتفظ بها إلى أبد الدهر ، وهو إذا مات يرد ما عليه من دَين إلى الطبيعة» .

كان الشك يسود مملكة النبط وإمبراطورية الرومان على السواء ، وقد شب رب إيل وتروح وأمر بضرب اسم زوجته جميلة مع اسمه على النقود، وقد عرف « بسوطر » واهتم بالتجارة فاشتدت منافسة النبط والعرب والفرس للرومان ، وكان لا بد أن يقضى طرف من الأطراف على منافسيه ليخلو له وجه الأرض .

كانت الأساطيل التجارية تجرى فى البحار والمحيطات ، وفى ذلك الوقت وقعت أروع المغامرات ، وقد كتب بحار من أهل الإسكندرية كتاب « الطواف بالبحر الأريترى » فكان دليل التجار الذين يتحرون بين ثغور

ساحل إفريقية الشرق والهند . وكان غيره من الملاحين قد ساروا فى المحيط الأطلنطى إلى بلاد غالة وبريطانيا وألمانيا ، بل إنهم قد وصلوا إلى إسكندناوة وروسيا .

كان النبط والعرب والفرس يحتكرون تجارة نصف الكرة الشرقى ، وكان الرومان يحتكرون تجارة نصف الكرة الغربى ، ولم يرض ذلك مطامع الرومان فقد كان الأباطرة يحلمون بالاستيلاء على الدنيا وإقامة دولة عالمية عاصمتها روما .

كان الشك الدينى يسرى فى أوصال الدولة الرومانية ، ولكن الشك مهما يكن فيه من إخلاص لا يمكن أن يحل محل الإيمان ، ولم يجد المجتمع الرومانى بين ملذاته كلها سعادة ما بل سئم ما فيه من نعم واستنفد قواه فيما ساده من دعارة . وظل الفقراء والأغنياء على السواء معرضين للألم والحزن والموت ، ولم تستطع الفلسفة أن تهب الرجل العادى إيمانا يخفف عنه شعوره بفقره ويشجعه على تهذيب خلقه ويواسيه فى أحزانه ويبعث الأمل فى قلبه .

كان الناس يحتاجون إلى وحى يوحى إليهم ولكن الدين لم يهبهم إلا طقوسا ومراسم ، كانوا يطلبون خلودا وحياة بعد الموت ولكن دينهم جاء لهم بدل هذا بألعاب ، فكانوا فى الأعياد يشاهدون صراع الثيران والآدميين وإلقاء العبيد الآبقين إلى الأسود وحرق المقضى عليهم بالموت وهم أحياء .

وشعر الناس الذين جاءوا من بلاد أخرى عبيدا وأحرارا أنهم محرومون من عاداتهم القومية ، فجاءوا بآلهتهم وأقاموا لها هياكل خاصة بها ، فغرسوا فى قلب بلاد العرب دين الشرق ، وبدأت بين عقائد الفاتحين وإيمان المهزومين حرب لم تنفع فيها أسلحة الجحافل الرومانية ، وكانت حاجات القلوب هى

التى قررت لمن يكون الفوز .

ودفست إيزيس المصرية إلٰهة الأمومة والإخصاب والتجارة الإلٰهة روما والأم العظمى ، وأقيم لها هيكل فخم فى ميدان المريخ ، وراح كهنتها يحمون فى عيدها تمثال أنوبيس القرد إلٰه المصريين .

وجاءت من هيربوليس الإلٰهة أرجانس الإلٰهة السورية ، وجاء منها عزيز وعرف « بريوس دلوكى » كما عرف فى أرض العرب « بالعزى » ، وجاء من فارس عدوة روما اللدود عبادة مثرا إلٰهة الشمس ، وكان عبادها يعتقدون أنهم جنود فى الحرب الكونية العظيمة حرب الضياء على الظلام وحرب الخير على الشر . وفى خضم ذلك الاضطراب الدينى جاءت المسيحية من الشرق تتسلل إلى المجتمع الرومانى المتعطش إلى الإيمان لتنشر سلطانها على الجميع .

وتولى السلطة فى روما تراجان ، ولما كان قد نشأ فى مهاد الحرب فقد كان استعماريا صريحا يفضل النظام على الحرية والقوة على السلم . ولم يكد يمضى على قدومه إلى روما عام واحد حتى خرج لفتح داشيا ، وكانت داشيا هى رومانيا الحالية وكان ضمها إلى امبراطوريته يمكنه من الاستيلاء على الطريق الذى يوصله إلى الشرق .

وحقق تراجان أمله ثم عاد إلى روما وأمضى ست سنوات يبنى القصور والحمامات ، وهل السلم فراح يفكر فى أن يضع للحرب بين الفرس والرومان حلا نهائيا بأن يجعل للدولة الرومانية حدودا أكثر مناعة وصلاحية من جهة الشرق ، ويسيطر على الطرق التجارية من أرمينية وآسيا الصغرى إلى أواسط آسيا والخليج الفارسى وبلاد الهند .

كان رب إيل ملك النبط قد قضى نحبه وكان مالك الثالث قد تربع على

عرش البلاد ، وما كاد ينتهى من احتفالات التتويج حتى بلغه أنباء خروج تراجان على رأس جيشه قاصدا الشرق .

وتأهب العرب للقتال فأخرجوا كل ما فى البتراء من سلاح ، وهب الشباب للدفاع عن البلاد وشحنت الصخرة بالمقاتلين والفرسان ، وجاءت الفيالق الرومانية بقضها وقضيضها ، ودارت الحرب بين النبط والرومان والتقى الفرسان ، واستبسل الأنباط فى القتال واشتد ضغط الرومان وراحت الرايات تتقدم والنسر الرومانى خفاق فوق الرءوس ، وسقط العرب صرعى وسالت الدماء أنهارا فراح جنود النبط يلتفتون مذعورين ثم ولوا الأدبار .

ودب الذعر فى البتراء صخرة العرب وهام الناس على وجوههم فارين وحملوا ما استطاعوا أن يحملوه من أموال وأصنام الآلهة وتفرقوا فى كل طريق ، ذهب بعضهم إلى دومة الجندل وانطلق آخرون إلى مكة ، إلى حرم الله إلى البيت العتيق حيث يأمن الناس والطير .

وتدفق الجيش الرومانى من بين الجبلين الشاهقين فى وادى موسى إلى السهل المنبسط الذى قامت فيه حضارة النبط وراحوا يصعدون إلى الجبل حيث أقيمت معابد الآلهة ، وسرعان ما استتب الأمر للرومان وفقدت مملكة النبط حريتها ، وأصبحت الكورة العربية يحكمها بالما قائد تراجان وقد ضمت إلى الولاية السورية .

وقضى على ملك بنى إسماعيل وتقلصت دولتهم حتى تركزت حول الحرم تنتظر بعث ذلك الرسول الذى سيعيد إلى العرب وحدتهم ويرد عن دولتهم المحتنين ويجعل رايتهم خفاقة على العالمين .

٣٤

كانت مكة واحة الإيمان فى صحراء الوثنيات التى غطت وجه الدنيا ، لم ترفض عقول أبنائها الإيمان بالله وحده ، فلم يعرضوا عن السماء ليحاولوا إقامة المدينة الفاضلة على الأرض ، بل أسلموا وجوههم لله ..فظلت شعلة الدين متألقة فى جنباتها وصارت مرفأ هادئا للخائفين واللائذين بحرمها يجدون الأمن والسلام ، بينا يتخطف الناس من حولهم .

بقى جوهر الدين فيها نقيا فحل الإيمان محل السلطان وعاش أهلها سعداء ما داموا فى كنف الله ، وإن تقوض كل ما تصوره الناس من مدن فاضلة فى الدول التى حولها لاستمرار الأقوياء فى استغلال الضعفاء والاستبداد بهم .

ونجح إلياس فى القضاء على البدع التى كانت قد بدأت تتسرب إلى الدين فجدد لملة إبراهيم شبابها واشتعلت النفحة الروحية فى صدور المؤمنين مرة أخرى . وعاش ابنه قمعة بن خندف فى ظل النهضة الدينية التى بعثها أبوه عيشة سعيدة راضية ، وشب لحى بن قمعة فى زمن ازدهرت فيه تجارة مكة وتكدست فى بيوت أشرافها الأموال من ذهب وفضة .

وجاء عمرو بن لحى بعد أن طال على الناس العهد وفترت حماستهم الدينية وأخذت أساطير الشعوب تفد إلى مكة مع التجار الذين كانوا يعبدون الله على حرف ، وألقى الناس أسماعهم إلى القصص التى كانت تروى عن آلهة الشعوب من نبط وآراميين ومصريين وبابليين وفرس ومسيحيين .

وتلفت عمرو بن لحى فألفى نفسه غنيا مسموع الكلمة فى قومه ، فلما جاء أوان الحج نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا الناس عشرة آلاف حلة ، ففتن الناس به وأقبلوا عليه يعظمونه ويقرون له بالسيادة عليهم .

وتملك عمرو الغرور فراح يبتدع لقومه البدع ، وكان لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، ولما كان يملك من النوق ما لا يعد ولا يحصى وكانت غنمه تغطى مراعى مكة فقد راح يشرع فى النوق والغنم !

قال : إن الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، وعرفت هذه الناقة بالسائبة .

ولما كان غنيا لا يدرى كيف يملأ فراغ حياته فلم يكتف بما شرع ، بل راح يفكر فى تشريع آخر ما دام قومه أطاعوه واتخذوه قدوة ، فقال : ما أنتجت السائبة بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم خلى سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها ، وعرفت هذه الناقة بالبحيرة بنت السائبة .

ورضى قومه بما ابتدع لهم من بدع فعالى فى التشريع فقال : الشاة إذا أتمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، فما تلد بعد ذلك فلذكور البنين دون البنات ، إلا أن يموت منها شىء فيشترك فى أكله البنونَ والبنات .

قال : إن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حُمى ظهره فلم يركب ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك وعرف ذلك الفحل بالحامىّ .

وراح يحرم ويحلل ويشرع فى الشاة التى تلد اثنين فى كل بطن فيجعل الإناث لله والذكور لصاحبها ، وعرف العرب لأول مرة السائبة والبحيرة والوصيلة والحامى وآمنوا بأن ذلك من عند الله « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » . « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » . « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون» . « من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

وعجز عمرو بن لحى عن أن يجدد دين إبراهيم أو أن يدعو إلى مذهب فلسفى فراح يشرع فى الإبل والضأن والمعز والبقر ، وكانت مكة تعيش فى غيبوبة دينية فانقادت إليه دون تفكير .

وخرج عمرو فى القافلة المنطلقة إلى الشمال تحمل تجارة مكة وهو منتفخ الأوداج غرورا يحيط به خدمه وحشمه وبعض المعجبين بثرائه العريض ، وقد أطلق العنان لعقله السقيم فراحت تداعبه فكرة أن يعود من أرض النبط أو أرض ثمود أو من البلقاء ببدعة جديدة .

وبلغت القافلة أرض النبط وراحت تنساب فى البتراء عاصمة أول من أشركوا بالله من أبناء إسماعيل ، فألفى معابد « ذى الشرى » و « اللات »

و « العزى » و « رب البيت » و « منوتن » إلٰهة المنايا والحظ خاصة بالعابدين والطائفين والركع السجود ، فقال لقوم :

— ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟

— هذه أصنام نعبدها ، نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا .

— أتعبدونها من دون الله ؟

— ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— وما اللات ؟

— زوجة الإلٰه .

— وما العزى ؟

— ابنته .

— ومنوتن ؟

— ابنة أخرى . هن بنات الله وهن يشفعن إليه .

و لم يكن أمرا سهلا أن يشرك عمرو بن لحى بالله ، فراح يحاور القوم :

— أتنفعكم هذه الأصنام ؟

— ما عظمها آباؤنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر .

وغادرت القافلة أرض النبط وانطلقت فى الفضاء ، وراح الحادى يحدو بالغناء فدب النشاط فى الإبل بعد الكلال وأطلق عمرو بن لحى لخياله العنان يفكر فيما رأى فى معابد بنى إسماعيل بعد أن أضحوا كورة رومانية ويتردد فى مسامعه ما ألقى إليه من القوم : « اللات زوجة الإلٰه .. العزى ابنته : إنها كوكب الصباح .. منوتن إلٰهة الحظ والمنايا .. إنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » .

وراح عمرو بن لحى يقاوم ما يوسوس به شيطانه ، إنه يغريه بأن يحمل صنما من هذه الأصنام وأن يضعه فى جوف الكعبة ويأمر المكيين الذين اتخذوه ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة أن يعبدوا ما جاءهم به من الأصنام ، ولكنه كان يجاهد أن يصم أذنيه عن همزات الشيطان .

وانبهرت أنفاسه من الجهد وتصبب منه العرق فقد وضع أصابعه فى أذنيه ، ولكن الإغراء كان ينبعث من جوفه ويمتلء به صدره ويغذيه غروره ، وما إن دخلت القافلة مؤاب حتى انهارت مقاومته وأسلس لشيطانه قياده .

ووقف عمرو بن لحى أمام صنم هبل طويلا وراح يحاور القوم ثم قال لهم وهو يحاورهم :

— أفلا تعطونى صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟

وعادت القافلة إلى مكة تحمل صنم هبل ووضعه عمرو بن لحى عند البئر فى جوف الكعبة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، فانقاد الناس إليه بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم .

وفتح عمرو بن لحى باب الشرك بالله فى الأرض المقدسة التى ظلت منارة التوحيد مذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وأصبح استيراد الأصنام من الأراضى المجاورة بدعة محببة إلى نفوس القوم ، بل تنافسوا فيها تنافسهم فى التجارة فاستورد عمرو بن لحى اللات ونصب تمثالها بالطائف ، واستورد ظالم بن أسعد العزى وأقامه بوادى حراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق البستان بتسعة أميال ، ولم يكتف بذلك بل بنى فوقها بيتا .

وراح عمرو بن لحى يقول لقومه .

— إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة !

وجلب عمرو بن لحى صنم منوتن إلٰهة المنايا والحظ ، ولما لم يكن نطق اسمها ميسورا فقد أطلق عليها العرب « مناة » .

وعلى مر الأيام جاء صنم مناف من ثمود ، وكان على صورة رجل لا لحية له ينحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعى المرموز به إلى الآلهة الشمسية ، فقد عاد العرب جميعا إلى عبادة الكواكب والنجوم بعد أن عرفوا الله وحده ، وجاء التجار بأصنام آلهة المصريين والآراميين والبابليين ووضعوها فى جوف الكعبة ، حتى تكدس أول بيت وضع للناس بثلاثمائة وستين صنما !

وهبت عواصف الشرك بالله على واحة الإيمان فطمرتها ، وكان عمرو بن لحى أول من فتح أبواب الشرك لتتدفق أساطير الشعوب إلى مكة وتغمر الحقيقة الناصعة ، حقيقة أن لهذا الكون ربا واحدا لا شريك له بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

خول الله عمرو بن لحى نعمة منه فلم يشكر الله على نعمته ، بل راح يملأ فراغ حياته بالتشريع فى الإبل والغنم والمعز والبقر ، يحلل ما يشاء ويحرم ما يشاء ، و لم يكتف بذلك بل جلب من أرض الشرك الأصنام لتعبد مع الله فى الوادى المقدس . وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار .

٣٥

ظل البيت مقدسا فى مكة يطوف به الرجال قبل أن ينطلقوا إلى أعمالهم فى الصباح ويطوفون به قبل أن يعودوا إلى دورهم فى المساء ، ولكن البيت الذى أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل منارة للتوحيد غص بالأصنام التى جلبت من مصر والشام والعراق ، والتى عاد بها النبط من بلادهم فرارا من وجه تراجان واضطهاد الرومان بعد أن صارت مملكة النبط — أحفاد نابت بن إسماعيل — كورة تحت حكم قياصرة روما .

وساد مكة تسامح دينى مكن لبدعة الوثنية أن تتسلل دون كفاح إلى معقل التوحيد ، وانعدم ظهور العباقرة المكافحين عن دين الآباء أو ابتداع فسمة جديدة تعذى أرواح المريدين ، ورهد فى الحكم أولئك الدين يقتضى الأمر أن يحكموا وأن يكونوا للناس قدوة ، وصارت ولاية البيت وظيفة دينية لها بريقها وسحرها ولكنها فقدت سلطانها الدنيوى على المكيين .

وأسنت الحياة الدينية فى مكة وكثرت أوقات الفراغ عند العرب ، فاهتموا بالعيافة وهى تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر حتى قيل إن بعضهم يفوق بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة والبكر والثيب ، واهتموا بقيافة البشر للاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب ، واهتموا بالفراسة للاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وتعلموا الكهانة والعرافة فادعى الكهان علم الغيب وراحوا يخبرون بما سيقع فى الأرض من أحداث ، وكثر

المتهمون بالزجر والعيافة وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم ، فإذا رأوا اندلاع لسان ذئب فهو لسان عرول همه سفك الدماء ، وإذا رأوا برقا ومطرا فهو دم سائل ، وإذا رأوا عقابا منقضا على عقاب فتشابكا وهويا إلى الأرض فهو قتال جمع وجمع ، وراحوا يزجرون الطير فما تيامن منها وأخذت ذات اليمين سموه سانحا وتفاءلوا به ، وما تياسر منها سموه بارحا وتشاءموا منه ، فساد مكة الوثنية والخرافات والموت فى الحياة ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وجيء بصنم رجل ووضع عند بئر زمزم المطمورة أمام باب الكعبة ، وجيء بصنم امرأة ووضع على بعد أمتار من الصنم الأول ، وكان لا بد أن يسمى هذان الصنمان ، فكان الرجل إساف وكانت المرأة نائلة .

ولما كانت الشعوب لا تكتفى بالأسماء بل لا بد من تاريخ يروى حول الأسماء التى قدر لها أن يكون لها نصيب فى الحياة العامة ، فقد نسج الناس أسطورة حول إساف ونائلة وراحوا يرددونها على مر العصور تقول إنهما كانا رجلا وامرأة من جرهم انتهزا خلوة فى البيت المحرم وفجرا فيه فمسخهما الله تعالى حجرين ، ولم يحطم الناس الحجرين اللذين كانا إنسانين أحدثا فى أطهر بقعة فى الأرض وإنما راحوا يتحرون عندهما القرابين التى يقدمونها لآلهتهم تكفيرا عن خطاياهم !

واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه،فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

واتخذ أهل مكة مع الكعبة طواغيت وهى بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ، ويهدون لها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كطوافهم بها ، وينحرون عندها ، ولكنهم كانوا يعرفون فضل الكعبة عليها فهى بيت أبيهم إبراهيم الخليل ومسجده .

وظل أهل مكة يعرفون الله ولكنهم عبدوا معه ما جاءوا به من أصنام ليقربوهم إليه زلفى ، وكانوا يحجون على مر السنين ويقفون المواقف ، وقد عبروا فى التلبية لتلائم حالة الشك التى أمسوا فيها فكانوا يلبون :

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وكان الطواف يبدأ باستلام الحجر الأسود ، فلما جىء بإساف ونائلة أصبح الطواف يبدأ بأن يستلم الطائف إساف ثم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه !

وفسد الدين فى مكة ولكن الناس كانوا يجتمعون فى الحرم ويتناقشون فى أمر الدين ، فما كان المكيون بقادرين على أن يعيشوا بلا دين والبيت المحرم يربط بينهم وبين السماء . واشتدت الخلافات بينهم فمن قائل بأن خالقا خلق الأفلاك غير أنها تحركت أعظم حركة فثارت عليه وأحرقته لأنه لم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها ، وأن الأشياء ليس لها أول ألبتة وإنما تخرج من القوة إلى الفعل ، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل كونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شىء آخر . ومن قائل بأن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله ، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التى

فيه ، ومن ظل على دين إبراهيم يعرف الله ويعبده وهؤلاء هم الأتقياء الحنفاء .

كان الحنفاء يؤمنون بالبعث ، وكن فريق ممن جعل لله شركاء يؤمنون بالبعث أيضا ويعتقدون أن الناس يحشرون ركبانا، فكانوا يتركون ناقة الميت لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعا وعطشا وقد عرفت بالبلية ، فإذا جاء يوم الدين بعثت ناقته معه فيركبها كما كان يفعل فى الدنيا .

ومات خزيمة بن مدركة ، فدخل ابنه الأكبر كنانة على نساء أبيه ، فطرح ثوبا على زوج أبيه برة بنت مر أخت تميم بن مر مصارت زوجه ، ليحافظ على خصائص دم الزعامة فى الأسرة كما كان يفعل الفراعنة بزواج الأخ من الأخت ليحافظوا على الدم الملكى ، ولكن العرب كانوا يكرهون ذلك الـزواج ويطلقون عليه زواج المقت .

وذاع فى بلاد العرب اسم كنانة فقد اشتهر بحدبه على الناس وحكمته ، فراحوا يشدون الرحال إليه ليستشيروه فى أمر دينهم ، وكانوا يستريحون إلى قضائه وستره لأمورهم كستر الكنانة للسهام فاشتهر بينهم بكنانة ، ومن يدرى فلعل أباه قد سماه باسم أبيه وغلبت عليه شهرته كما هو الحال فى أغلب رجال العرب ونسائها .

وأنجبت برة بنت مر لكنانة النضر ومالك وملكان ، وأنجبت له هالة بنت سويد بن الغطريف عبد مناة ، ومرت السنون وتفرق أبناء عدنان فى البلاد فلحق بعضهم بالنبط الذين لاذوا بدومة الجندل ، وذهب بعضهم إلى اليمن ، وانطلق آخرون إلى الحيرة وإلى الكورة العربية وإلى سيناء .

ومات كنانة وأصبح النضر زعيم الكنانيين ، وقد عرف بالنضر لنضارة وجهه وحسنه ، فقد غلبت عليه صفته كما غلبت على من سبقوه .

وتلفت النضر فوجد شباب العدنانيين من ترازيين ومضريين وكنانيين قد هجروا البيت وتفسحوا فى البلاد ، وأن تجارة مكة تأثرت بتلك الهجرات ، فعزم على أن يعيدهم إلى مكة وأن يجمعهم فى الحرم ليجدد شباب أم القرى وليعيد لها مكانتها ، فأوفد النضر السفارات إلى الذين هجروا البيت يغريهم بالعودة إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

وعادت الأسر التى غادرت مكة إلى الحرم ، ونجح النضر فى أن يجمع الشمل ، وأفعم السرور القلوب وتهللت الوجوه بالفرح لما تقرش (تجمع) العدنانيون مرة أخرى فى المسجد الحرام ، فالتفوا إلى النضر بن كنانة الذى كان له الفضل فى تقرشهم (تجمعهم) وقالوا : قريش .

التذييل

ذكرت فى مقدمة الجزء الأول أنى أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيرا روحيا ، وأن أطهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد إليه رفاهيته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ؛ وإننا لو سرنا عبر التاريخ مد خلق الله آدم لوجدنا أن قمم الحضارة الشامخات قد كونتها نفحات روحية ، رفعت الإنسان فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز وما تهفو إليه النفوس فأعادت إليه كرامته وسموه ، ودفعته فى مدارج الرقى لينال خيرى الدنيا والدين .

خلق الله آدم ليكون خليفته فى الأرض « إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1] وقد كان آدم قبل أن يهبط إلى الأرض على علم : « وعلم آدم الأسماء كلها »[2] . فلما هبط إلى الأرض كان يعيش مع الله وبالله وفى الله ، وراح يعلم أبناءه ما يعلم ، ويبنى أول مجمع بشرى على أسس سليمة ، ويلقن دريته أن كل عمل يوزن فى ذاته كما يوزن من حيث صلته بخالق الكون والناس ، لأن كل إنسان سيسأل عما يفعل يوم القيامة .

وتعلم بنو آدم أن الملك لله ، وأن المال مال الله ، وأن الله جعل الناس مستخلفين فى ماله ، وغرست فى وجدانهم قيم خلقية أسمى من الواقع الأرضى

---

(١) البقرة ٣٠ .　　　(٢) البقرة ٣١ .

المستمر فى الجريان .

واستمر التطور التاريخى ، وطال على الناس العهد فبعدت الشقة بينهم وبين السماء فقست قلوبهم ، فجعلوا لله أندادا ، ولما كان الله قد كتب على نفسه الرحمة فإنه جل جلاله لم يعذب الناس بكفرهم ، بل بعث إليهم رسله ليعيدوهم إلى الصراط المستقيم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١) « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »(٢) .

وكان الرسل يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة : فإن آمن الناس كانوا ينالون عز الدنيا والآخرة ، وإن لجوا فى الكفر كان الله يذهبهم ويأتى بخلق جديد « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »(٣) . سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقد بعث الله إدريس فى مصر قبل عصر الأسرات يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ويقول لهم إنهم مبعوثون ليوم عظيم ، فآمن المصريون بالله واليوم الآخر وبنوا حضارتهم على قيم روحية هذبت ضمائرهم وجعلتهم يعملون للدنيا والدين ، وقد أقاموا الأهرام وأضخم ما عرف التاريخ من مقابر استعدادا ليوم البعث ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصارت مصر الفرعونية كما قال ول ديورنت فى قصة الحضارة تعيش بالدين وللدين : « لقد كان الدين فى مصر فوق كل شىء ومن أسفل كل شىء ، فنحن نراه فى كل مرحلة من مراحله وفى كل شكل من أشكاله : من

---

(١) الإسراء ١٥ .　　　(٢) فصلت ٤٦

(٣) إبراهيم ١٩ .

الطوطم (عبادة الأحجار التي لا شكل لها) إلى علم اللاهوت ، ونرى أثره في الفن وفي الأدب وفي كل شيء ».

وبنى إدريس الكعبة على قول الصابئة لتكون منارة للتوحيد ، « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة »[1] . ونزل الله على عبده الكتاب وعرف عند الصابئين « بكنزة »، وسار الناس على هدى كتاب الله يقطعون في سبيل رقى البشرية أشواطا .

وطال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشركوا بالله ثم عبدوا ما ينحتون ، عبدوا في أرض العراق وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، فأرسل الله إليهم نوحا : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »[2] .

وراح نوح يدعو قومه ليلا ونهارا ، يدعوهم جهارا ويناجيهم ويمنيهم ويخوفهم ، فكان كلما دعاهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . وقنط من هداية قومه ، « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكفارين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا »[3] ، فاستجاب الله دعوة رسوله وأغرق قومه الذين أرادوا بظلمهم أن يعرقلوا سير موكب الحضارة : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة

---

(١) آل عمران ٦٦ .   (٢) نوح ١ : ٤

(٣) نوح ٢٦ : ٢٧

وأنشأنا بعدها قوما آخرين »[1] ، « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[2] .

وقامت فى بابل حضارة ترتكز على الدين وسواعد المؤمنين ، فازدهرت بابل وبنت أكثر من لبنة فى صرح التاريخ ، وطال على الناس الأمد وفسد الدين القيم وبقى منه قشور ، فقال الملوك إن الملكية نزلت من السماء واتخذوا لأنفسهم عروشا تشبها بعرش الله ، وقالوا إنهم من نسل الإله وأنهم يحكمون الناس بذلك الحق الإلهى .

ونسجت الأساطير حول الله ، ثم اتخذ كل طامع فى الملك لنفسه إلها راح يدعو إليه ويفضله على سائر الآلهة ويدعى أنه رب الأرباب ، وسمع الناس لأول مرة فى بابل عن مجمع الآلهة وعن الحروب التى تدار بين الأرباب فى السماء ونسوا يوم البعث فقالوا إن الإنسان إذا مات يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها .

وعرفت عبادة الكواكب والنجوم، وما كانت الكواكب تعبد لذاتها بل كانت ترمز إلى الآلهة والأسرة المقدسة، وكان القمر فى أرض العرب: فى بابل وسورية وسيناء واليمن يرمز إلى رب الأرباب، وكانت الشمس زوجه وأم الآلهة، وكانت النجوم أبناء الإله وبناته، وظل الحال كذلك إلى أن استولت أسرة حمورابى على بابل فرفعت معبودها مردوخ وكان يرمز إليه بالمشترى إلى مرتبة رب الأرباب، وفى ذلك الوقت بعث الله إبراهيم الخليل رسولا إلى قومه ليتشل البشرية من التردى فى الشرك، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

---

(١) الأنبياء ١١ (٢) النحل ٣٣

وراح إبراهيم يدعو الناس إلى الله فى أرض العراق وفى سورية وفى مصر ، ثم أقام القواعد من البيت وإسماعيل فى مكة ليكون منارة للتوحيد فى الأرض . ولحق إبراهيم بالرفيق الأعلى وقد نفخ فى البشرية نفخة روحية دفعتها دفعا فى طريق تطورها التاريخى .

تكون حول بئر زمزم — بفضل إبراهيم وهاجر وإسماعيل — مجتمع جديد حمل لواء الإسلام الذى جاء به إبراهيم الخليل ، مجتمع لم يكن له تقاليد ولا أساطير ، لذلك ظل أكثر من ألف عام ليس له إلٰه إلا الله رب العالمين . وقد أمد هذا المجتمع الهكسوس فى سورية ومصر بمبادئ جعلتهم يتفوقون على الآراميين والفراعين ، وقام بنو إسرائيل حفدة إبراهيم الخليل فى فلسطين يدعون الناس إلى الإسلام ، دين جدهم العظيم ، فما كان الغرور قد تملكهم بعد واعتقدوا أنهم وحدهم الناس ، فوطئوا بدينهم من حولهم ثم جاءوا إلى مصر لما من الله على يوسف الصديق وجعله رئيس وزرائها .

وأثرت دعوة يوسف وإخوته الروحية فى سكان دلتا النيل ، وتسربت إلى طيبة معقل المصريين الأحرار الذين لم يخضعوا لحكم الهكسوس ، فتركت أثرها فى دين الفراعين فوحدوا آلهتهم فى إلٰه واحد قادر هو آمون .

وطال على الهكسوس العهد وتركوا دينهم بعد أن فتت المادية الطاغية فى عضدهم وانتشر الغنى والفسق فيهم ، فكانوا يعيشون فى مصر أمواتا قبل أن يهب المصريون لحربهم .

وقاد أحمس جنوده بعد أن شحنهم بشحنة إيمان عميقة بآمون ودارت الحرب بين الإيمان بآمون والضياع والفراغ والترف فانتصر الإيمان وطرد المصريون الهكسوس ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت

الأرض .

وأخضع المصريون سورية بفضل نفحة الإيمان التى ملأت جوانحهم وسرعان ما خبت تلك الجذوة وعاد الكهنة إلى بيع الأساطير للناس ، وفسد دين بنى إسرائيل الذين استقروا فى مصر بعد طرد الهكسوس فنسوا إسلامهم وعبدوا العجل وآلهة المصريين ، وازدهر الشرك الذى يزدهر فى ظله الغنى والظلم والفسوق ويبدأ به سوس الفساد ينخر فى صرح الحضارة ، وبدا أن الأرض فى حاجة إلى رسالة من السماء تجدد شبابها ، وتقرع الظالمين بقوارع من العذاب تعيد للمستضعفين إيمانهم بالله وتدفع ركب الحضارة دفعة إلى الأمام .

وجاء موسى عليه السلام ليدعو الناس إلى الإسلام ويخرج بنى إسرائيل من الذل المهين ، وخرج موسى ببنى إسرائيل من مصر وذهب لميقات ربه عند جبل الطور ، فلما عاد إلى قومه ألفاهم قد عادوا لعبادة العجل فغضب وثار واستغفر ربه ، ولكن الله حكم عليهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة .

وذهب موسى وبقيت توراة الله فى الأرض لتكون للمؤمنين هاديا ونبراسا ، وقاد يوشع بن نون جيوش بنى إسرائيل وانتصر على الكنعانيين واستولى على فلسطين .

وعلى الرغم من وجود التوراة فقد عبد بنو إسرائيل آلهة الوثنيين ، عبدوا بعلا والآلهة الأخرى فكان الله يبعث إليهم أنبياءه ليعودوا إلى الإيمان قبل أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد .

وقامت فى العراق دولة آشور ، دولة مؤمنة بإلهها آشور العطوف ، وكان ملوكها غلاظ الأكباد يحاربون أعداء آشور ويكومون جماجم أعدائهم أهراما

ويحرقون الدور ويسلخون جلود أعدائهم وهم أحياء إرضاء لالٰهتهم آشور العطوف . وقد سلطهم الله على بنى إسرائيل لكفرهم بعد أن جاءهم كتاب منير ، وعلى بنى إسماعيل الذين تركوا البيت المحرم وتمسحوا فى الأرض وعبدوا اللات والعزى ومنوتن وذا الشرى .

وانتهى دور آشور من التاريخ فما كانت لهم رسالة إلا تأديب من عادوا إلى الظلمات بعد أن أخرجهم الله إلى النور « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »[1] . وقامت فى بابل دولة بابل الجديدة بفضل النفحة الروحية التى سرت بين ضلوع عباد مردوخ فقضت على دولة آشور ، ثم سلطها الله على بنى إسرائيل فى أيام بختنصر لما استشرى الفساد فى الدولة التى زعمت أنها شعب الله المختار ، ففتح بختنصر أورشليم وأعمل القتل فى اليهود ، ثم حمل الرجال والنساء والولدان إلى بابل . وفى أرض المنفى راح أحبار اليهود يعيدون كتابة التوراة بأيديهم وراح كل فريق يمجد أسلافه دون الاهتمام بالواقع التاريخى ، حتى إن الذين كتبوا سفر أشعيا لم يذكروا اسم موسى على لسان نبيهم الصالح لأن موسى كان من اللاويين ، وكان الذين خطوا سفر أشعيا بأيديهم من نسل يهوذا !

وجاء الذين يتشككون وينكرون أحداث التاريخ التى لم تنقش على حجر وقالوا إن موسى شخصية من نسج الخيال ، فلو كان حقيقة واقعة لجاء ذكره على لسان أشعيا نبى بنى إسرائيل الذى خلف وراءه لفائف مكتوبة !

وانتهى دور اليهود فى التاريخ الروحى بعد أن أصاب العقم أحبار اليهود

(١) الأعراف ٣٤

وإن بقى دورهم السياسي الخبيث ، وأضاء نور الروح فى هضبة إيران فقد قام زرادشت نبى الإيرانيين يدعو الناس إلى عبادة الله وحده أهورا مزدا إلٰه النور ، وفرض على الناس خمس صلوات وبشر بالنبى العربى الذى سيبعثه الله فى جزيرة العرب، فقال لأتباعه : « استمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » .

وآمن قورش حاكم فارس بالدين الجديد ، وسرت النفحة الروحية فى صدور فلاحى إيران البسطاء فإذا بها تحيلهم إلى محاربين شجعان يجودون بأنفسهم فى سبيل دين الله وإعلاء كلمة آهورا مزدا .

واستطاع قورش بجيش المؤمنين أن يقضى على مملكة بابل ، وأن يفك أسر اليهود وأن يعيدهم إلى أورشليم ليعيدوا بناء هيكلهم المقدس الذى أحرقه بختنصر وقوضه . وأعاد اليهود بناء الهيكل ولكن الروح لم تعد تخفق فى جنبات بيت المقدس فقد زهقت مذ ذلك الوقت المقيت الذى زعم فيه اليهود أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم وأنهم شعب الله المختار ، وعبدوا أنفسهم غرورا .

وحملت النفحة الروحية فلاحى إيران البسطاء إلى أقصى الأرض فاستولوا على العراق وسورية ومصر ، وجاهدوا ليبسطوا سلطان الله على العالمين .

وطال على الإيرانيين الأمد وقست قلوبهم فانتهز المجوس (الكهنة) فرصة انكباب الناس على الدنيا وإقبالهم على الشهوات ليعيدوا سلطانهم بإحياء أساطير الأولين ، فقالوا إن أم زرادشت حملت به حملا إلٰهيا قدسيا ، فقد تسرب الملاك الذى يرعاه إلى نبات الهوما وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب القرابين المقدسة وفى الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة

العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب متناسقة فى الشرف .

وتزوج الكاهن بالفتاة وامتزج الحيسبان الملاك والشعاع فنشأ زرادشت من هذا المزيج ، فلما ولد قهقه عاليا من أول يوم ولد فيه ففرت من حوله الأرواح الخبيثة التى تجتمع حول كل كائن وهى مضطربة وجلة .

أحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس وآثر أن يعيش فى برية جبلية ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد الشيطان أن يغويه (وكما يقول المسيحيون لما ظهر الشيطان للسيد المسيح : أن يجربه) ولكنه أخفق وشق صدره بطعنة سيف ، وملئت أحشاؤه بالرصاص المنصهر فلم يشك أو يتململ بل ظل مستمسكا بإيمانه بأهورا مزدا الإله الأعظم .

وتجلى له أهورا مزدا ووضع فى يديه (الأبستاق) كتاب العلم والحكمة ، وأمر أن يعظ الناس بما جاء فيه .

وفى غفلة من المؤمنين قال المجوس إن النار ابن أهورا مزدا إله النور وأطلقوا عليه « آنار » . ولما كانت الشمس نار السماوات الخالدة فقد شرع المجوس عبادتها وقالوا إنها أقصى ما يتمثل فيها أهورا مزدا .

وكان لأهورا مزدا كما وصفه زرادشت سبع صفات هى النور والعقل الطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والخلود . ولما كان المجوس قد اعتادوا عبادة أرباب مختلفين فقد فسروا هذه الصفات على أنها شخوص وبذلك انقلب دين الوحدانية الرائع إلى دين فيه شركاء لأهورا مزدا إله النور الواحد العظيم .

واستحال ما كان يتصف به أتباع زرادشت من تقشف وزهد إلى استمتاع طليق ، وأصبح أكثر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيذ المآكل

والمشرب . وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسهم من قبل ألا يتناولوا إلا وجبة واحدة من الطعام فى اليوم يفسرون معنى الوجبة الواحدة بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتلأت مخازن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيرا ما كانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم ، وملئوا بطونهم باللحوم السمينة النادرة ، وتفننوا فى ابتكار أنواع المشهيات والحلوى ، وامتلأ البلاط الفارسى بالغانيات من اليهود اللائى كن يقدمن أنفسهن على مذبح الشهوة تمكين اليهود من تحريك ملوك الفرس فى اتجاه مصالحهم ومآربهم .

وبدأت الشعلة الروحية التى أوقدها زرادشت تخبو فى صدور الفرس ، وتمشى بين سواد الشعب الفساد ، وبدا أن فارس بدأت تنتحر من الداخل وأن الله سيذهب هؤلاء الأقوام ليأتى بأقوام آخرين يحملون الشعلة الروحية إلى حين ، ويدفعون ركب الحضارة خطوات على الطريق : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[1] .

وقد يعجب بعض القراء من أنى تعاملت مع زرادشت على أنه رسول كريم ولهم عذرهم ، فقد كان بعض المشتغلين بالدين يعتقدون واهمين أن الله خص الشعوب السامية بالرسالة والنبوة ، وهذا الزعم يدحضه القرآن الكريم :

« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »[1] ، « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم

---

(١) النحل ٣٦

بالقسط وهم لا يظلمون »[1] ، « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »[2] وبناء على ما يقرره القرآن الكريم فليس هناك من سبب يحول بين أن يصطفى الله زرادشت لرسالته ، فالله يصطفى من يشاء من الملائكة ومن الناس لرسالته .

وعلى ذلك فالعبرة بجوهر الدعوة التى كان يدعو إليها زرادشت ، إنه كان يدعو إلى عبادة الله وحده خالق الكون والناس ورب الكون والناس رب العالمين ، وإنها دعوة كل الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده .

وفرض على المؤمنين شهادة أن لا إلـٰه إلا أهورا مزدا إلـٰه النور العظيم ، والصلوات الخمس ، والتقوى ، والصدقة ، وحرم الربا ، وقال إن الكفر رأس الخطايا كلها ، وحرم عبادة الأصنام والأوثان وإقامة الهياكل ، ووعد المؤمنين بجنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وقال بالوعيد وإن جهنم مثوى للكافرين .

و لم يقل إن الله تجلى له بل قال كما قال الرسل والأنبياء إن الله كان يكلمه وحيا ، وأن « فاهومانا » أى كبير الملائكة هو الذى كان ينقل إليه أوامر الله كما قال الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده أن جبريل الأمين كان الرسول بين الله ورسله وأنبيائه .

إن دعوة زرادشت دعوة إلى الوحدانية الخالصة وإنها من نفس النبع الذى جاءت به كل الرسالات السماوية ، فإن كان « الأبستاق » كتابه الكريم قد غص بالرقى والتعاويذ والوثنيات فقد أضاف ذلك المجوس من بعده ، وقد اعتوره التبديل الذى قاست منه التوراة أيام أن أعاد أحبار اليهود كتابتها فى أيام

---

(١) يونس ٤٧ (٢) فاطر ٢٤

المنفى ، وقد فطن المؤمنون بالتوراة فى أيامنا هذه إلى ما فى التوراة مما يتنافى مع جلال الرسالات فطلبوا برفع نشيد الإنشاد الذى ينسب إلى سليمان الحكيم من الكتاب المقدس ، ويا حبذا لو قام المؤمنون برسالة زرادشت بتنقية « الأبستاق » مما فيه من الزيف عوضا عن عبادة النار والتراب والأرض والماء وتقديسها ، وعرض موتاهم فى « أبراج الصمت » للطيور الجارحة كيلا تدنس العناصر المقدسة بدفنها فى الأرض أو حرقها فى الهواء .

خمدت الجذوة الروحية التى أشعلها زرادشت فى نفوس الفرس فراحت فارس الأخمينيين تترغ من الخمر والفسق والمجون تنتظر مصيرها المحتوم .

وقام فى اليونان فلاسفة يدعون إلى توحيد الله ونبذ الأرباب المختلفين وإلى مكارم الأخلاق وإقامه المدن الفاضلة ، وقد كان الإسكندر أول مؤمن من ذوى السلطان فى جمهورية أفلاطون فقام يغزو العالم ليحقق حلم الحكومة العالمية .

اجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، وحاول الجيش الفارسى أن يصد جيش الإسكندر عند نهر غرانيقوس ولكن تلك المحاولة انتهت بانكسار الجيش الذى نخر فيه سوس الفساد ، واتجه الإسكندر جنوبا وشرقا يخضع بعض البلدان وعاد والتقى جيش الإسكندر وجيش دارا الثالث عند إسوس ، وانتصر الجيش الذى كانت قلوب قواده عامرة بالإيمان ، انتصر الإسكندر على دارا انتصارا مؤزرا ففر دارا من الميدان فرار الأنذال .

وراح دارا يجمع فلول جيشه ويغرى الجنود المرتزقة بالمال أن تحارب معه ، والتقى الجمعان عند كواكميلا واستطاع الإسكندر أن يقضى على جيش دارا فى يوم واحد وأن يطعن دولة الأخمينيين الطعنة الأخيرة . « وما كان ربك

ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[١] .

وانتشرت فتوح الإسكندر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولاح أن الدولة العالمية التى كان يحلم بها وشيكة التحقيق ، ولكن الإسكندر مات وهو فى طريق عودته من الهند إلى بابل ، ومات بموته حلم الفلاسفة فى إقامة جمهورية المدينة الفاضلة .

وقسمت دولة الإسكندَر بين قواده ، فقد كانت النفحة الروحية التى نفخها الفلاسفة فى أرواح المريدين أوهن من تلك النفحة الروحية التى يبعثها الدين فى نفوس معتقيه . ولم تطل تلك النهضة الروحية أكثر من عمر الإسكندر ، وارتدت البشرية إلى جمود الكهان ومجوس الفرس ووثنية النبط وأرباب اليونان فى جبل أوليمب وآلهة المصريين من عجول وتيوس وقطط وثعابين . وراحت الحضارة تترقب قيام رسول كريم يخرجها من ظلمات المادية الطاغية إلى رحابة الروح .

وقامت فى روما دولة الرومان وقد ارتكزت فى نشأتها على دعامة الدين ، وانتشرت فى الأرض تقضى على اليونان واليهود والنبط والمصريين والفرس ، وعلى مر الأيام ساد الظلم فى الأرض واستعبد الإنسان ونشر الرومان الفسق واللواط فى البلاد التى خضعت لهم ، وغرقت الحضارة فى ظلمات المادة ، ومن خلال ذلك الليل السرمدى أشرق نور السيد المسيح .

كانت المادية طاغية فكانت رسالة السيد المسيح روحية خالصة ليحدث التعادل بين المادة والروح ، فالنفحة الروحية ملح البشرية لا تصلح إلا بها ،

---

(١) هود ١١٧

وراح السيد المسيح يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وإلى التوبة : « توبوا فقد اقترب الملكوت » وقال لهم إن الملكوت هو كلام الله على الأرض ، وراح يبشر برسول يأتى من بعده اسمه « البارقليط » .

وقد اختلف المسلمون والمسيحيون فى ترجمة « بارقليط » وقد ترجمت جمعية التوراة الأمريكية هذه الكلمة « بالمعزى » وترجمها علماء المسلمين منذ آماد بعيدة « بأحمد »، وقد جاء فى كتاب « محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء » للأستاذ محمد عبد القادر الهاشمى الأفغانستانى بارقليط = كنسلانتر فى اللاتينية ، وباركنتس فى الرومية ، وبارقليط وباركلى توسى وبيركلى توسى فى الرومية ، وفارقليط فى السريانية ، وبارقليطون فى اليونانية ، وبارقلوطون أصل اليونانية ، وخلص إلى أن اللفظ فى السريانية واليونانية بمعنى أحمد ومحمد ومحمود .

وقال أحد النقاد المسيحيين الأفاضل عندما كان ينقد كتابى « المسيح عيسى بن مريم » : إنه رجع إلى القاموس اليونانى وبحث عن معنى « براقليط » فوجد أنها تعنى من يدافع عن آخر يوم الدينونة ، ومن يشفع لآخر يوم الدينونة ، ولم يقل سيادته باختصار « الشفيع » .

« وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[٢] .

ورفع السيد المسيح من الأرض بعد أن بذر فيها بذرة روحية قوية قادرة على أن تطور البشرية وتدفعها أشواطا فى طريق رقيها ، واستمر قياصرة روما

---

(١) هود ١١٧ (٢) الصف ٦

فى غزو سورية ومملكة النبط وإسرائيل وأرض اليهودية ، ونجح الرومان فى إزالة إسرائيل والقضاء على النبط بيما كان الدين الذى جاءهم من سورية يغزو قلوب الرومان .

واعتنق الرومان ذلك الدين الذى دعاهم إليه بولص ، وكان مزيجا من الدين والفلسفة وأساطير الأولين . وانقسم أتباع ذلك الدين إلى طوائف وشيع وانقبست الوحدانية الرائعة التى جاء بها السيد المسيح — كما قال « ول ديورنت » فى كتابه قصة الحضارة — لدى عامة الشعب شركا ؛ وطال على الناس العهد فقست قلوبهم وعبدوا ما كان يعبد آباؤهم قبل أن يهتدوا إلى الدين القويم .

وانتعشت مرة أخرى ديانة زرادشت فى فارس فقامت على أكتافها دولة الساسانيين التى راحت تناوئ الرومان ، وقامت بين فارس وروما حروب ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وكانت مكة فى ذلك الوقت منارة التوحيد ، ظلت على دين إبراهيم الخليل ولكن المكيين قد جلبوا أصنام الشعوب التى كانوا يتاجرون معها ووضعوها فى جوف الكعبة وقالوا إنها بنات الله وإنهن يشفعن إليه ، وبذلك سادت الجاهلية فى الأرض .

وظهر الفساد فى البر والبحر ، وجثم الظلم على أنفاس الناس ، وبدا أن العالم فى حاجة إلى انتفاضة روحية وإلى أسوة حسنة تحتقر المادية التى أصبحت إله العالم ، فبعث الله رسوله محمدا ﷺ يدعو الناس كافة إلى الإسلام وأنزل عليه قرآنه ليكون نبراسا للناس إلى يوم الدين .

وانتصر الإسلام بفضل النفحة الروحية التى عمرت بها أفئدة المؤمنين على

الفرس والرومان . « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[1] « تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا »[2] .

واستمر ركب التاريخ فى سيره ، تقوم الدول بانتفاضات روحية وتموت الدول بالإغراق فى المادة والترف والفسق والفجور . تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقبل أن أختم هذا التذييل أحب أن أشير مرة أخرى إلى الصعوبة التى يعانيها كاتب تاريخ هذه الحقبات ، فى معرفة الأسماء العربية الصحيحة لملوك الدول التى تتصارع على مسرح الحياة لتكوين مادة قصة الحضارة ، وقد قاسيت كثيرا لمعرفة أسماء ملوك النبط ، فقد ذكر الدكتور جواد على فى كتابه « العرب قبل الإسلام — الجزء الثالث » أن زعيم العرب الذى ورد اسمه فى التوراة لما نشبت العداوة بين النبط والمكابيين هو ملك النبط « الحارث » أو « حارثة » الأول ، وقد سمى باسم الحارث الثانى والثالث والرابع . وقد وجدت أن ابن خلدون يدعوه « هرثمة » بينما يدعوه « يوسيفوس » « هريمة » ، وقد طاف بذهنى أن هريمة قد يكون فى الأصل خزيمة وكدت أركن إلى هذا الظن ولكنى رأيت أن آخذ بما قاله ابن خلدون فأطلقت اسم هرثمة على ملوك النبط الذين أطلق عليهم الدكتور جواد على « الحارث أو حارثة » الأول والثانى والثالث والرابع .

وقد اختلف الإخباريون العرب فى قريش فقال فريق منهم : قريش هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى ، دون بنى كنانة ومن فوقه .

وقال فريق : إن قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر ، فكل من لم يلده فهو

ليس بقرشي .

وقد أخذت بالقول الأول لأنه أصح وأثبت ، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا ولد النضر بن كنانة ، لا تقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا ».

وقيل إن التقريش هو الاكتساب، وتقرشوا تجمعوا ، وقد أخذت بالقول القائل إن النضر قد جمع العدنانيين فى الحرم بعد أن كانوا متفرقين فى الأرض ، ولعل ذلك حدث بعد أن هزم الرومان النبط وفر النبط من اضطهاد الذين استبدوا بهم وقيدوا حرياتهم .

ورأى أن تاريخ هذه الحقبة لن يتضح قبل أن يميط الباحثون اللثام عن وجه حضارة النبط ، وأن القليل الذى اكتشف فى البتراء قد كشف عن حقائق كانت مغمورة فى الأساطير ، فقد كان الإخباريون يقولون : كانت هناك صخرة يلت عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف وكانت تسمى صخرة اللات (أى الذى يلت العجين) فلما مات هذا الرجل قال لهم عمرو بن لحى : إنه لم يمت ولكن دخل فى الصخرة ، وأمرهم بعبادتها وأن يبنو عليها بيتا يسمى اللات .

أما الآن فقد عرف أن اللات كانت الإيلات وكانت تعبد فى أرض النبط على أنها زوجة الإله « الإيل »، وقد نطقت الليلات ثم اللات ، وكان يرمز إليها بالشمس ، ويوم يكتشف تاريخ النبط ـــ وهم أصل القرشيين كما قال ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط » سنعرف الكثير عن نشأة لغة القرآن وعن عادات القوم وآلهتهم عوضا عن الأساطير التى تفيض بها كتب الإخباريين والمؤرخين العرب .

القاهرة فى : ١٢ / ١٠ / ١٩٦٦

المراجع

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى

تاريخ الأمم والملوك	للطبرى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	للحافظ أبي الطيب الفاسى
مختصر دراسة للتاريخ	تأليف أرنولد توينبى
	ترجمة فؤاد محمد شبل
قصة الحضارة	تأليف ول ديورانت
	ترجمة محمد بدران
تاريخ العرب قبل الإسلام	الدكتور جواد على
زرادشت الحكيم	حامد عبد القادر
محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء	تأليف محمد عبد الغفار الهاشمى
محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن	إبراهيم خليل أحمد
السيرة النبوية	لابن هشام
بلوغ الأرب	للألوسى البغدادى
عيون الأخبار	لابن قتيبة
حياة المسيح	لعباس محمود العقاد
The Jew of Tarsus.	Hugh J. Schonfield.
The Jewish Background of the Christian Liturgy,	Oesterley.
From Jesus to Paul,	Klausner..

محمد رسول الله والذين معه

١ ــ إبراهيم أبو الأنبياء — أكتوبر ١٩٦٥
٢ ــ هاجر المصرية أم العرب — مارس ١٩٦٦
٣ ــ بنو إسماعيل — سبتمبر ١٩٦٦
٤ ــ العدنانيون — فبراير ١٩٦٧
٥ ــ قريش — مايو ١٩٦٧
٦ ــ مولد الرسول — يوليو ١٩٦٧
٧ ــ اليتيم — أكتوبر ١٩٦٧
٨ ــ خديجة بنت خويلد — يناير ١٩٦٨
٩ ــ دعوة إبراهيم — مارس ١٩٦٨
١٠ ــ عام الحزن — يونية ١٩٦٨
١١ ــ الهجرة — سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ــ غزوة بدر — نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ــ غزوة أحد — يناير ١٩٦٩
١٤ ــ غزوة الخندق — مايو ١٩٦٩
١٥ ــ صلح الحديبية — يونية ١٩٦٩
١٦ ــ فتح مكة — نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ــ غزوة تبوك — فبراير ١٩٧٠
١٨ ــ عام الوفود — مايو ١٩٧٠
١٩ ــ حجة الوداع — نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ــ وفاة الرسول — ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٢١٩١
الترقيم الدولي × ــ ١١٧ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧